الفصل الثانى : شعر الاستغاثه والحث على الجهاد .

يمكننا القول ان هذا اللون من الشعر أندلسى الطابع والصبغـــــه ، اذ اننا لا نجد منه فى شعر المشرق الا خيوطا ضئيله من أهمهـــا تلـــك الأبيات التى أنشدها رسول صلاح الدين الأيوبى شمس الدين بن منقـــذ بين يدى الخليفة الموحدى يعقوب المنصور يستنجد به على الصليبيين ســنة سبع وثمانين وخمسمائه ، وفيها يقـول (١) :-

سأشكر بحرا ذا عباب قطعتـــه * الى بحر جود ما لأخراه ساحـــل .

الى معدن التقوى الى كعبة الندى * الى من سمت بالذكر منه الأوائـل .

اليك أمير المؤمنين ولم تـــزل * الى بابك المأمول تزجى الرواحـــل .

قطعت اليك البر والبحر موقنـــا * بأن نداك الغمر بالنجح كافـــل .

وحزت بقصديك العلا فبلغتهـــا * وأدنى عطاياك العلا والفواضـــل .

فلا زلت للعلياء والجود بانيـــا * تبلغك الآمال ما أنت آمـــــل .

والأبيات - كما يلاحظ - تخلو من ذكر الغرض الرئيس الذى تهدف اليـــه وهو طلب النجدة والغوث ، فقائلها جعلها قصيدة مدح خالصة للخليفـــة الموحدى الذى ينعته بأمير المؤمنين ومحط الأنظار وكعبة الآمال المتصـــف بالتقوى مع طيب نسبه وأرومتـــه . وانما سلك الشاعر سبيل المدح ليشعر الممدوح بقيمته وقدرته على الاغاثه ممهدا بذلك لتسليمه رسالة السلطان صلاح الديـــن المتضمنه شرح الحالة ، وموضوع الطلب وما جاء فيها (٢) " ..... ولما كـــانت حضرة سلطان الاسلام ، وقائد المجاهدين الى دار السلام أولى من توجـــه

---

(١) نفح الطيب : ١/٤٤٥ .

(٢) الرسالة فى الروضتين : ٢/ ١٧١ - ١٧٢ .

اليه الاسلام بشكواه وبثه ، واستعان به على حماية نسله وحرثه وكانت مساعيه ومساعي سلفه في الجهاد الغر المحجلة ، الكاشفة لكل معضلة ، وكل بجهاده قد سكن الا السيوف في أغمادها ، وقد أمن الا كلمة الكفر في بلادها .... صرخنا اليه بهذا الاستدعاء فقد تحفل السحاب ولا تمطر الى أن تحركها أيدي الرياح . وقد لقيت الرسالة قبولا من الخليفة المنصور ولكنه كان في شغل شاغل عن تلبية النداء اذ كان يعد خطة قوية لدحر الصليبيين في الغرب الاسلامي ، الذين اشتدت وطأتهم على الأندلس ، واجتمعوا عليها من مختلف جهات أوربا حتى كان يصفها ذلك الخليفة بالبتيمة وأهلها بالأيتام (١) . وعندما أكمل المنصور استعداداته جاز الى الأندلس والتحم مع النصارى في معركة " الأرك " المشهورة التي ذكرناها في الفصل السابق ، والتي أمدت في عمر الأندلس وعمر دولة الموحدين مايقرب من قرن من الزمان .

أما في الأندلس فقد ترعرع هذا الفن ، وأصبح من الأغراض الشعرية الثابتة التي فجرت ينابيعه النكبات المتلاحقة بدءا بسقوط الخلافة الأموية والى آخر عهد الأندلس الاسلامي ، فالمعارك الخارجية والفتن الداخلية ظلت مستعرة الأوار طيلة هذه الفترة الطويلة ، وقد كانت صبغة حرب النصارى للاسلام تتخذ السمة الدينية الكنسية للقضاء عليه ، ومحو آثاره الساطعة من جزيرة الأندلس ، فكان يجتمع على حرب المسلمين كل من اعتز بالصليب ، وآمن بالنصرانية . وتجاه هذا الخطر الداهم كان لابد لمسلمي الأندلس أن تمتد أيديهم لطلب العون والاستغاثة من اخوان العقيدة في المغرب وافريقية وغيرهما . وكان الشعر هو الرسول الفصيح الذي ينطلق بسرعة عبر الأسوار

---

(١) أشباخ ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين : ٢/١٦٧ .
الترجمه العربيه .

والحصار ، وفوق البحار لهشحن نفوس المستغاث بهم حماسة واتقادا ،
ويحثهم على انقاذ قواعد الاسلام التى وهت بسبب تكالب الكفار عليها .
بالاضافة الى المدح واثارة النخوة التى هى من خصائص هذا الشعر . ففى
عهد الطوائف بالأندلس شعر النصارى بخطورة موقع جزيرة ميورقه (١) ، حيث
كانت الأساطيل الاسلاميه تخرج منها وتغير على الشواطئ الايطاليه ،
فعقد الطليان حلفا مع أمير برشلونة (رامون برنجير الثالث) سنة ثمان
وخمسمائه على غزو ميورقه ، وبارك البابا هذا الحلف (٢) ، فخرج فى تلك السنة
من المياه الايطاليه أسطول كبير يحوى ثلاثمائة سفينه بالاضافة الى وحدات
بحريه أخرى من برشلونة وفرنسا ، ولما علم بذلك أمير الجزيرة (مبشر بن سليمان)
سعى فى طلب الصلح فلم تفلح مساعيه ، عندئذ أخذ فى تحصين ميورقه
واستعد للقتال حتى النهايه ، وأقبل الأسطول النصرانى وحاصر المنطقه
بالات الحصار الضخمة ، وقاسى المسلمون الجوع والألم ، ومات منهم الكثير
وعلى رأسهم الأمير مبشر ، فاقتحم النصارى الأسوار ودخلوا المدينة فعاثوا
فيها وخربوها ، وأضرموا فيها النيران وفى هذه الأثناء انطلقت أصوات
الاستغاثة نحو أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين
فى مراكش (٣) . الذى اهتز للمصاب وأدرك الخطورة المترتبه على سقوط الجزيره

---

(١) جزيرة فى البحر الأبيض المتوسط ، وهى عاصمة جزر الأندلس الشرقيه
المعروفة بجزائر البليار ، وتقع بين بجاية من الجنوب وبرشلونه من
الشمال ، وقد فتحها المسلمون سنة ٢٩٠ هـ وبقيت الى سنة ٦٢٧ هـ
حيث ملكها النصارى / انظر الروض المعطار (ميورقه) .
(٢) عنان ، عصر الطوائف والمرابطين : ٤١١ .
(٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس : ١٠٥ .

فجهز على الفور أسطولا ضخما ، وهاجم الجزيرة ففرّ النصارى بما غنمـــوه وتركوا الجزيرة أطلالا فدخلها المرابطون سنة تسع وخمسمائه وشرعوا فـــى تعميرها ، ووضعوا عليها حاكما مرابطيا يتبع دولتهم . ومن أشهر الأصوات المستغيثة صوت الفقيه الحافظ ابن عطيه (١) الذى أرسل بقصيدة يقـــول فيهـــا (٢) :-

ونحو أمير المسلمين تطامحت * نواظر آمال وأيدى رغـائـب .
من الناس تستدعى حفيظة عدله * لصدمة جور فى ميورق ناصـب .
مقيم فان لم يرغم السعد أنفـه * ألمّ فوافى جانبا بعد جانب .
لقتل وسبى واصطلام شريعـــة * لقد عظمت فى القوم سوء المصائب .

ان صاحب الأبيات يحاول أن يستثير همة أمير المسلمين (٣) ويبعثه علـــى الحماس والجهاد من طريق وصف الحادثة المرعبة التى ألمّت بالجزيـــرة ، والتى سيعم خطرها ، ويمتد شرها اذا لم يبادر أمير المسلمين الى كبـــح جماحها فهو القادر على ذلك ، واليه توجهت الأنظار .

ثم يأخذ فى مدحه بصفات الشجاعة والكرم والنجده فيقـول :-

---

(١) هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربى . من أهل غرناطـة . ولد سنة ٤٨١ هـ ، وهو أحد القضاة والفقهاء المشهورين بالأنـدلـس ، وكانت له اليد الطولى فى اللغـة والأدب والشعر ، وكان مجاهـــدا يكثر الغزو فى جيوش المرابطين حتى توفى سنة ٥٤٦ هـ . / انظـــر فهرس ابن عطيه : ٧ ، فهرس الفهارس : ٨٦٢ ، ابن الأبـــار ، معجم الصرفي : ٢٦٩ .

(٢) الفتح بن خاقـان ، قلائد العقيان : ٢٤٥ .

(٣) كان المرابطون يتسمون بأمير المسلمين تواضعا عن مقام أمير المؤمنـــين الخليفـة العباسى القرشـي .

لنا الله والملك الذي ترتجى به * من الزمن المذناب رجعة تائب .

هو الغوث فاعطفه علينا بنظرة * من الحزم تحثو في وجوه النوائب .

أليس الذي لم يحجب الدهر مثله * أغرّ صباح الدين صدق المضارب .

عهدناه يقرى الضيف قبل نزوله * ويلبس وقت السلم درع المحارب .

ويغزو فلا شيء يقوم لعزمه * ولو أنه يرمى به في الكواكب .

فلا زال جيش النصر يقدم جيشه * وتلقاه بالبشرى وجوه العواقب .

والقصيدة تمتاز بحرارة العاطفه ، وصدق الشاعر التي انبعثت من حادث مفزع وقع أمام عين الشاعر لذا نراه يلحّ في طلب الغوث ، ويبالغ في المدح ليهز أريحيّة الأمير الذي كان فعلا من المجاهدين وأولى الحزم ، فكان منه ماسبق الحديث عنه .

والملاحظ أن الشعر الذي استصرخ به المرابطون قليل جدا بالنظر الى كثرة غزواتهم وجهادهم الطويل في الأندلس . فلا نكاد نجد الا هذه القصيده ، وبعض الأبيات المتفرقه ولعل سبب ذلك هو عدم تذوقهم للشعر بلغته العربيه الأصلية لكونهم من البربر .

بالاضافة الى ميلهم للعلماء والفقهاء - خاصة - أكثر من الشعراء ، فكان طلاب نجدتهم - في الغالب - من أهل الفقه والقضاه . وفي القصيدة التي بين أيدينا دليل على ذلك .

وفي نهاية القرن الخامس الهجري اشتدت وطأة النورمان على جزيرة صقليه - كما تقدم - وأخذوا يتوغلون في أطرافها ويقتطعون نواحيها الواحدة تلو الأخرى . ففر الشاعر الصقلي ابن حمديس الى الأندلس وهناك اتصل (١) بالمعتمد بن عباد كبير ملوك الطوائف فيها حوالي سنة احدى وسبعين

---

(١) علي الصراتي : ابن حمديس الصقلي : ٨٨ .

وأبعاته طالبا نجدته ، ومحركا همته لانقاذ الوطن الصقلي المهدد ويبد و أنه لم يجد عنده بغيته فتركه الى غيره من حكام الأندلس فلم يكن منهم شيء يذكر فأخذ عندئذ يرسل الصرخات الحماسيه الى بني وطنه في صقليه ، ويدفعهم الى الصمود والمقاومه حتى النهايه فيقول (١) :-

بني الثغر لستم في الوغى من بني أمي * اذا لم أصل بالعرب منكم على العجم .

دعوا النوم اني خائف أن تدوسكم * دواه وأنتم في الأماني مع الحلم .

وكأس بأم الموت يسعى مديرها * الى أهل كأس حثها بابنة الكرم .

فردوا وجوه الخيل نحو كريهة * مصرحة في الروم بالثكل واليتم .

تهيل من النقع المحلق بالضحى * على الشمس ماهالته ليلا على النجم .

وصولوا ببيض في العجاج كأنها * بروق بضرب الهام ممطرة السّجم (٢) .

ولا عدمت في سلها من غمودها * ظهورا فقد تخفى الجداول بالرّجم (٣) .

وقرع الحسام الرأس من كل كافر * أحبّ الى سمعي من النقر في البمّ (٤) .

ولله منكم كلّ ماض كعضبه * يسيل الى الهيجاء متّقد العزم .

يحدّث بالاقدام نفسا كأنما * يطير الى الحرب اشتياقا عن السلم .

ويسطو بمحجوب الظبات اذا بدا * جلا ماجلا الاصباح من ظلمة الظلم .

له دخلة في الجسم تخرج نفسه * قبيل خروج الحدّ منه عن الجسم .

ومايفتدي منه بلحم ولا دم * ولكن بما في العظم بالبري للعظم .

له عون ضرغام هصور ، فقلبه * بتصريف فعل الجهل منه على طعم .

---

(١) ديوان ابن حمديس : ٤١٦ .

(٢) السجم : سيلان الدماء أو الدمع . اللسان (سجم) ، والمقصود هنا اصطباغ السيوف بالدم .

(٣) الرّجم : الحجارة الضخام المجتمعه . اللسان (رجم) .

(٤) البمّ : الوتر الغليظ من أوتار المزهر . / الصحاح (بمّ) .

أن الشاعر يصرخ فى صدق محذرا من الخطر الزاحف من أوربا على صقلية والشاطئ الاسلامى وهو ينتهج الأسلوب الخطابى الحماسى الملتهب وكأنه واقف فى أتون المعركة ، فيحذر من الغفلة واللهو ، ويدعو الى الجهاد والاقدام بطريقة فنية تصويريه تستفز الهمم الفاتره وتبعث العزيمة فى قلوب الجبناء وذلك عندما يصور سطوة بنى قومه فى الحرب وقد غطى عجاج خيولهم قرن الشمس الساطعه وبأيديهم سيوف كالشهب اللامعه وسط ذلك الظلام اذا صبت على الأعداء ازهقت نفوسهم على عجل فلا يبقى منها شئ لمضائها وشدة بأس حامليها .

والأبيات تشف عن قوة شكيمة الشاعر ، وصدق عاطفته التى تظهر من خلال مشاركته الوجدانيه لقومه عندما يتلذذ بذكر الحرب المستعره ، والسيوف المرهفه التى تطيح برؤوس الكفار ويعتبر ذلك نشوة تفوق سماع الأوتار والمعازف .

ثم ينتقل الشاعر الى فكرة التمسك بالوطن والتحذير من الهجرة والاغتراب القائل :-

ولله أرض ان عدمتم هواءها * فأهواؤكم فى الأرض منثورة النظم .

وعزكم يفضى الى الذلّ والنوى * من البين ترمى الشمل منكم بماترمى .

فان بلاد الناس ليست بلادكم * ولا جارها والحلم كالجار والحلم .

أعنّ أرضكم تغنيكم أرض غيركم * وكم خالة جداء (١) لم تغن عن أمّ .

أخلّى الذى ودى بودّ وصلته * لدىّ كمانيط الولىّ الى الوسمى (٢) .

---

(١) جداء : صغيرة الثدى ، قليلة اللبن . الصحاح (جدد) .

(٢) الوسمى : مطر الربيع الأول ، سمى بذلك لأنه يسم الأرض بالنبات ، والولى المطر الذى يلى الوسمى . اللسان ، (وسم) .

تقيّد من القطر العزيز بموطـــن * ومت عند ربع من ربوعك أو رســم .

واياك يوما أن تجرب غربــــة * فلن يستجيز العقل تجربة السّم .

انه يحذر من ترك الوطن ويهوّل ذلك الأمر ليزيد من رباطة جـــأش المدافعين ولينزع من النفوس أيّ تفكير فى الاستسلام طلبا للسلامة لما ينتـج من ذلك من العواقب الوخيمة ، وأهمها تمزق الشمل وانفراط العقد فيشتغل كلّ فرد بأمره الخاص بعيدا عن الآخر ، قابعا يتقلب فى ذله وسط خضـم ينكره ولا يأبه له ، ثم تراه يتساءل منكرا ومتعجبا ممن ظن أرض الناس مهمـا كان عطفهم تغنيه عن أرضه التى نبت فيها لأنها بمثابة الأم التى لا يغنى عن حنانها عطف الخالة وحدبها . وفى ختام القصيدة يوجه الشاعر نصيحـة مخلصة لبنى قومه بأن يتمسكوا بتراب الوطن وأن يلبثوا فيه مهما كـانت الظروف حتى يموتوا فى ربوعه . وهى نصيحة رجل قد عاش الغربة وجربها ، فهى فى رأيه اقدام على شرب السم المهلك لما فيها من ذل ونكد ، واضطـرار الى التملق .

وله أيضا مشيدا بشجاعة قومه وجهادهم :- (١)

زبانية خلقوا للحـــروب * يشبّون نيرانهـا بالوقـود .

مساعرهم موهفـات بنـين * لهد الجماجم من عهد هود .

هم المخرجون خبايا الجسوم * اذا ضربوا بخبايا الغمود .

هم المائلون على الحاقدين * صدور رماحهم بالحقـود .

نجوم مطالعها فى القنـا * ولكن مغاربهـا فى الكبـود .

تخط الحوافر من جردهـم * محاريب منقوشة فى الصعيد .

تخرّ رؤوس العدى فى الوغى * لها سجدا ، ياله من سجود .

---

(١) ديوانـه : ١١٥ - ١١٦ .

انه يضفى على قومه أبلغ الصفات الحماسية ، والخصائص الحربيه ،فهم بنو الحرب قد عرفوها واعتادوا خوض غمارها منذ زمن بعيد بسيوفهم الصوارم ورماحهم الصم التى يشهد لفعلها الأعداء الحاقدون . أما خيولهم المجربه فهى تطحن رؤوس العدى تحت حوافرها القويه ، والشاعر فى هذا الوصف يرسم الصورة المثاليه للفارس العربى المحنك بجميع مستلزماتها .

ثم ينتقل الى الدعاء بالسقيا لتلك الديار التى أنبتت الأبطال المجاهدين فيقول :-

وبرق تألق ايماضه * كخفق جناح فؤاد عميد .

يريك التواء قسى الرماة * اذا ماحذين بنزع شديد . (١)

سقى الله منه الحمى عارضا * يقهقه ضاحكه بالرعود .

مكرّ الطراد ،وثغر الجهاد * ومجرى الجياد ، ومأوى الطريد .

بحيث تقابل شوسا بشوس * وغرّا بغرّ وصيدا بصيد . (٢)

وأجسام أحيائهم فى النعيم * وأرواح أمواتهم فى الخلود .

ولعل هذه الأبيات تظهر براعة الشاعر ، وقدرته على الانتقال من موضوع الى آخر دون التحول عن غرض القصيدة الأصلى ، فالبرق المتألق يشبه فى خفقانه انعطاف القسى عندما ينزع الرماة الأوتار بشده ، وتمنى السقيا لأرضه لكونها ميدان الجهاد الذى يتقابل به الأقران فى حومة الوغى بين كرّ وفرّ . فالمعانى الجهاديه والحربيه هى الخيط الذى يربط جزئيات القصيدة كلها .

---

(١) أحذى : أعطى . أحذيته من الغنيمة : أعطيته منها / الصحاح (حذا) .

(٢) الأشوس : الجرئ على القتال الشديد ، اللسان (شوس) ، الغرّ : غير المجرب . المصدر نفسه (غرر) .

الصيد : جمع الأصيد ، وهو الذى يرفع رأسه كبرا والمقصود بالبيت الشجعان ./ اللسان (صيد) .

وأسلوب الشاعر جزل رصين ، تغلب عليه الألفاظ الفخمة الرنانة التى تناسب موسيقى الحرب الحاده ، وقد أبدع الشاعر فى وصف الحرب وآلا تها وغاص فى نفسيات المجاهدين وسبر أغوارها فأتى بمايناسبها من القول مع الجنوح الى الخيال والمبالغة فى وصف الشجاعة والبأس . الأمر الذى يتطلبه موقف الشاعر الثائر المتحمس . وفى شعر ابن حمديس ميل واضح الى الصنعة فقصيدته الثانيه - على وجه الخصوص - مشقلة بأنواع الزخرفة اللفظيه والمحسنات البديعيه كالجناس والطباق والمقابله كما تحوى شيئا من الاستعارات والتشابيه الجميله وعلى كل حال فقد أدى ابن حمديس دوره بايجابية ، فقد شارك قومه المجاهدين بالسنان الجهاد باللسان ، وكم من قصيدة فعلت فى النفوس مالم يفعله كبير الجهد .

وفى عهد الموحدين تدخل الأندلس فى مرحلة جديدة من الجهاد اذ كان على أمير المؤمنين الموحدى أن يتصدى لهجمات النصارى المستمره على نواحى الأندلس ، وأن يقوم بنفس الدور الذى قام به المرابطون .

وبالفعل فقد كانت الجيوش الموحديه تعبر الى الأندلس باستمرار وبقيادة الخلفاء أنفسهم [1] ، وتوقع بالنصارى ضربات قاسيه ، وكان هذا الجهاد المتواصل بحاجة الى مدد لا ينقطع من الفرسان والرجاله فرأى عبد المؤمن بن على الخليفة الموحدى الأول أن يستقطب قبائل العرب التى قدمت من الصعيد المصرى [2] أيام الفاطميين ، وخربت القيروان وماجاورها من البلاد ، وظلت تموج فى البلاد يسترضيها الحكام بنصف غلات البلاد . فاستجاب أولئك

---

(١) انظر ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامه : ٤٦٧ ومابعدها .

(٢) المراكشى ، المعجب : ٣٩٤ .

العرب لنداء الخليفه بعد أن أقطع رؤساءهم بعض النواحى ، ودخل بعضهم فى جيش الموحدين . ولمّا توفى عبد المؤمن سنة ثمان وخمسين وخمسمائه وخلفه ولده أبو يعقوب يوسف سار على نفس سياسة والده فى تقريب تلك القبائل من هلال ابن عامر وغيرهم ممن ينتمون الى قيس عيلان . فعندما أراد العبور الى الأندلس فى سنة خمس وستين وخمسمائه استنفر تلك القبائل (١)، واستثار حماسها بقصيدة من انشاء كاتبه وطبيبه الخاص ابن طفيل (٢) جاء فيها (٣) :-

أقيموا صدور الخيل نحو المغارب * لغزو الأعادى واقتناء الرغائب .
وأذكوا المذاكى العاديات على العدى * فقد عرضت للحرب جرد السلاهب (٤) .
فلا تقتنى الآمال الا من القنا * ولا تكتب العليا بغير الكتائب .
ولا يبلغ الغايات الا مصمّم * على الهول ركاب ظهور المصاعب .
يرى غمرة الهيجاء أعذب مشرب * وان أعرضت زرقا جمام المشارب .
ويأنف الا مكسبا من حسامه * ويعرض عزا عن جميع المكاسب .
ألا فابعثوها همة عربية * تحف بأطراف القنا والقواضب .

---

(١) عنان ، عصر المرابطين والموحدين : ٢/١١٧ .

(٢) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن طفيل القيسى . ولد قبل سنة ٥٠٦ هـ وأصله من وادى آشى ، كان طبيبا فى غرناطه وكاتبا لعاملها ، ثم علا أمره حتى أصبح طبيبا للخليفه أبى يعقوب يوسف وحظى عنده بمكانة عظيمه ، وهو فيلسوف وشاعر . توفى بمراكش سنة ٥٨١ هـ ، ومن مؤلفاته رسالة (حى بن يقظان) / انظر : روض القرطاس : ٧٦ ، المن بالامامه : ٤٣٥ . تاريخ الفكر الأندلسى : ٣٤٨ .

(٣) القصيدة فى المن بالامامة : ٤٣٦ - ٤٤٣ ، عنان ، تراجم اسلاميه : ٣١٦ - ٣١٧ .

(٤) السلاهب : واحدها سلهب وهو الطويل من الخيل . اللسان (سلهب) .

يدخل الشاعر فى الموضوع مباشرة اذ الأمر لا يحتاج الى مقدمات ، فيبدأ على الفور بحث القوم على الغزو ، والاستعداد للحرب مثيرا فى أنفسهم الهمة العربية العالية التى ترى العز والمجد يكتب بأسنة الرماح ، كما أن المكسب الشريف الذى يرتضيه العربى هو هو ما يجلبه بحد سيفه من أعدائه ولعله هنا يعرّض بمسلك هؤلاء الأعراب فى الاكتساب عن طريق السلب والنهب ويطمعهم فى المكاسب التى سينالونها اذا خاضوا الحرب بصدق وعزم . ثم يحضهم على نصرة الاسلام واصفا اياهم بحماة الدين ، وأهل النبى وآله الذين أظهروا دينه منذ بداية أمره :-

أفرسان قيس من هلال بن عامر * وما جمعت من طاعن ومضارب .
لكم قبة للمجد ، شدوا عمادها * بطاعة أمر الله من كل جانب .
دعوناكم نبغى خلاص جميعكم * دعاء بريئا من جميع الشوائب .
نريد لكم ما نبتغى لنفوسنا * ونؤثركم زلفى بأعلى المراتب .
فلا تزهدوا فى نيل حظكم الذى * لكم فيه فوز من جميع المطالب .
بكم نصر الاسلام بدأ فنصره * عليكم وهذا عوده جدّ واجب .
فقوموا بما قامت أوائلكم به * ولا تغفلوا احياء تلك المناقب .
وقد جعل الله النبى وآله * ومهديّه منكم بلا عيب عائب .
وفزتم بتخصيص الخليفة بعده * ونسبته الدنيا بزلفى الأقارب .
وطائفة المهدىّ منكم ، وانها * لتحنو عليكم باتصال المناسب .
ومن ذا الذى يسمو ليبلغ شأوكم * اذا كنتم فوق النجوم الثواقب .
نصحناكم والنصح فى الدين واجب * بما لكم فيه صلاح العواقب .

وفى هذه الأبيات يدخل الشاعر الى نفوس تلك القبائل عن طريق تذكيرهم بأصولهم الراسخة فى الاسلام ، وما قام به أجدادهم فى سبيل الاسلام ، ذلك الواجب الذى يجب عليهم الآن اكماله والشاعر يسلك سبيل النصيحة الواجبة

بين المسلمين فهو لا يريد من استنفارهم للجهاد الا فوزهم بطاعة اللـــه وحصولهم على أعلى المراتب عنده . ولعل هذا التودد والنصح من ابـــن طفيل نابع من كونه من نفس قبيلة قيس التى ينتمى اليها المخاطبون ، ولهذا كان هو المختار فى مخاطبتهم دون غيره من الشعراء . كما أننا نلاحـــظ أن الموحدين وعلى رأسهم مؤسس دولتهم الأول المهدى بن تومرت (١) يحاولـــون الانتساب الى القبيلة المذكوره لكسب التأييد السياسى وقد نجح هذا الأمـر الى حد كبير . فقد استجاب عدد ضخم من الأعراب ـ فى نهاية الأمـــر ـ للخليفة الموحدى وأصبحوا من جيشه فرتبهم فى نواحى قرطبة واشبيليـــة ، وزاد فيهم من جاء بعده حتى أصبح بالأندلس من زغبة ورياح وجشم مايزيـــد على خمسة آلاف فارس غير الرجالـــة . (٢)

وفى نهاية القصيدة يحذرهم من الاعراض عن نداء الجهاد فانه تضييـــع للحزم واعراض عن طاعة الله فيقـــول :-

هذار فاعراض الفتى عن نجاتـــــه * وتضييعه للحزم احدى المصايب .

وما الحزم الا طاعة اللـــه انهــــا * هى الحرم المنّاع من كل طالـب .

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن ، من قبيلة هرغـــة البربريه القاطنه بجبال درن (أطلس العليا) من اقليم السوس . وهـو ينتسب الى آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم وفى هذا النسب خـــلاف كبير . ولد حوالى سنة ٤٨٥هـ ورحل الى الشرق سنة ٥٠١ هـ والتقـــى بعلماء بغداد ، وحصّل طرفا صالحا من علم الشريعة ورجع الى المغـرب وادعى المهدية ، ودعا الى التوحيد والرجوع الى الكتاب والسنه حـــتى كثر أتباعه وكانوا نواة دولة الموحدين فى المغرب / انظر : الوفيـــات : ٥/٤٥ ، سعد زغلول عبد الحميد ، محمد بن تومرت وحركة التجديـــد : ١٢ .

(٢) المعجب : ٣٩٥ .

نعدكم السيف الذى ليس ينثنى * اذا مابها سيف براحة ضارب .

ونجعلكم صدر القناة اذا غدت * تأطّر مابين الحشى والترائب .

وقد كان من أقوالكم ماعلمتم * فان كان فعل فالرجا غير خائب .

وليس خطيب الصدق من قال فانبرى * ولكن فعل الحرّ أصدق خاطب .

وماخلق الأعراب اخلاف موعد * ولكن صدق الوعد خلق الأعارب .

ستعلم من أوفى ومن خاس عهده * ومن كان من آت الينا وذاهب .

وتظهر أحوال يروق سماعها * فيرغب فى أمثالها كلّ راغب .

وهو هنا يشيد بشجاعتهم واعتماد المسلمين عليهم فى دحر العدو فهم السيف الضارب الفتّاك الذى لا ينبو ، ثم يذكّرهم بأقوالهم ووعودهم السابقة للخليفة بالعون والنجده اذا ماشبت نار الحرب ويحضهم على الوفاء بذلك لأن الوفاء من أخلاق العرب وطباعهم الحميده التى تنفر من الغدر والخيانه ، ويستبشر فى ختام القصيده باستجابتهم التى تدعو غيرهم لسلوك طريقهم .

والقصيدة سهلة الأسلوب ، واضحة المرامى والأهداف بعيدة عن الخيال كما هى سمات الشعر السياسى ، وقد أحسن ابن طفيل فى تركيب القصيدة المنطقى ، وابراز العوامل التى تؤثر فى نفوس المخاطبين .

ويبدو أن العرب أبطأوا قليلا عن النصرة فخاطبهم الخليفة بقصيده أخرى من نظم ابن عياش (١) يستعجلهم بها .

---

(١) هو عبد الملك بن عياش بن فرج بن هارون الأزدى القرطبى ، أصله من مدينة يابره بالأندلس . كان شاعرا وكاتبا ، اشتغل بالكتابه للموحدين حتى توفى سنة ٥٦٨هـ . / انظر : المن بالامامه : ١٦٠ ، ٢٢٤ ، المراكشى ، الذيل والتكمله : ٢٦/١ .

(١)
يقـــــول :-

أقيموا الى العلياء عوج الرّواحـــــل * وقودوا الى الهيجاء جرد الصواهـل .

وقوموا لنصر الدين قومة ثائـــــر * وشدوا على الأعداء شدة صائـــــل .

وأسروا بني قيس الى نيل غايـــــة * من المجد تجنى عند برد الأصائـل .

فما العزّ الا ظهر أجرد سابـــــح * تموت الصبا في شدّه المتواصـــــل .

وأبيض مأثور كـان فرنـــــــده * على الماء محهوك وليس بسائـــــل .

وهذه القصيدة تسير على نهج القصيدة التي سبقتها فالمطلع واحـــــد يبدأ بفعل الطلب " أقيموا " تليه أفعال أخرى على نمطـه تحض على نصـرة الاسلام وجهاد الأعداء بالسيف لاكتساب المجد والشرف الخالد . ثم نـرى الخليفة يستدنى تلك القبائل ، وينا ديهم بعصبية النسب والقربى وأبنـــاء العمومه ، فيقـول شاعره :

بني العمّ من عليا هلال بن عامـــر * وماجمعت من باسل وابن باسـل .

تعالوا فقد شدت الى الغزونيـــة * عواقبها مقصورة بالأ وائـــــل .

هي الغزوة الغـّراء والموعد الــذى * تنجـّز في أفق المدى المتطــاول .

بها تفتح الدنيا بها تبلغ المنى * بها ينصف التحقيق من كلّ باطـل .
(٢)
عزمنا وأمر الله لابـدّ واقـــــع * على وقعة تودى بدين القواصـــل .
(٣)
بجيش يظل الطير في حجراتــــه * وتحجب عنه الشمس سحب القساطـل .

---

(١) المعجب : ٢٩٤ - ٢٩٥ . وقد نسبها الى الخليفة عبد المؤمـــن بن على الموحدى ، ولكن ابن صاحب الصلاة المعاصر لابن عياش يثبتهـا لابن عياش . انظر المن بالامامه : ٤٤١ .

(٢) القواصل : جمع قصله وهى الطائفه من السنبله / اللسان (قصل) .

(٣) القسطل : الغبار . الصحاح (قسطل) .

(١)
وحسر فيه الطرف من كل جانب * بحور دلاص عاد مات السواحل .
ويطلع ليل النقع فيه كواكبا * من البيض أو من مرهفات المناصل .
ويضحى به بحر الدماء مفجرا * باسمر عسال وأبيض ناصل .
بأيدى رجال قد وفوا بعهودهم * ولا حيرتهم معضلات النوازل .

والشاعر يبين سبب هذا الاستعجال فى ندائهم بأن الخليفة قد عقد العزم على الجهاد فى سبيل الله ولانصاف المسلمين فى الأندلس من أعدائهم المتسلطين فى الأندلس من أعدائهم المتسلطين عليهم استغلالا لضعفهم لذا فهو يعد العدة لوقعة عظيمة تسمع بها الدنيا ، وتحطم راية الكفر ، فما أجدر أولئك الأعراب أن يكونوا من جندها . ثم يأخذ الشاعر فى وصف جيش الجهاد بأوصاف جليلة تؤكد ظفره - بأمر الله - كوسيلة اغراء تحث الأعراب على الاسراع فى اللحاق به . فهو خميس عرمرم يحجب غباره نور الشمس ، فلا ترى وسط ذلك العجاج المدلهم الا بروقا لامعة هى السيوف والنصال . ولعله هنا يحتذى قول بشار :- (٢)

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا * وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه .

وتلك السيوف والرماح تفجر بحورا من دماء الأعداء لكونها بأيدى رجال صادقين فى الحرب أوفوا بما عاهدوا عليه الله وأولى الأمر ، ولم ينتحلوا الحجج والأعذار وكأنه هنا يعرض بتأخر الأعراب فترة من الزمن بعد دعوتهم الأولى بقصيدة ابن طفيل السابقة . وفى ختام القصيدة يضرب الشاعر على وتر حساس فى نفوس الأعراب وهو حبهم للمغنم والخيرات العاجلة فى الدنيا

---

(١) الدلاص : اللين البراق ، والمقصود هنا الدروع اللامعة . المصدر نفسه (دلص) .

(٢) ديوانه : ١/ ٣٢٥ .

فيهيب بهم لاجتناء الكثير منها قائلا :-

فطيروا اليها ياهلال بن عامـــــر * ثقالا خفافا بين حاف وناعـــل .

ولا تخدعوا عن حظكم من اجابيـــة * تبوؤكم فى المجد أسنى المنازل .

وتقطعكم صدر الندى اذا نبـــت * بمن لم يكن منكم صدور المحافـل .

أهبنا بكم للخير ، والله حسبنــا * وحسبكم والله أعدل عــادل .

فماهمنا الا صلاح جميعكـــــم * وتسريحكم فى ظل أخضر هاطـل .

وتسويغكم نعمى يرف نضيرهـــا * عليكم بخير عاجل غير آجــل .

فلا تتوانوا فالبدار غنيمــــة * وللمدلج السارى صفاء المناهـل .

ولا ريب أن القصيدة قد أدت دورها فى استنهاض الهمم والعزائـــم وذلك بتلونها ، واستخدام عدة وسائل مؤثره فى نفوس القوم . فهم عـرب تهزهم عصبية النسب والقرابـه ، وهم مسلمون يثيرهم الدفاع عن الديـن والعقيدة ، وهم أعراب من طبعهم حب المغانم والميل الى الغزو والسلـب وأسلوب القصيده سهل رصين كأسلوب القصيده السابقه ، وكأنهما من نظـم شاعر واحد ، فالتشابه كبير حتى فى الألفاظ فابن طفيل يقول : " دعوناكـم نبغى خلاص جميعكم " وابن عياش يقول : " فماهمنا الا صلاح جميعكـم " وكذلك قول الأول " فلا تزهدوا فى نيل حظكم ...... " وقـول الأخيـر : " ولا تخدعوا عن حظكم ...... " وغير هذا كثير وواضح ولعل سبب ذلك وحدة الظروف والهدف والمصدر . وقد كانت نتيجة هاتين القصيدتين ايجابيـه وذلك باستجابة الأعراب للنداء (١) . يقول ابن صاحب الصلاة : " ولما وصـلت

---

(١) المن بالامامه : ٤٤٣ - ٤٤٤ .

القصيدتان الى العرب بافريقيه والزاب والقيروان (١) ، وأوضحوا قراءتهمـا ، وتبينت لهم معانيهما ، ومافيهما من التحريض على جهاد الكفار ، ودفاع المنافقين أجابوا الى الطاعة بأكمل البدار فكان عدد الخيل الواصله من افريقيه أربعه آلاف فرس ، ومائة وخمسين حملا من المال الصامت (٢) ، ووصل من تلمسان ألف فرس وخمسون حملا من المال الصامت . " فاشتد ساعد الموحدين بهذا الدعم الكبير ، فعبروا الى الأندلس ، وافتتحوها شرقـا وغربا فى الفترة مابين سنة خمس وخمسين وخمسمائه الى سنة سبع وستين وخمسمائه ، واتخذوا مدينة أشبيليه مركزا لهم ، ومنطلقا لتحركاتهم العسكرية . وظلت الأندلس تنعم بالأمن فى ظل الموحدين الذين لم يدخروا وسعا فى رد غائلة النصارى ، الى أن حدثت معركة العقاب المشئومة سنة تسع وستمائه (٣) ، وتضعضع بعدها كيان الموحدين عامة فى المغرب والأندلس ، وبدأ النصارى ينتعشون ، ويتحدون للاستيلاء على الأندلس نهائيا ، ففى حوالى سنة أربعين وستمائه شعر والى اشبيليه الموحدى أبو عبد الله بن أبى عمران باقتراب الخطر الصليبى من منطقته فأمر من قبل الخليفة أن يستغيث بمن

---

(١) مقاطعه على طرف الصحراء الجزائريه ، وتنقسم الى ثلاث مناطق الزاب الشرقى ، والصحراوى ، والقبلى ، وتكثر فيها الأنهار والعيون وأهم مدنها طبنه ، والمسيله وبسكره وغيرها / انظر الروض المعطار (الزاب) .

(٢) المال الصامت : الذهب والفضه . الصحاح (صمت) .

(٣) انظر . شوقى أبو خليل ، معركة العقاب : ٤٥ .

المعقل (١) وهم من القبائل العربيه التى نزحت الى شمال افريقيه فى القرن الخامس الهجرى . فأمر والى اشبيليه شاعره ابن سهل (٢) بتوجيه الصريخ اليهم فبادر الى ذلك وقال (٣) :

وردا فمضمون نجاح المصدر * هى عزة الدنيا وفوز المحشر .
نادى الجهاد بكم لنصر مضمر * يبدو لكم بين العتاق الضمّر .
خلوا الديار لدار خلد واركبوا * غمر العجاج الى النعيم الأخضر .
وتسوّغوا كدر المناهل فى السّرى * ترووا بماء الحوض غير مكدر .
وتجشموا البحر الأجاج فانه * سبب به تردون نهر الكوثر .
وتحطوا حرّ الهجير فانه * ظل لكم يوم المقام الأكبر .

---

(١) بنو المعقل من القبائل العربيه التى كانت تجاور بنى هلال بن عامر بتلمسان ، وهم يعدون من بطونهم ، وينسبون الى معقل بن ربيعه بن كعب من قضاعه أو الى الحارث بن كعب ، استعان بهم الموحدون فى حروبهم ، وكان لهم جهد مذكور فى تاريخ المغرب . / انظر تاريخ ابن خلدون : ٥٨/٦ .

(٢) هو ابراهيم بن سهل الاشبيلى . كان من الأدباء الأذكياء الشعراء اشتهر بالغزل وخاصة بالمذكر . وكان يهوديا وأسلم ومدح النبى صلى الله عليه وسلم ، وله قصائد اسلاميه فى الحض على الجهاد . توفى سنة ٦٤٩ هـ على أرجح الأقوال . وله ديوان شعر ، انظر : فوات الوفيات : ٢٠/١ ، المنهل الصافى : ٥١/١ ، الأعلام : ٤٣/١ .

(٣) ديوان ابن سهل : ١٤١ - ١٤٢ .

يناد ى الشاعر العرب باسم الجهاد المقدس الذى يكسب المجاهدين عزا فى الدنيا وثوابا فى الآخره ولذا فهو يسلك سبيل المقابلة بين مايبذلونه من المشقات التى يتطلبها الجهاد وبين النعيم المقيم والراحة الأبدية فى الجنة مقابل ذلك ، والشاعر بهذا يحقّر كل الصعاب فى نظرهم ليدفعهم الى الاقدام ، فماهم فيها من دار فانيه تقابلها دار خالده ومايحلق فوقهم من غبار مصحوب بضجيج وقعقعه يقابله نعيم الجنة الدائم وسط البسائط الخضر والظلال الوارفه . ومايصيبهم من المشقة لبعد المسافة واضطرارهم الى ركوب البحر المرعب سيكون تصريحا لهم بورود نهر الكوثر ، وحوض الرسول -صلى الله عليه وسلم- فى الجنه .

ثم يصفهم بالشجاعة والحمية فى نصر الاسلام منذ العهود القديمه فيقول :-

يامعشر العرب الذين توارثوا * شيم الحمية أكبرا عن أكبر .
ان الاله قد اشترى أرواحكم * بيعوا ، وهنئكم ثواب المشترى .
أنتم أحقّ بنصر دين نبيكم * ولكم تمهد فى قديم الأعصر .
أنتم بنيتم ركنه فلتدعموا * ذاك البناء بكل ألمس أسمر .
لكم صرائم لو ركبتم بعضها * أغنتكم عن كلّ طرف مضمر . (١)
لو أنكم جهزتم عزماتكم * لهزمتم منها العدوّ بعسكر .
ولو أنكم سدّدتم همّاتكم * طعنتهم قبل القنا المتأطّر . (٢)
أضحى الهدى يشكو الظّما ولأنتم * ظلّ ورىّ كالربيع الممطر .
وبلا الجزيرة فيهب وغمودكم * مطوية فوق الصباح المسفر .

---

(١) صرائم : جمع صرمه وهى القطعة من الابل نحو الثلاثين . الصحاح (صرم) ، الطرف : الكريم من الخيل . نفسه (طرف) .

(٢) تأطّر الرمح : تثنّى . اللسان (أطر) .

الدين نادكم وفوق سروجكم * غوث الصريخ وهيبة المستنصر .
لم يبق للاسلام غير بقية * قد وطنت للحادث المتنكر .

وهو هنا يحضهم على ارخاص أرواحهم فى سبيل الله طمعا فى ثوابه وخاصة أنهم أولو فضل سابق فى تدعيم بنيان الاسلام بما عرف عنهم من الشدة والبأس والعزيمة المتقدة التى لا تقاوم وهو يكرر كلمه "لو أنكم" ليشعرهم بقدرتهم على الاغاثه اذا أرادوا ، ويتبع ذلك بشرح حال الاسلام الذى هو فى أمس الحاجة الى الغوث ، فيصفه بأنه ظمآن وهم بمثابة الماء الذى يرويه ، وجزيرة الأندلس قد خيم عليها ظلام الكفر اذا لم يدركها أولئك العرب فيكشفوه عنها بسيوفهم ، ويعيدوا اليها ضياء الاسلام الذى قرب من الاحتضار :-

والكفر ممتد المطالع ، والهدى * متمسك بذناب عيش أغبر .
البيض تقلق فى الغمود مضاضة * للحق أن يلقى بيد المستصغر .
والخيل تضجر فى المرابط حسرة * ألا تجوس خلال رهط الأصفر .
كم نكروا من معلم ، كم دمروا * من معشر ، كم غيروا من مشعر .
كم أبطلوا سنن النبى وعطلوا * من حلية التوحيد ذروة منبر .
أين الحفائظ مالها لم تنبعث ؟ * أين العزائم مالها لا تنبرى ؟
أيهز منكم فارس فى كفه * سيفا ودين محمد لم ينصر ؟ :
أم كيف تفتخر الجياد بأعوج (١) * فيكم وتنتسب الرماح لسمهرى ؟ :
هزوا معاطفكم لسعى تكتسى * فيه ثياب مثوبة أو مفخر .
جدوا ، ونموا بالجهاد أجوركم * ماخاب قصد مشمر ومشمر .
عند الخطوب النكر يبدو فضلكم * والنار تخبر عن ذكاء العنبر .

---

(١) أعوج : اسم فحل لبنى هلال بن عامر تنتسب اليه الخيول الأعوجيات .

لو صوّر الاسلام شخصا جاءكــم * عمدا بنفس الوامق المتحيّر (١) .

لو أنه نادى لنصر خصّكـــم * ودعاكم يا أسرتى يامعشرى .

ثم يصور الشاعر مايلقاه الدين من أهوال على يد الكفر المحيد حتى ظهر ذلك على صورة ألم يقلق السيوف المغموده بدون حراك ، ويضجر الخيول المقيّدة فى المرابط والتى تريد فرسانا ينطلقون عليها لدحر الصليبيين الذين دمروا بلاد المسلمين وغيروا معالمها وشتتوا أهلها ، واعتدوا على الحرمات المقدسة ودنسوها برجسهم .

وازاء هذا الوضع المؤلم يصرخ الشاعر بصوت مسموع متعجبا من فتور الهمم والعزائم التى لم تتحرك " أين الحفائظ مالها لم تنبعث ؟ : أين العزائم مالها لا تنبرى ؟ : " وهو بهذا التساؤل يعطيهم دفعة من الحماس الممزوج بشئ من التوبيخ فكأنه يريد أن يقول : عار عليكم أن تتقلدوا السيوف وتفخروا بها وبالرماح والجياد المشهوره ، وأنتم لم تتحركوا لفك أسر دينكم الممتحن ، ويتبع توبيخه لهم بالتشجيع والحثّ على اكتساب المفاخر والثواب حيث آن أوان ذلك . وفى ختام القصيدة يركز على المعنى الاسلامى الذى بثه فى أبيات القصيده ، فيجعل هؤلاء العرب هم أهل الاسلام وحماته ، فلو صوّر شخصا لقصدهم دون غيرهم لأنهم أحبابه ومعشره الذين يعزّونه .

والقصيدة تعبق بعاطفتها الصادقه الحاره فى طلب الغوث لنجدة الدين وأهله بالأندلس وقد أكثر من ذكر الثواب الأخروى لأن فيه دافعا قويا على الاقدام ، وحط المسافات الشاسعة التى تكتنفها الأخطار البرّية والبحرية والتى قد لا يجدى معها الترغيب فى المطمع الدنيوى .

---

(١) الوامق : المحب . اللسان (ومق) .

ولقد كان الشعراء الذين هم من أصل أندلسى ، وأتيح لهم الاتصال بالموحدين لا يتركون فرصة تمر دون أن يحضوا الخلفاء على الغزو والجهاد لقطع أمل النصارى فى الأندلس ، وافتكاك ما استولوا عليه منها . وهذا أحدهم وهو أبو جعفر الوقشى (١) يمدح الخليفة أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ويحثه على الجهاد قائلا :- (٢)

ألا ليت شعرى هل يمد لى المدى * فأبصر شمل المشركين طريدا .

وهل يقض فى النصارى بنصرة * تغادرهم للمرهفات حصيدا .

ويغزو أبو يعقوب فى شنت ياقب (٣) * يعيد عميد الكافرين عميدا .

ويلقى على افرنجهم عبء كلكل * فيتركهم فوق الصعيد هجودا .

يغادرهم جرحى وقتلى مبرحا * ركوعا على وجه الفلا وسجودا .

ويفتك من أيدى الطغاة نواعما * تبدلن من نظم الحجول قيودا .

---

(١) هو الوزير أحمد بن عبد الرحمن الوقشى ، نسبة الى بلده وقش من نواحى طليطله . كان كاتبا وشاعرا متصرفا فى أفانين البيان وقد كان وزيرا لابراهيم بن همشك الثائر بشرق الأندلس (انظر أخباره فى الاحاطه ١/ ٣٠٥ - ٣١١) حتى اذا انهزم ابن همشك ودخل فى طاعة الموحدين سنة ٥٦٠ هـ وجه وزيره الوقشى الى مراكش نائبا عنه فى تقديم الطاعه ، وقد توفى ٥٧٤ هـ / انظر الحله السيراء : ٢/ ٢٥٧ - ٢٦٧ .

(٢) نفح الطيب : ٤/ ٤٧٨ .

(٣) قلعة حصينة بالأندلس فيها كنيسة عظيمه عند النصارى ويزعمون أنها مبنيه على جسد يعقوب الحوارى الذى قتل فى القدس وأدخله بعض تلاميذه فى مركب بحرى فجرى به حتى حط فى هذا الموضع فبنيت الكنيسة عليه . ولها عيد مشهور يقصدها فيه النصارى من رومه والقسطنطينيه . انظر الروض المعطار (شنت ياقوب) .

وأقبلن فى خشن المسوح وطالمــا * سحبن من الوشى الرقيق بـرودا .

وغبّر منهن التراب ترائبـــــا * وخدد منهن الهجير خـــدودا .

ويالهف نفسى من معاصم طفلـــة * تجاور بالقدّ الأليم نهــــودا .

ويا أسفا ما ان يزال مـــــرددّا * على شمل أعياد أعيد بديـــدا .

وآها تمدّ الصوت منتحبا علــــى * خلوّ ديار لو يكــون مفيــــدا .

فالشاعر يتمنى أن يطول عمره لكى يرى النصارى طعاما لسيوف الاســـلام المنتصره بقيادة أبى يعقوب والوقشى يرى ان ذلك لا يتم الا اذا غزا المسلمون وكر النصارى (شنت ياقب) الذى يحوى كبيرهم الدينى وأعظم كنائسهـــم ومقدساتهم التى فيها تحاك الخطط ضد المسلمين ، كما أن على الخليفـــة الموحدى أن يحطم قوتهم ليفتك من أيديهم النساء المسلمات اللواتى أخــذن أسيرات ، فهن فى حالة تستدعى البكاء والأسف ، أبرزها الشاعر من خــلال المفارقة الناتجه من مقارنة حالتهن الراهنه بحالتهن الماضيه أيام العــزّ واجتماع الشمل ، فالحجول أصبحت قيودا ، والمسوح الخشنة البالية حلّـت محل البرود الرقيقه ولعل الشاعر قد صب تركيزه على ما أصاب النساء مـــن الذل والهوان ليستثير حفيظة الخليفة من هذه الناحية الحساسة ، ويزيده غيظا وحنقا على النصارى فيسارع فى غزوهــم .

ابن الأبار والاستصراخ :

قدمنا في الفصل السابق الحديث عن سقوط بلنسية بيد النصارى والأسبان سنة ست وثلاثين وستمائه بعد دفاع مجيد من أهلها الذين أرهقهم الحصار العنيف دون أن يتلقوا مددا ، وفي أثناء الحصار وقبيل سقوط المدينه انطلق أبو عبد الله بن الأبار مبعوثا من قبل أمير بلنسيه الى أبي زكريا الحفصي أمير الدولة الحفصيه التي كانت آنذاك في أوج قوتها (٢) مستغيثا به ، وحاملا اليه بيعة أهل بلنسيه . فقام بين يديه وأنشد سينيته الرائعة التي يقول فيها (٣) :-

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا * ان السبيل الى منجاتها درسا .

وهبّ لها من عزيز النصر ما التمست * فلم يزل منك عزّ النصر ملتمسا .

وحاش مما تعانيه حشاشتها * فطالما ذاقت البلوى صباح مسا .

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي . ولد سنة ٥٧٥ هـ ببلنسيه وتعلم فيها . كان فقيها محدثا نحويا ، ومن أكبر شعراء الأندلس وكتّابها ، رحل الى تونس عند احتلال بلنسيه وعمل كاتبا لأمرائها حتى قتل فيها سنة ٦٥٨ هـ وله آثار كثيره من أهمها : الحلة السيراء ، التكمله لكتاب الصله ، اعتاب الكتاب انظر الغبريني ، عنوان الدرايه : ٣٠٩ ، فوات الوفيات : ٣/٤٠٤ ، أزهار الرياض : ٣/٢٠٤ .

(٢) كان أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي (نسبه الى هنتاته احدى فروع قبيلة مصمودة البربريه في المغرب) واليا من قبل الموحدين على تونس منذ سنة ٦٢٥ هـ ، وعندما رأى ضعف الدوله الموحديه أعلن استقلاله بتونس دون أن يجد معارضة وذلك سنة ٦٢٤ هـ ، وقد شملت هذه الدوله بالاضافة الى تونس ، طرابلس ، ومقاطعة قسنطينه من الجزائر انظر : أحمد بن عامر ، الدولة الحفصيه : ١٧ .

(٣) النفح : ٤/٤٥٦ .

يااللجزيرة أضحى أهلها جـــزرا * للحادثات وأمسى جدّها تعسـا .
فى كلّ شارقة الماع بائقـــة * يعود مأتمها عند العدا عرسـا .
وكل غاربة اجحاف نائبـــة * تثنى الأمان حذارا والسرور أسى .
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهـــم * الاّ عقائلها المحجوبة الأنسـا .
وفى بلنسية منها وقرطبـــة * ماينسف النفس أو ماينزف النفسـا .
مدائن حلها الاشراك مبتسمـا * جذلان ، وارتحل الايمان مبتئسـا .
وصّيرتها العوادى العائثات بها * يستوحش الطرف منها ضعف ماأنسا .

يبدأ الشاعر قصيدته بالدخول المباشر الى غرضه الأصلى منها وهـــو الاستغاثة ، وذلك لأن واقع الحال أهم من أن يبدأ بالغزل أو وصـــف مشقات رحلته ، فهو ينطق على الفور بقوله " أدرك " وهو فعل مشعر بالخطر القريب المحدق فالقارئ يحسّ أن الشاعر يرتجف رعبا وهو يؤكد ضياع الأندلس ان لم تنصر بقوله : " ان السبيل الى منجاتها درسا " ولذا فهو يطلب النجدة السريعة من خيل الله لانقاذ مابقى من البلاد التى ابتليت بأصناف المحـــن والبلاء ، فالعدو محيط بها لا يفارقها وفى كل يوم له فى نواحيها وقائع تجلـب على أهلها القتل والأسر والسبى فهم فى ضنك واضطراب دائم . ثم يخصـــص مدينته بلنسية التى لا تزال محاصرة ، ومدينة قرطبة التى سقطت منذ ثـــلاث سنوات لأن هاتين المدينتين من أعظم قواعد الأندلس الكبرى التى تعرضـــت للانتهاك والاستباحة ، وصيرت مدنا صليبية يستوحش منها الناظر الذى كانت محلّ أنسه قبل ذلك . ثم يأخذ فى تفصيل ماجرى للأندلس على يد الصليبيـــين استثاره للهمم :-

يااللمساجد عادت للعدا بيعـا * وللنداء غدا أثناءها جرسـا .
لهفى عليها الى استرجاع فائتها * مدارسا للمثانى أصبحت درسا .

(١)
سرعان ماعاث جيش الكفر واحربـا * عيث الدّبا في مغانيها التي كبسنا .

وابتز بزتها مما تحيّفهـا * تحيف الأسد الضاري لما افترسا .

فأين عيش جنيناه بها خضـرا * وأين عصر جليناه بها سلسـا .

محا محاسنها طاغ أتيح لهـا * مانام عن هضمها حينا ولا نعسـا .

ورجّ أرجاءها لمّا أحاط بهـا * فغادر الشمّ من أعلامها خنسـا .

خلاله الجوّ فامتدت يداه الـى * ادراك مالم تطأ رجلاه مختلسا .

وأكثر الزعم بالتثليث منفـردا * ولو رأى راية التوحيد ما نبسـا .

ان الأمر الذى كان يحرص عليه النصارى عند الاستيلاء على مدينـه اسلاميه هو طمس المعالم الاسلامية البارزة فيها ، فكانوا قبل كل شـيء يحولون المساجد الى كنائس ، وتعلق الأجراس والنواقيس على المنارات الشامخه ويوضع الصليب على محاريب التوحيد مبالغة بالمسلمين قهرا على قهرهم .

والشاعر يحاول ابراز هذه الناحيه ليستثير عاطفة السلطان ، فيصـور الكفار وقد خلا لهم الجو وأسكتوا جميع الأصوات الا صوت نواقيس التثليـث المزعـومه .

ثم يأخذ فى مدح الأمير الحفصى ، واصفا اياه بالأمل المرجو ، ومحيى شعائر الهدى فيقـول :-

صل حبلها أيها المولى الرحيم فما * أبقى المراس لها حبلا ولا مرسـا

وأحى ماطمست منها العداة كمـا * أحييت من دعوة المهدى ماطمسا .

أيام صرت لنصر الحق مستبقـا * وبتّ من نور ذاك الهدى مقتبسا .

---

(١) الدّبا : الجراد . أساس البلاغه : (دبأ) .

وقمت فيها بأمر اللـه منتصـرا * كالصارم اهتز أو كالعارض انبجسا .

تمحو الذى كتب التجسيم من ظلم * والصبح ماحية أنواره الغلسا .

وتقتضى الملك الجبار مهجته * يوم الوغى جهرة لا ترقب الخلسا .

وهو يخاطبه بتودد بلفظ (المولى) ليضفى عليه هالة من الاحترام والعظمه التى تقوم على أساس دينى . ذلك أن الأمير الحفصى من أتباع محمد بن تومرت الذى ظهر أيام المرابطين وأخذ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويطعن فى عقيدة المرابطين ويرميهم بالتجسيم والتشبيه وسمى أتباعه بالموحدين لأنهم يميلون الى التأويل ، وينزهون الله عن كل تشبيه له بالخلق ، ثم ادعى أنه المهدى المنتظر بعد أن كثر أتباعه ، وكفّر من لم يؤمن به ، وتمخضت حركته عن أطماع سياسيه تمثلت فى تشكيل نواة الدوله الموحديه التى قامت بعد ذلك على يد تلاميذه . (١)

ثم يتحدث الشاعر عن فضل هذا الأمير وان بلنسية قد ألقت اليه مقاليدها ، وخصته بصريخها دون غيره .

هذى رسائلها تدعوك من كثب * وأنت أفضل مرجوّ لمن يئسا .

وافتك جارية بالنّجح راجية * منك الأمير الرضى والسيد الندّسا . (٢)

خاضت خضارة يعليها ويخفضها * عبابه فتعانى اللين والشرسا . (٣)

وربما سبحت والريح عاتية * كما طلبت بأقصى شدّه الفرسا .

تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبى * حفص مقبلة من تربه القدسا .

---

(١) انظر : ابن أبى دينار ، المؤنس : ١١١ - ١١٢ ، المراكشى ، المعجب : ٢٥٤ ، عبد الله علام ، الدعوه الموحديه بالمغرب فى عهد عبد المؤمن بن على : ٦٥ - ٦٦ .

(٢) رجل ندس : فهم فطن . اللسان (ندس) .

(٣) يقصد البحر المتلاطم .

ملك تقلدت الأملاك طاعتـــــه * دينا ودنيا فغشّاها الرضى لبسا .

من كلّ غاد على يمناه مستلمـا * وكلّ صاد الى نعماه ملتمسا .

مؤيّد لورمى نجما لأثبتـــه * ولودعا أفقا لبىّ وما احتبسا .

ماضى العزيمة والأيام قد نكلت * طلق المحيّا ووجه الدهر قد عبسا .

كأنه البدر والعلياء هالتـــه * تحفّ من حوله شهب القنا حرسا .

قد نوّر الله بالتقوى بصيرتـــه * فما يبالى طروق الخطب ملتبسا .

الى الملائك ينمى والملوك معا * فى نبعة أثمرت للمجد ماغرسا .

من ساطع النور صاغ الله جوهره * وصان صيقله أن يقرب الدنسا .

له الثرى ، والثريا خطّتان فلا * أعز من خطتيه ماسما ورسا .

والشاعر يضفى على الأمير صفات تجعله فوق مستوى البشر ، وذلك عن طريق المبالغة التى يتطلبها الموقف ، فهو قد صيغ من نور الله الساطع الذى لا يقربه الدنس وكأنه من الملائكة الكرام ، وقد نوّر الله بصيرته بالتقوى ومنحه العزيمة الوقاده التى لا تنكل ، فهذه الصورة المثاليه التى جمعت الى عراقة الأصل والمنبت طيب الأخلاق ، تجعل السعيد من طرق باب صاحب هذه المكانة واستعان به لأنه سيدرك حاجته مهما كانت ، ومن هنا كان قول الشاعر :-

ان السعيد امرؤ ألقى بحضرتـه * عصاه محتزما بالعدل محترسا .

فظلّ يوطن من أرجائها حرما * وبات يوقد من أضوائها قبسا .

بشرى لعبد الى الباب الكريم حدا * آماله ومن العذب المعين حسا .

ياأيها الملك المنصور أنت لها * علياء توسع أعداء الهدى تعسا .

وقد تواترت الأنباء أنك من * يحيى بقتل ملوك الصفر أندلسا .

طهرّ بلادك منهم انهم نجس * ولا طهارة مالم تغسل النجسا .

وأوطئ الفيلق الجرّار أرضهم * حتى يطاطئ رأسا كلّ من رأسا .
(١)
وانصر عبيدا بأقصى شرقها شرقت * عيونهم أدمعا تهمي زكا وخسا .
(٢)
هم شيعة الأمر وهي الدار قد نهكت * داء متى لم تباشر حسمه انتكسا .
(٣)
فاملأ هنيئا لك التأييد ساحتها * جردا سلاهب أو خطّية دُعسا .

واضرب لها موعدا بالفتح ترقبه * لعل يوم الأعادي قد أتى وعسى .

وقد حالف النجاح هذه القصيدة ، وأدت دورها في تحويل همة الأمير
(٤)
لاغاثة المحاصرين يقول المقري : "فهزت هذه القصيدة من الملك عطف ارتياح ، وحركت من جنابه أخفض جناح ولشغفه بها ، وحسن موقعها منه أمر شعراء حضرته بمجاوبتها ، فجاوبها غير واحد . "

وقد شحن الأمير الحفصي الأساطيل بالمدد لانقاذ بلنسيه ، ولكنها لم تستطع الوصول اليها لشدة الحصار فرجعت ، ورجع معها الشاعر ابن الأبار ليعيش في تونس في كنف ممدوحه ، واستسلمت بلنسية سنة ست وثلاثين
(٥)
وستمائه . وقد أعجب المقريّ نفسه بالقصيدة ، ووصفها بقوله : " .... السينية الفريده التي فضحت من بارأها ، وكبا دونها من جارها . " ولعل سبب اعجابه هو ارتياح الأمير لها وأمره بمعارضتها فالقصيدة من ناحية المعاني

---

(١) زكا : زوج ، خسا : فرد . اللسان (خسا) .
(٢) انتكس : انقلب رأسا على عقب ، اللسان (نكس) والمقصود الاستمرار والرجوع .
(٣) السلهب : الفرس الطويل . اللسان (سلهب) الخطّيه الدعسا : الرماح ، الصحاح (دعس) .
(٤) نفح الطيب : ٤/٤٥٩ .
(٥) النفح : ٤/٤٥٧ .

الرثائيه لا تضيف جديدا ، ولكن روعة القصيدة تكمن في عاطفة الشاعر الملتهبه وأحاسيسه المرهفه التي وشحت القصيدة بلون من الأسى العميق أثناء حديثه عما أصاب الأندلس عامة من البلاء ، وتغير الأحوال بسبب العدو الملازم لها كما يحس القارئ المراره التي كان الشاعر يتجرعها وهو يستجدي العون لبلاده عن طريق المدح المبالغ فيه الى حد كبير أما الأسلوب فسهل مزخرف بالمحسنات اللفظيه والبديعيه التي جاءت من غير تكلف وطلب ، وقد أحسن في اختيار القافيه مع ألف الاطلاق الداله على الفزع ومد الصوت بالصراخ ، كما أن موسيق القصيدة تتراوح بين الشدة والخفوت ، فتشتد عند ذكر الحرب ، والفيالق الجرارة ، والخيل الجرد ..... وتخفت عند ذكر المآسي الجماعية والالام .

ولابن الأبّار قصيدة أخرى طويلة في نفس الغرض وموجهة الى الأمير الحفصي نفسه يقول فيها :- (١)

نادتك أندلس فلبّ نداءها * واجعل طواغيت الصليب فداءها .

صرخت بدعوتك العلية فأحبها * من عاطفاتك مايقي حوباءها (٢) .

وأشدد بجلبك جرد خيلك أزرها * ترد على أعقابها أرزاءها .

هي دارك القصوى أوت لا يالة * ضمنت لها مع نصرها ايواءها .

وبها عبيدك لا بقاء لهم سوى * سبل الضراعة يسلكون سواءها .

خلعت قلوبهم هناك عزاءها * لما رأت أبصارهم ماساءها .

دفعوا لأبكار الخطوب وعونها (٣) * فهم الغداة يصابرون عناءها .

---

(١) نسب المقرى في النفح : ٤/ ٤٧٩ هذه القصيدة لمجهول ، ولكنها توجد بتمامها في ديوان ابن الأبار المخطوط بالخزانة الملكية بالرباط من ورقه ١ - ٤ . والنقل عن النفح حيث النص محققا . ٤/ ٤٨٠ - ٤٨٣ .

(٢) الحوباء : النفس . الصحاح (حوب) .

(٣) الخطوب العون : التي تأتي مرة بعد مره . اللسان (عون) .

وتنكرت لهم الليالى فاقتضت * سرّاءها وقضتهم ضرّاءها .

تلك الجزيرة لا بقاء لها اذا * لم يضمن الفتح القريب بقاءها .

زش أيها المولى الرحيم جناحها * واعقد بأرشية النجاة رشاءها .

والقصيدة تحمل نفس الأفكار والمعانى التى وردت فى القصيدة السابقة فهى تبدأ بنداء الأندلس الحار للأمير راجية نصره لها على الصليبيين ، وملقية مقاليدها اليها فهى بلاده ، وأهلها عبيده الذين يأتونه ضارعين كلما داهمتهم الخطوب ، وتنكرت لهم الليالى ، فهو وحده المسؤول عن الدفاع عنها ، واتخاذ الوسائل التى تكفل سلامتها ، ولهذا يخاطبه الشاعر قائلا :-

حاشاك أن تفنى حشاشتها وقد * قصرت عليك نداءها ورجاءها .

طافت بطائفة الهدى آمالها * ترجو بيحى المرتضى احياءها .

واستشرفت أمصارها لامسارة * عقدت لنصر المستضام لواءها .

ثم ينتقل الى وصف حال بلنسيه ومافعله الأعداء بها من الفساد والخراب فيقول متحسرا :

ايه بلنسية وفى ذكراك ما * يمرى العيون دماءها لا ماءها .

كيف السبيل الى احتلال معاهد * شبّ الأعاجم دونها هيجاءها .

بأبى مدارس كالطلول دوارس * نسخت نواقيس الصليب نداءها .

راحت بها الورقاء تسمع شدوها * وغدت ترجع نوحها وبكاءها .

عجبا لأهل النار حلوا جنّة * منها تمدّ عليهم أفياءها .

أملت لهم فتعجلوا ماأمّلوا * أيامهم لا سوغوا املاءها .

أما العلوج فقد أحالوا حالها * فمن المطيق علاجها وشفاءها .

أهدى اليها بالمكاره جارح * للكفر كرّه ماءها وهواءها .

وكفى أسى أن الفواجع جمـة [1] * فمتى يقاوم أسوها أسواءهـا .
مولاى هاك معادة أنباءهـا * لتنيل منك سعادة أبناءهـا .

والذى يبدو أن هذه القصيدة قد قيلت فى وقت متأخر عن القصيدة السابقة ، وبعد أن فشل الأسطول الحفصى فى اغاثة أهل بلنسية المحاصرين وأصبحت المدينة وشيكة السقوط فى يد النصارى لأن الشاعر فى هذه الأبيات يعبر عما فى نفسه من الحسرات التى تهيج العبرات كلما تذكر بلنسيه التى حال العدو بينه وبينها ، وكلمة فى (ذكراك) الوارده فى البيت ، لها دلالة على البعد الزمنى الذى عمل فيه أهل الصلبان والنواقيس عملهم فى طمس معالم الهدى .

كما أن الشاعر فى البيت الأخير يشير بوضوح الى تكراره لأخبار بلنسيه على مسامع الأمير لعله يهب لنجدتها ، فهو يقول " هاك معادة أنباءها " وهذه الاعادة لابد أن يكون لها بداية ، وهى كما يتضح قصيدته السينيه . ويلاحظ على لغة الشاعر هنا شئ من الانكسار الذى ليس من طبيعته ، وذلك عندما يصف حال الحمائم التى غدت تنوح فى أدواح بلنسيه بعد أن كانت تشدو وتمرح ، وفى عجبه من أولئك الكفار كيف حلّوا جنة الدنيا وتنعموا بأفيائها وخيراتها حتى ضاق بهم هواؤها وماؤها ، ثم نراه يختصر تعداد المصائب والفواجع ، وكأنه لا يطيق ذلك فيقول : "كفى أسى أن الفواجع جمة " ولكن التفجع وذكر مافعله علوج النصارى بالمدينة ليس هو هدف الشاعر الذى يستصرخ ويبحث عن النصير ، المتمثل عنده بشخص الأمير يحيى الحفصى .

---

(١) الأسّ : أصل البناء . الصحاح (أسس) والمقصود هنا سيد المدينة أو حاكمها الذى يقدر على علاج الموقف .

لذا نراه يعود الى طريقته الحماسيه فينادى الأمير قائلا :-

جرّد ظباك لمحو آثار العدا * تقتل ضراغمها وتسب ظباءها .

واستدع طائفة الامام لغزوها * تسبق الى أمثالها استدعاءها .

أرسل جوارحها تجئك بصيدها * صيدا وناد لطحنها أرحاءها .

هبّوا لها يامعشر التّوحيد قد * آن الهبوب وأحرزوا عليا ءهنا .

أولوا الجزيرة نصرة ان العدا * تبغى على أقطارها استيلاءها .

نقصت بأهل الشّرك من أطرافها * فاستحفظوا بالمؤمنين نماءها .

حاشاكم أن تضمروا الغاءها * فى أزمة أو تضمروا اقصاءها .

خوضوا اليها بحرها يصبح لكم * رهوا وجوبوا نحوها بيداءها .

دار الجهاد فلاتفتكم ساحة * ساوت بها أحياؤها شهداءها .

فهو يلحّ على الأمير أن يشرع سيفه لقتل الأعداء وأسرهم مستعينا بجيش التوحيد المتعطش للجهاد فى سبيل الله ، ويهوّل من التقاعس عن نصرة المسلمين فى الأندلس ويعتبر ذلك نقيصة يبرأ منها الحفص ، وهى طريقة جيده فى الحض على الاسراع للاستعداد الذى يحاول الشاعر أن يجعله حقيقة واقعه ، وكيف يجول فى خاطر الأمير المسلم النكوص عن مواجهة أهل الشرك الذين أخذوا يزحفون على أقطار جزيرة الأندلس وينقصونها من أطرافها :-

وكما فعل فى القصيدة السابقه من الاستبشار بالفتح واتباعه بالمدح المبالغ فيه يفعل هذا فى قصيدته هذه ويطيل فى ذلك الى مايزيد على ثلاثين بيتا تجتزئ منها مايفى بالغرض :

بشرى لأندلس تحبّ لقاءه * ويحبّ فى ذات الاله لقاءها .

صدق الرواة المخبرون بأنه * يشفى ضناها أو يعيد رواءها .

ملك أمدّ النيّرين بنـــوره * وأفاده لألاؤه لألاءهـا .

خضعت جبابرة الملوك لعـزّه * ونضت بكفّ صغارها خيلاءهـا .

سل دعوة المهدى عن آثـاره * تنبيك أنّ ظباه قمن ازاءهـا .

فغزا عداها واسترقّ رقابهـا * وحمى حماها واستردّ بهاءهـا .

قبضت يداه على البسيطة قبضة * قادت له فى قدّة أمراءهـا .

فعلى المشارق والمغارب ميسم * لهداه شرف وسمه أسماءهـا .

دانت له الدنيا وشمّ ملوكهـا * فاحتلّ من رتب العلا شماءهـا .

سامى الذوائب فى أعزّ ذؤابة * أعلت على قمم النجوم بناءهـا .

فئة كرام لا تكفّ عن الوغـى * حتى تصرّع حولها أكفاءهـا .

وبعد هذا المدح المسهب الذى جعل الأمير الحفصى ملكا تخرّ لـه جبابرة البسيطة ساجدين يقف الشاعر فى آخر القصيدة معتذرا ، وطالبـا الصفح من الأمير لأنه وقف عاجزا عن احصاء مناقبـه ومكارمه :-

صفحا جميلا أيها الملك الرضى * عن محكمات لم نطق احصاءهـا .

تقف القوافى دونهن حسيرة * لا عيها تخفى ولا اعياءهـا .

والقصيدة غنية بمفرداتها وتراكيبها ، وهى بلاشك تظهر مدى احاطـة الشاعر باللغة العربية وأساليبها كما أن طولها مع سابقتها يكشف عـن شاعرية ابن الأبّار الفذة ، وعبقريته ، وطول نفسه وحسن تصرفه فى المواقف الشعرية المختلفة ، الا انه أسرف فى استخدام الصنعة البيانيـة ، فشاب معانيه بعض التعقيد ، وألفاظه شئ من الغرابه ، وانك لتحس التكلف واضحا فى كثير من الأبيات التى يحاول جهده فى تركيبها وجمـع

---

(١) القدّة : سير يقد من جلد غير مدبوغ . الصحاح (قدد) .

شتات مفرداتها . وربما كان هذا التعمل راجعا الى نفسية الشاعر المضطربه التى لم تنطلق على سجيتها ، فهو فى مجال حشد فيه كل طاقاته النفسية والأدبية والبلاغية ليحصل على النتيجة الكبيرة التى وفد من أجلها ولا يكون ذلك الا بالتأثير على نفس الأمير وانعاشها ، ولذلك ذهب الشاعر يبحث عن التأثير المنشود باظهار براعته باستخدام السجع والجناس والطباق وغيرها حينا ، وبالاطناب فى المدح مع المبالغة الشديدة حينا آخر .

ومهما يكن من أمر فان الشاعر قد قام بواجبه نحو دينه ، وبلاده قياما ايجابيا فعّالا سجّله التاريخ بحروف ناصعة تختلف عمّن شهد هذه الأحداث من الشعراء وقصر جهده على البكاء والعويل .

استصراخ الأندلسيين لبنى مرين (١) :-

عندما كانت شمس الموحدين تميل تدريجيا نحو الغروب ، ظهرت فى

---

(١) هم بطن من بطون قبيلة زناته البربرية الشهيره . وهم يرجعون نسبهم الى العرب المضريه بالانتساب الى قيس عيلان . وكانت القبائل المرينيه فى بداية أمرها تتنقل فى صحارى المغرب الأوسط وهضابه ، ثم توغلوا فى المغرب ابان ضعف الموحدين ، واشتبكوا معهم وهزموهم عدة مرات حتى أزالوهم بالتالى . وملكوا المغرب مكانهم ، وكانت عاصمتهم مدينة فاس . / انظر : الذخيرة السنيه : ١٦ ، الاستقصاء : ١٣/٢ ، عنان ، نهاية الأندلس : ٩٥ .

المغرب دولتان قويتان هما : الدولة الحفصيه فى تونس (افريقيه) والدولة المرينيه فى فاس ، وقد ألمحنا الى ذكر الدولة الحفصيه فيما سبق . أما المرينية فهى من أعظم الدول التى خلفت الموحدين اتساعا وقوه ، فقد كانت تحكم المغرب الأقصى كله بعد أن قضت على آخر الموحدين ودخلت عاصمتهم مراكش سنة ثمان وستين وستمائه (١) ، وقد قامت هذه الدولة الفتيه برسالتها فى الدفاع عمّا بقى من الأندلس ، وبخاصة مملكة غرناطه ، ومثلت الدور الذى أداه قبلها المرابطون والموحدون فى جهاد النصارى . ففى سنة سبعين وستمائه وصل صريخ ابن الأحمر حاكم غرناطه الى السلطان المرينى أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق الملقب بالمنصور ، وكان هذا السلطان مولعا بجهاد الكفار كلفا به (٢) ، فعلى الرغم من اشتغاله بحروب أعدائه من القبائل الثائره فى تلمسان وغيرها ، فانه أرسل الى ابن الأحمر رسالة يعده فيها بالنصرة ويقول (٣) : " ... وانا لنرجو أن نصلكم بنفوس صلح جهرها وسرّها ، ونقدم عليكم بمايبسط نفوسكم ويسرها ، ويطلع لها الفرج من المكاره ، ويذهب عسّرها ، فلتطب نفوسكم برحمة الله وعونه ..... " ثم جهز ولده فى خمسة آلاف مقاتل وأرسله الى الأندلس ، فعبر البحر ونفذ الى أرض النصارى وانتصر عليهم وعاد مثقلا بالغنائم والسبى وفى هذا الوقت كان السلطان نفسه قد استكمل أهبته فجاز الى الأندلس

---

(١) نهاية الأندلس : ٩٧ .

(٢) تاريخ ابن خلدون : ١٩٤/٧ .

(٣) الذخيرة السنيه : ١٦٢ .

فى جيش كثيف من البربر والعرب ، وظل يكتسح مافى طريقه الى أن وصل قريبا من قرطبه ، وهناك خرج اليه جيش نصرانى كبير بقيادة قائدهم الأشهر (ذننه)(١) ، والتقى الجيشان فى موقعة عظيمه بالقرب من (استجه)(٢) سنة أربع وسبعين وستمائه وصمد المسلمون بقيادة السلطان الذى لم يزل يحض جنده على الاستشهاد حتى انجلت المعركة عن نصر ساحق للمسلمين أعاد الى الأذهان ذكريات موقعة الزلاقة والأرك المجيدتين . وتقدر الرواية الاسلاميه عدد قتلى النصارى بثمانية عشر ألفا جمعت رؤوسهم وأذن عليها لصلاة العصر(٣) .

وكان مااستصرخ به السلطان المرينى قصيدة من نظم الشاعر ابن المرابط(٤) شاعر ابن الأحمر(٥) يقول فيها :-

هل من معينى فى الهوى أو منجدى * من متهم فى الأرض أو من منجد .

هذا الهوى داع فهل من مسعف * باجابة وانابة أو مسعد .

---

(١) مدينة قديمه تقع جنوبى غربى قرطبه ، محكمة البناء عظيمة الأسوار والآثار والرسوم ، فتحها المسلمون سنة ٢٠٠ هـ وهى خصبة التربة كثيرة الزرع والشجر ، واشتهر أهلها بمخالفة أولى الأمر والخروج عن الطاعه ./ الروض المعطار " أستجه " .

(٢) عنان ، نهاية الأندلس : ١٠٠ .

(٣) الذخيره السنيه : ١٧٣ .

(٤) هو محمد بن على بن عبد الرحمن المرادى ، شاعر مطبوع رقيق الشعر سلك مسلك المرقين ، وترك سبيل المتشدقين . وأخباره قليله جدا لا نكاد نقف منها على شىء من حياته الا أنه مات صغيرا ولم يتكسب بالشعر ، فلم يشتهر /الخريده : قسم شعراء الأندلس والمغرب : ٢/ ٥٣٣ .

(٥) تاريخ ابن خلدون : ٧/ ١٩٨ - ٢٠٠ .

هذى سبيل الرشد قد وضحت فهل * بالعدوتين من امرئ مسترشـد .

يرجو النجاة بجنة الفردوس أو * يخشى المصير الى الجحيم الموقد .

ياآمل النصر العزيز على العـدا * أجب الهدى تسعد به وتؤيـد .

سر النجاة الى النجاة مشمرا * ان الهدى لهو النجاة لمن هدى .

لا تغترر بنسيئة الأجل الذى * ان لم يحن لك نقده فكأن قـد .

سفر عليك طويلة أيامـه * ولم تستعدّ لطوله فاستعـدد .

أو ماعلمت بأنه لا بدّ مـن * زاد لكل مسافـر فـتزوّد .

هذا الجهاد رئيس أعمال التقـى * خذ منه زادك لارتحالك تسعـد .

هذا الرباط بأرض أندلس فسـح * منه لما يرضى الهك واغتـد .

يبدأ الشاعر قصيدته بمقدمة وعظية يبين من خلالها قصر أجل الانسان فى الحياة ، وأنه مهدد بالموت بين اللحظة والأخرى ، وبعد هذا الموت والرحيل عن الدنيا تبدأ الرحلة الأخرويه الشاقه حيث الحساب والعقاب فالسعيد الفائز هو من اتبع الهدى اذ هو سر النجاة الذى من تزود به رشد وسعد ، وهذا الهدى الذى يركّز الشاعر على ذكره يتبلور فى الجهاد الذى دقت ساعته ، فهو يشير اليه بهذا ليدلل على قربه ووقوعه ، فماعلى السلطان المخاطب الا أن يبادر الى كسب حظه منه ثم يتوجه الشاعر الى السلطان المرينى ليشحذ همته عن طريق شرح حال الاسلام والمسلمين فى الأندلس فيقول :-

من ذا يطهّر نفسه بعزيمـة * مشحوذة فى نصر دين محمـد .

أتمزّ من أرض العدو مدائـن * والله فى أقطارها لم يعبـد . ؟

وتذلّ أرض المسلمين وتبتلـى * بمثلّثين سطوا بكل موحـد .

كم جامع فيها أعيد كنيسـة * فأهلك عليه أسى ولا تتجلـد .

القسّ والناقوس فوق منـــاره * والخمر والخنزيـر وسط المسجد .

أسفا عليها أقفرت صلواتهـــا * من قانتين وراكعين وسجـــــد .

وتعوضت منهم بكـل معانـــد * مستكبر قد كان لم يتشهـــد .

كم من أسير عندهم وأســـيرة * فكلاهما يبغى الفداء فمافـــدى .

كم من عقيلة معشر معقولـــة * فيهم تود لوانها فى ملحـــد .

كم من تقى فى السلاس موثـــق * يبكى لآخر فى الكبـول مقيـــد .

ومادام مسلمو الأندلس بهذه الحالة المحزنة من الذل والقهر فـــان أولى من يستغاث به هو الجار المسلم . فنجد الشاعر يناديه باسم الأخـــوه الاسلاميه وباسم الجوار وحقوقه فيقـول :-

أفلا تذوب قلوبكم اخوانـنــا * مماد هانا من ردى أو من ردى ؟ :

أفلا تراعون الأذمة بيننـــا * من حرمة ومحبة وتـــودد ؟ :

أكذا يعيث الروم فى اخوانكــم * وسيوفكم للثأر لم تتقلـــد ؟ :

ياحسرتى لحمية الاسلام قـــد * خمدت وكانت قبل ذات توقد .

أين العزائم مالها لا تقتضـى * هل يقطع الهندى غير مجرد .

أبنى مرين أنتم جيراننــــا * وأحق من فى صرخة بهم ابتدى .

فالجار كان به يوصّى المصطفى * جبريل حقا فى الصحيح المسند .

وهو هنا يكثر من الاستفهام المفيد للتقريع ليكون أبلغ فى اشعارهـــم بالتقصير وتضييع حقوق الجار التى لها منزلة عظيمة فى الاسلام . وهـــذا الأسلوب ربما كان أفضل ماينتهج مع قوم كالمرينيين الذين عرفوا بحبهـــم للجهاد ، وتفضيلهم له على سائر الأعمال فهو يلهب حماسهم عندما يقـــول " أكذا يعيث الروم فى اخوانكم .... " أو عندما يصف حمية الاسلام بأنهـــا

خمدت فى عهدهم وكانت من قبلهم مشتعلة . ثم يأخذ فى بيان فريضة الجهاد على المسلمين ككل ويخص أهل المغرب لقربهم من ميدان القتال :-

أبنى مرين والقبائل كلها * فى المغرب الأدنى لنا والأبعد .
كتب الجهاد عليكم فتبادروا * منه الى الفرض الأحق الأوكد .
وارضوا باحدى الحسنيين وأقرضوا * حسنا تفوزوا بالحسان الخرّد .
هذى الجنان تفتحت أبوابها * والحور قاعدة لكم بالمرصد .
لله فى نصر الخليفة موعد * صدق فثوروا لانتجاز الموعد .
أنتم جيوش الله ملء فضائه * تأسون للدين الغريب المفرد .
ماذا اعتذاركم غدا لنبيكم * وطريق هذا العذر غير ممهد .
ان قال لم فرطتم فى أمتى * وتركتموهم للعدو المعتدى .
تالله لو أن العقوبة لم تخف * لكفى الحيا من وجه ذاك السيد .
اخواننا صلوا عليه وسلموا * وسلوا الشفاعة منه يوم المشهد .
واسعوا لنصرة دينه يسقيكم * من حوضه فى الحشر أعذب مورد .

والملاحظ على القصيدة خلوّها من المدح الذى يلازم هذا النوع من الشعر ، فهى تقتصر على المعانى الاسلاميه فحسب كبيان سبيل المجاهد الذى يفضى الى احدى الحسنيين : الشهادة أو النصر كما تشير الى عتاب النبى -صلى الله عليه وسلم- الشديد للذين خذلوا اخوانهم المسلمين وتركوهم فريسة للعدو الكافر ، ولعل سبب خلوها من المدح يرجع الى نفس المستنجد به الذى لا يريد أن يكون المديح هو دافعه للجهاد ، بل يريد أن يجعل نيته خالصة لله ، ومنه يرجو الثواب الجزيل . وسبب آخر ربما قصد اليه الشاعر عند كلامه عن الأخوة الاسلامية والجوار ، وهو اشعار السلطان المرينى بأن الأندلس بلاده ، والدفاع عنها واجب عليه ، فقيامه بهذا

الواجب المفروض لا يحتاج الى مدح .

أما أسلوب القصيدة فهو سهل بعيد عن التوعر ، يعتمد على الواقعيه فيما جرى ويجرى لأهل الأندلس من الفتن ، ويبعد عن الخيال ، والصور والظلال لأنه ينطلق من واقع شاهد يعيشه بعواطفه وأحاسيسه ، وهذه النفحات الانسانيه من الألم والحزن والرجاء هى معدن الجمال فى هذا الشعر .

وقد عارض هذه القصيدة ، وأجاب عما فيها من استفهام شاعر السلطان المرينى مالك بن المرحّل (١) وذلك بعد أن انتهت المعارك الحماسه التى دحر فيها السلطان النصارى ، وخضد شوكتهم وعقد العزم على الرجوع الى عاصمتة فاس بعد أن مكث فى الأندلس ستة أشهر ، يقول ابن المرحل : (٢)

شهد الاله وأنت يا أرض اشهدى * أنا أجبنا صرخة المستنجد .

لمّا دعا الداعى وردّد معلنا * قمنا لنصرته ولم نتردد .

نسرى له بأسنّة قد جرّدت * من غضبها والصبح لم يتجرّد .

لولا الأسنة والسنابك مادرى * أحد بسير خيولنا فى الفرقد .

والخيل تشكونا ولا ذنب سوى * أنا نروح بها وأنّا نغتدى ..

---

(١) هو أبو الحكم مالك بن عبد الرحمن المرحّل المصمودى نسبا ، والسبتى بلدا . ولد بمالقه سنة ٦٠٤ هـ . برع فى الشعر والأدب وعلوم اللغه والفقه . تولى القضاء بجهات غرناطه ، ثم رحل الى فاس وكتب للسلطان المرينى المنصور ثم لولده يوسف . وتوفى ابن المرحل سنة ٦٩٩ هـ بفاس أنظر : عبد الله كنون ، ذكريات مشاهير رجال المغرب : ٦/٨ .

(٢) رضوان الدايه ، مختارات من الشعر الأندلسى : ١٨٢ - ١٨٤ .

لو أنها علمت بنا فى قصدنا * كانت تطير بنا ولم تتردد .

الله يعلم أننا لم نعتقد * الا الجهاد ونصر دين محمد .

وهو هنا يبين استجابتهم لصريخ الأندلس ، وسرعة استعدادهم للجهاد فى سبيل الله ولاعزاز دين محمد - عليه الصلاة والسلام - وهو بهذا يجيب نداء ابن المرابط فيما سبق حينما قال :

من ذا يطهر نفسه بعزيمة * مشحوذة فى نصر دين محمد .

ثم يسترسل الشاعر فى وصف رحلة الجهاد ، وخوض البحر لانقاذ اخوان العقيدة :-

ثم اعترضنا البحر وهو كأنه * ملك تقدم فى الجيوش لمرصد .

فترامت الخيل العطاش لورده * هيهات ما الماءُ الأجاج بمورد .

ياخيل ان ورائنا مسناءً رِوًى * وشاربا ، ومزارعا لم تحصد .

وأحبة بين الفواقد أصبحوا * يتوقعون الموت ان لم تنجد .

من مطلق العبرات الا أنه * تجرى دموع جفونه لمقيّد .

ومُفجّع لا يستلذ بمطعم * وموّع لا يستقرّ بمرقد .

إخواننا فى ديننا وودادنا * ولهم مزيد تحبّب وتودّد .

نسرى بأجنحة البُزاة الى العدا * مثل الحمام الحمائمات السوِّد .

واستقبلت بحر الزقاق (١) بعصبة * نفذت عزائمها ولم تتعدّد .

فاستبشروا فى أفقهم بطلوعنا * كالشمس يوم طلوعها للأسعُد (٢) .

حتى بغتنا القوم فى أوطانهم * إن الحوادث لا تجئ بموعد .

ثم التقينا بالذين استصرخوا * منا بكل مؤيد ومسدد .

---

(١) بحر الزقاق : هو البحر الأبيض المتوسط ، أو مضيق جبل طارق .

(٢) الأسعد : هى الكواكب العشره التى يقال لكل واحد منها سعد . اللسان (سعد) .

ولا شك أن المجاهدين قد تجشموا عناء كبيرا فى سبيل الوصول الى الأندلس ، فالبحر الهائج هو أول مايعترض الطريق وهو عقبة تحتاج الى عزيمة لا قتحامها . ثم يصور منظر الخيل المجهدة العطشى وشوقها الى الماء ولكن هيهات أن يكون هذا موردها وغاية منتهاها ، فماهذا البحر الأجاج الا بداية الطريق للوصول الى الماء العذب ، والزرع اليانع فى ديار الأحبة البائسين الذين لم يعودوا يستلذون المطاعم والمشارب ، ولا يذوقون طعم النوم لما دهاهم على يد العدو من القتل والأسر واضطراب الأحوال الأمر الذى لا يحتمل التأخير عن نصرتهم وعونهم . فكانت البشرى فى نهاية الأمر حيث عبرت جنود الجهاد وباغتت العدو ، وأوقعت به مالم يكن يتوقع ، وفرّج الله بهم كرب اخوانهم . والشاعر يصف مجرى الحوادث وصفا واقعيا وبدون تفصيل كثير لأجزاء المشاهد الحربيه ، وبدون مدح أو فخر لأنه كان يهدف من قصيدته اجابة ابن المرابط ومعارضته ، أما ماجرى من صدق الجهاد فقد شاهده الأندلسيون بأعينهم مما لا يحتاج معه الى بيان أو تفصيل .

ولقد كان مالك بن المرحل يقوم فى المغرب بحركة واسعة تدعو لانقاذ الأندلس المحتضره (١) ، فقد نظم فى سنة اثنتين وستين وستمائه قصيدة طويله يستنفر فيها المجاهدين من بنى مرين وغيرهم وكان آنذاك كاتبا للسلطان المرينى أبى مالك بن يعقوب ، وقد قرئت القصيدة بصحن جامع القرويين فى فاس بعد صلاة الجمعه ، فبكى الناس ، وانتدب كثير منهم للجهاد . ومما جاء فى القصيدة : (٢)

---

(١) شارك فى هذه الحركه أناس آخرون بأساليب متنوعه . انظر / عنان ، عصر المرابطين والموحدين : ٢/ ٤٣٥ .

(٢) كنون ، ذكريات مشاهير رجال المغرب : ٨/ ٢٧ - ٢٩ .

استنصر الدين بكم فاستقدموا * فانكم أن تُسلِموه يُسلَمُ .

لا تسلموا الاسلام يا اخواننا * وأسرجوا لنصره وألجموا .

لاذت بكم أندلس ناشدةً * برحم الدين ونعم الرَّحِمُ .

فاسترحمتكم فارحموها إنّه * لا يرحمُ الرحمن من لا يَرْحمُ .

ماهى الا قطعة من أرضكم * وأهلها منكم وأنتم منهم .

لكنها حدّت بكل كافر * فالبحر من حدودها والعجم .

لهفا على أندلس من جنة * دارت بها من العدا جهنم .

استخلص الكفار منها مدنا * لكل ذى دين عليها ندم .

قرطبة هى التى تبكى لها * مكةُ حزنا والصّفا وزمزم .

وحمص وهى أخت بغداد وما * أيامها الا صِبا والحُلُم .

استخلصوها موضعا فموضعا * واقتدروا واحتكموا وانتقموا .

وقتّلوا ومثّلوا وأسروا * واحتطوا وأيتموا وأيّموا .

يستصرخ الشاعر أهل المغرب باسم الاسلام لأنه الرحم القويه التى تجمع المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم ، ويدفعهم الى التضحية وبذل النفوس متميزة بذلك عن الروابط الأخرى التى سرعان ماتزول عند وقوع الخطر ومن هذا المنطلق فقد جاءت الأندلس تطلب صلة هذه الرحم ، راجية نصرة المجاهدين على الكفار الذين حولوا جناتها الى جحيم ، واقتطعوا منها أجزاء غالية كقرطبة واشبيلية عاصمتى الاسلام فى الأندلس ، وساموا المسلمين فيهما أنواع العذاب . وهم لم يفعلوا ذلك الا لأنهم ظنوا أن لا ناصر لها :-

ظنوا وكان الظن منهم كاذبا * أن ليس لله جنود تُقْدِمُ .

ماصدّقوا أن وراء البحر مَنْ * يغضب للاسلام حين يُظلم .

ولا دروا أن لديكم حُرمة * يحفظها شبابكم والهرم .

لو عرفوا قبائل العدو وقرما * عدوا على جيرانهم واجترموا .

اليوم يدرى كلُّ شيطان بها * أن قد رمتهم بالشعاع الأنجم .

ووهو هنا يستثير عزائمهم بوصفهم بجنود الله الذين يغضبون لحرماته عند ما تنتهك ، كما يرفع من شأنهم بحمايتهم للجار وصيانته ، فمابالك وقد اعتدى الكفار على جيرانهم ، وعاشوا فى ديارهم ، ان الدفاع قد وجب عليهم ولا شك . ثم يحاول دفعهم الى ساحات الجهاد من جانب آخر وذلك أن غيرهم قد سبقهم فى هذا المجال ، وأدى دوره ، وفاز بالأجر والمغنم :-

ياأهل هذى الأرض ماأخركم * عنهم وأنتم فى الأمور أحزم .

تسابق الناس الى مواطن * الأجر فيها وافر والمغنم .

وقامت الحرب على ساق فما * زلت لأهل الصدق منهم قدم .

باعوا من الله الكريم أنفسا * كريمة ففاض منها الحكم .

دعاهم الله الى رحمته * وحيّهم بين يديه يخدم .

أخرجه من بيته ايمانه * وحبه فى فعل مايُقدّم .

لههّه الا قتال أمة * يُكفِّرُ عيسى قولهم ومريم .

لم يثنه عن عزمه أهل ولا * مال ولا خوف نعيم يعدم .

وما دامت عاقبة الجهاد عظيمة ، والقوم أولى ايمان وحزم ففيم القعود اذن ؟ :

إخواننا ماذا القعود بعدهم * أفى ضمان الله مايتّهم .

هل هى إلا جنةٌ مضمونةٌ * أو عودة صاحبها مكرم .

حُدّوا السلاح انفروا وسارعوا * الى الذى من ربكم وُعدتم .

ان أمام البحـــر من اخوانكـــم * خلقا لهم تلّفت اليكـــم .

ونحوكم عيونهـم ناظـــــرة * لا تطعم النوم وكيف تطعـم ؟ .

والروم قد همت بهم ومالهـــم * سواكم رد ء فأيـن الهمـم .

كلهم ينظر فى أطفالـــــه * ودمعه من الحذار يسجـم .

أين المفرّ لا مفرّ انمـــــا * هو الغياث أو اسـار أو دم .

والقصيدة سهلة فى أسلوبها ، واضحة فى أفكارها ومعانيها ليس فيهـــا تعمل ولا صنعـه ، وذلك لأنها كانت موجهة الى عامة المسلمين فى دولـــة بنى مرين ، وقد انطلق فيها صوت الشاعر الثائر معبرا عن عاطفته الاسلاميـة القويه يحث على الذبّ عن الاسلام الذى جاء مسترحما مايلاقى من الشـدّه وداعيا الى استخلاص ماأخذ من أراضى الأندلس ملقيا تبعة ذلك على مـــن يخاطبهم لأن أرض المسلمين واحده وان حالت الحواجز دون اتصالها .

فما أصاب قرطبة أبكى مكة وحرمها وفى ذكر الأماكن المقدسة على هـــذه الصورة من الحزن دفعة قوية لهمم القوم وعزائمهم نحو الجهاد .

لسان الدين بن الخطيب ودوره فى استصراخ بنى مـرين :-

فى منتصف القرن السابع الهجرى عاد شبح الفناء يخيم على الأندلـــس من جديد ، فقد أخذت قواعدها الكبرى كقرطبة وبلنسية واشبيلية تسقـط تباعا فى يد النصارى ، واجتاحت الفتن والثورات المحليه أجزاء أخرى حـــتى كاد يرجع عصر الطوائف من جديد . وتمخضت هذه الفوضى بالتالـــى ـ ـ ـ عن ولادة مملكـــة اسلاميـــة جديـــدة فى جنـــوب الأندلس هـــى مملكـة

غرناطة التى (١) عاشت حوالى قرنين ونصف فى صراع مرير مع النصارى المتربصين مما اضطر حكامها فى كثير من الأحيان الى عقد صلح جائر الشروط مع النصارى وذلك بدفع المبالغ الماليه الضخمه كجزية سنويه ، مع التنازل عن كثير من المدن والحصون . ولعل موقعها الجغرافى (٢) كان له أكبر الأثر فى صمودها هذه المدة الطويله فهى تقع وراء القواعد والثغور الجنوبيه المنيعه ، ويفصلها عن أسبانيا النصرانيه نهر الوادى الكبير ، وفى الوقت نفسه كانت قريبه من عدوة المغرب حيث الدولة المرينيه التى كانت الساعد الأيمن لهذه المملكة .

وقد كان لسان الدين بن الخطيب يشغل منصب الكتابة والوزارة فى هذه المملكه أيام سلطانها يوسف بن اسماعيل بن فرج بن نصر الخزرجى المكنى بأبى الحجاج الذى (٣) تولى سنة أربع وثلاثين وسبعمائه ثم لولده أبى عبد الله محمد الملقب بالغنى بالله الذى تحرك النصارى صوب غرناطة فى أيامه ، فبعث وزيره ابن الخطيب مستنجدا بالسلطان المرينى أبى عنان فارس فقال بين يديه : (٤)

---

(١) أسسها محمد بن يوسف بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجى . من سلالة سعد بن عباده رضى الله عنه ـ ولد سنة ٥٩٥ هـ بأرجونه (بلدة صغيره تقع شمال غربى مدينة جيان) وعرفت دولتهم باسم الدولة النّصريّه وهى آخر معاقل المسلمين فى الأندلس ./ انظر : الاحاطة : ١٥٨/١ ، عنان : نهاية الأندلس : ٣٨ .

(٢) تاريخ ابن خلدون : ١١٠/٧ .

(٣) ابن الخطيب ، اللمحه البدريه : ١٠٣ - ١٠٤ .

(٤) المقّرى : ازهار الرياض : ٢٠٦/١ .

خليفة اللـه ساعد القـدر * علاك مالاح فى الدّجى قمر .

ودافعت عنك كفّ قدرته * ماليس يسطيع دفعه البشر .

ليس لنا ملجأ نؤمّله * سواك أنت الثمال والوزر (١) .

وجهك فى النائبات بدر دجى * لنا وفى المحل كفّك المطر .

والناس طرا بأرض أندلس * لولاك ماأوطنوا ولا عمروا .

وجملة الأمر أنه وطن * فى غير علياك ماله وطر .

ومن به مذ وصلت حبلهم * ماجحدوا نعمة ولا كفروا .

وقد أهمتهم نفوسهم * فوجهونى اليك وانتظروا .

والأبيات كلها مدح للسلطان بصفات الشجاعة والكرم ، مع التأكيد على ولاء أهل الأندلس له واعترافهم بفضله السابغ وطلبهم المزيد منه . وقد أجاد الشاعر الوزير فى اختيار الألفاظ التى تصلح لهذا المقام مما جعل السلطان يهتز لهذه الأبيات ، ويقول لابن الخطيب قبل أن يجلس ، "ماترجع اليهم الا بجميع طلباتهم" (٢) . ثم أثقل كاهلهم بالاحسان وردهم بجميع ماطلبوه .

وقد شغل شعر الاستغاثة ، والحث على الجهاد ومدح المجاهدين من السلاطين المسلمين حيزا كبيرا من حياة ابن الخطيب وشعره ، وذلك بحكم منصبه الخطير ، وحرصه على سلامة بلاده . فله من قصيدة وجهها لكافة المسلمين بالمغرب من أهل الأندلس عند كلب العدو الكفور ، وظهوره على بعض الثغور (٣) :

---

(١) الثّمال : الملجأ ، والغياث . الصحاح (ثمل) ، الوزر : الجبل الذى يعتصم به ، وهو السلاح أيضا . اللسان (وزر) .

(٢) الاحاطه : ١/٢٣ .

(٣) ابن الخطيب ، ديوان الصّيب والجهام : ٦٢٨ - ٦٣٠ .

اخواننا لا تنسوا الفضل والعطفا * فقد كاد نور الله بالكفر أن يطفا .

وان بلغ الماء الزّبا فتداركوا * فقد بسط الدين الحنيف لكم كفّا .

تحكم فى سكان أندلس العدا * فلهفا على الاسلام مابينهم لهفا .

وجاشت جيوش الكفر بين خلالها * فلا حافرا أبقت عليها ولا ظلفا .

أنوما واغفاء على سنة الكرى * ومانام طرف فى حماها ولا أغفى .

أحاط بنا الأعداء من كل جانب * فلا وزرا عنهم وجدنا ولا كهفا .

يوجه الشاعر خطابه الى اخوانه فى العقيدة ملتمسا فضلهم وعونهم لنصرة الاسلام الذى يمدّ يديه مستغيثا بعد أن تحكم الأعداء فى بلاده ، وأحاطوا بأتباعه من كل جانب وفعلوا بهم الأفاعيل :-

فمن معقل حل العدوّ عقاله * ومن مسجد صار الضلال به وقفا .

ومن صبية حمر الحواصل أصبحت * تقلّب ذعرا بين أعدائها الطّرفا .

ومن نسوة أضحت أيامى حواسرا * يعاين فى أعيانها الوهن والضعفا .

وسيلتنا الاسلام ، وهو أخوة * من الملأ الأعلى تقربنا زلفا .

فهل ناصرٌ مستبصر فى يقينه * يجير من استعدى ويكفى من استكفا .

ومنتجز فينا من الله وعده * فلا نكث فى وعد الاله ولا خلفا .

وهل بائع فينا من الله نفسه * فلا مشتر أولى من الله أو أوفى .

ثم يتوجه الى أهل المغرب من المرينين وغيرهم مستثيرا عواطفهم الاسلاميه بشئ من المدح المشوب بالعتاب لتأخرهم عن الجهاد بعض الشئ قائلا :

أفى الله شك بعد ما وضح الهدى ؟ * وكيف لضوء الصبح فى الأفق أن يخفى .

وكيف يعيث الكفر فينا وبيننا * قبائل منكم تعجز الحصر والوصفا .

غيوث نوال كلما سئلوا الندى * ليوث نزال كلّما حضروا الزحفا .

اذا كاتبت يوما فأقلامها القنا * وان أرسلت كانت صفائحها الصّحفا .

فقوموا برسم الحقّ فينا فقد عفا * وهبّوا لنصر الدين فينا فقد أشفا (١) .
وهانحن قد لذنا بعز حماكم * ونرجو من الله الإدالة (٢) واللّطفا .

انه يخاطب قوما مسلمين أدركوا قيمة الجهاد ، وخاضوا غماره فى الأندلس مرات عديدة ، وظفروا بالعدو ، وأغاثوا اخوانهم . فلذلك نرى نبرته الحماسية القويه التى تستنكر أن يعربد الكفر ويصول بالأندلس المسلمه ، ومن ورائها الآلاف من ليوث أهل المغرب المرهوبة الجانب .

أما أسلوب ابن الخطيب فتغلب عليه الصنعة البلاغية بمختلف ألوانها ، ويستوى فى ذلك شعره ونثره (٣) ، وذلك لأن السجع والزخرفه كان هو طابع الأساليب الأدبيه فى الأندلس منذ القرن الخامس الهجرى الى القرن التاسع وقد كان شاعرنا علما من أعلام الأدب فى هذا المجال ، أما عاطفته فهى ثائرة دفاقة تشف عن همة عالية تتسامى فوق الجراح والمصائب . فقد كان ابن الخطيب يرى بثاقب بصره ، ومن مجريات الأحداث النتيجة الحتمية التى سيؤول اليها أمر الأندلس المضطرب ، ولكنه ظل يحث على الجهاد فى حماس ويمدح المجاهدين ، حتى انه عندما انهزم سلطانه ابن الأحمر ومساعده السلطان أبو الحسن المرينى فى معركة طريف (٤) لم يعدها هزيمه - مع ضخامتها -

---

(١) أشفى : شارف ، وقرب . الصحاح (شفى) .
(٢) الادالة : النصر والغلبه . المصدر نفسه (دول) .
(٣) انظر رسائله النثريه فى استنجاد بنى مرين فى النفح : ٤/ ٤٠٤ ومابعدها .
(٤) طريف : جزيرة على البحر المتوسط ، يتصل غربيها بالمحيط الأطلسى وتقع فى أول المجاز من المغرب الى الأندلس وهى تنسب الى طريف بن مالك مولى موسى بن نصير أول من وطئت قدماه الجزيره حينما بعثه موسى بحملة استطلاعيه قبل الشروع فى فتح الأندلس ./ الروض المعطار (طريف) . ومعركة طريف حدثت سنة ٧٤١هـ فى هذا الموضع عندما =

وراح يشبّهها بمعركة أحد ، متوعدا النصارى بالثأر القريب قائلا :- (١)

ان الحروب سجال طالما وهبت * فى اليوم فرصتها واسترجعت لغد .

لا يغرر الروم ما نالوا وما فعلوا * فان ذلك املاء الى أمد .

فللقلوب من الغماء منصرف * بما تقدم فى بدر وفى أحد .

وان دون طلاب الثأر أسد وغى * من قومك الغرّ أو آبائك النجد .

قد أطمعوا كلّ مشحوذ الغرار الى (٢) * شنّ الغوار وسلّوا كلّ ذى ميد (٣) .

والعزم باد وصنع الله مرتقب * والفتح منتظر ان لم يكن فقد .

وعادة النصر لا تستبطء مقدمها * ان لم توافك فى سبت ففى أحد .

استمر لسان الدين بن الخطيب فى وزارة أبى الحجاج الى أن توفى قتيلا فى سنة خمس وخمسين وسبعمائه ، وخلفه ولده محمد الغنى بالله فثبت ابن الخطيب فى وزارته ورفع من منزلته وفوّض اليه كثيرا من أمور الدوله ، حتى أصبح الرجل المشار اليه فى حمراء غرناطه (٤) . ولكن هذا المجد لم يدم طويلا اذ سرعان ما تطورت الأمور وحدثت فى غرناطة ثورة أطاحت بالغنى

= حشد النصارى جموعا كبيره للاستيلاء على مابقى للمسلمين بالأندلس . فاستنفر أهل الأندلس السلطان المرينى فجاء بنفسه فى أساطيل عظيمه وجاء ابن الأحمر بقوات الأندلس . ولكن الله قضى عليها بالهزيمة وحطمت معظم مراكبها البحريه ، وأسر ابن السلطان وحريمه واستشهد فيها والد ابن الخطيب وأخوه الأكبر . / انظر تاريخ ابن خلدون : ٧ / ٢٦١ ، النفح : ٤ / ٣٨٦ .

(١) القصيدة فى ديوان ابن الخطيب السابق : ٤١٠ - ٤١١ .

(٢) الغرار : حد السيف ، اللسان (غرر) .

(٣) الميد : الميل والاضطراب . أساس البلاغه (ميد) والمقصود هنا الرماح .

(٤) انظر : أزهار الرياض : ١ / ٦٢ .

بالله ووزيره ، وزج بهما فى المعتقل سنة ستين وسبعمائه (١) . وكانت تربط السلطان المخلوع علاقة موده وصداقه بملك المغرب أبى سالم المرينى ، وكان أبو سالم قد لجأ اليه حينما تغلب عليه أخوه ونفاه الى الأندلس فأكرم الغنى بالله مثواه . فرعى السلطان المرينى هذه اليد ، وأرسل الى غرناطة سفيرا يسعى لدى الحاكم الجديد فى السماح للغنى بالله ووزيره ابن الخطيب بالجواز الى المغرب فنجحت المهمه ، وعاد السفير وصحبته من كان يبغى ، فاستقبلهما أبو سالم أجمل استقبال فى فاس ، واحتفل بقدومهما فى يوم مشهود ؛ وفى هذا الحفل أنشد ابن الخطيب قصيدة طويلة يدعو فيها لنصرة سلطانه يقول (٢) :-

سلا هل لديها من مخبرة ذكر * وهل أعشب الوادى ونمّ به الزهر .
وهل باكر الوسمىّ دارا على اللوى * عفت آيها ، الا التوهّم والذكر .
بلادى التى عاطيت مشمولة الهوى * بأكنافها والعيش فينان مخضرّ .
وجوّ الذى ربى جناحى وكره * فها أنذا مالى جناح ولا وكر .

---

(١) قام بهذه الثورة أخو الغنى بالله ، اسماعيل الذى كان معتقلا فى بعض أبراج الحمراء ، واستطاع أن يجمع حوله بعض الأنصار وعلى رأسهم صهره المكنى بأبى عبد الله ، وفى الثامن والعشرين من رمضان من السنة المذكوره استغل هؤلاء القوم تحول السلطان الغنى بالله الى سكنى قصر جنة العريف الواقع شمال شرقى الحمراء ، وابتعاده عن دار الملك وهاجموا حصن الحمراء ونفذوا الى قصر الحاجب المسمى رضوان وقتلوه ، ودقوا الطبول ونادوا باسماعيل أميرا على غرناطه . / انظر : ابن الخطيب ، اللمحة البدريه : ١٢٠ .

(٢) القصيده فى المصدر السابق : ١٢٢ - ١٢٥ ، تاريخ ابن خلدون : ٣٠٧/٧ . النفح : ٨٦/٥ .

نبت بى لا عن جفوة وملالـــــة * ولا نسخ الوصل الهنىّ بها هجـر .

ولكنها الدنيا قليل متاعهــــا * ولذّاتها دأبا تزور وتـــــزورّ .

فمن لى بقرب العهد منها ودونها * مدى طال حتى يومه عندنا شهـر .

ولله عينا من رآنـا وللأســى * ضرام له فى كل جانحـة جمـــر .

وقد بددت درّ الدموع يد النـوى * وللشوق أشجان يضيق لها الصدر .

أقول لأظعانى وقد غالهـا السرى * وآنسها الحادى وأوحشها الزجـر .

رويدك بعد العسر يسر ان أبشرى * بانجاز وعد الله قد ذهب العسـر .

يسير الشاعر فى قصيدته هذه على نهج عمود الشعر العربى القديـــم أو قريبا منه . فهو قد استفتح بذكر الديار التى عفت ودرست ولم يبـــق الا ذكرها ، ويستعين بذكر مستلزمات هذا الاستفتاح كذكر اللوى الذى أصبح رمزا للحنين الى الديار استعمله الشعراء عبر عصور الشعر منذ أن بدأ بذلـك امرؤ القيس فى الجاهليه . كما يذكر العفاء ، والتوهّم ، والذكر وماالى ذلـك من الأمور الدالة على شوقه لبلاده التى أخرج منها كرها من غير ملل منـــه أو جفـاء ، ثم يعلل ذلك بأن هذه هى سنة الدنيا التى يتذبذب فيها الخير والشر ، وبعد أن وقف بالديار نراه يحث الأظعان التى أنهكها الســـرى كما يقتضيه ترتيب قصيدة المدح الجاهليه والا أية أظعان يحدو بها الحـادى فى الأندلس : ثم يختم تخلصه من وصف الرحلة المضنيه بالاستبشار بالفـــرج بعد الشده حيث الحلول فى ديار السلطان الكريم :

زجرنا بابراهيم برء همومنــا * فلما رأينا وجهه صدق الزجـر .

بمنتخب من آل يعقـوب كلمـا * دجا الخطب لم يكذب لعزمته فجر .

تناقلت الركبان طيب حديثـه * فلما رأته صدّق الخبر الخـبرُ .

ندى لو حواها البحر لذّ مذاقـه * ولم يتعقب مدّه أبـدا جــزر .

وبأس غدا يرتاع من خوفه الردى * وترفل فى أثوابه الفتكة البكر .
(١)
أطاعته حتى العصم فى قنن الربا * وهشت الى تأميله الأنجم الزهر .

قصدناك ياخير الملوك على النوى * لتنصفنا مماجنى عبدك الدهر .

كففنا بك الأيام عن غلوائها * وقد رابنا منها التعسف والكبر .

ولما أتينا البحر يرهب موجه * ذكرنا نداك الغمر فاحتقر البحر .

خلافتك العظمى ومن لم يدن بها * فايمانه لغو وعرفانه نكر .

ووصفك يهدى المدح قصد ثوابه * اذا ضل فى أوصاف من دونك الشعر .

وهكذا يأخذ الشاعر فى مدح السلطان بأسلوب جزل فخم ، فهو فرع من دوحة بنى مرين العريقة وقد سمع بذكره ، وجوده الغمر القاصى والدانى وعم ذلك الآفاق . وهو أيضا مثال الشجاعة والبأس الذى يرهبه الجميع حتى الموت نفسه ، ودان له الدهر وأصبح من عبيده ، وهذا من عظيم المبالغة لأن الدهر فى نظر الشعراء دائما يرمز الى البلاء المتسلط ، والعدو الذى لا يهزم أبدا .وقد وضعه ابن الخطيب بهذه المنزلة ، ليهوّن أمر استرداد سلطان سيده الغنى بالله من تلك الشرذمة الضعيفة اذا ماشدّ الممدوح عزيمته . ثم يسترسل الشاعر فى المدح واصفا خلافة المرينى بأنها عز للاسلام وأهله الذين كانوا يتمنون منذ القديم تولى أبى سالم لها :

ومدّت الى الله الأكفّ ضراعة * فقال لهن الله : قد قضى الأمر .

وبعد ذلك يصل الشاعر الى غايته وهى طلب مساعدة سيده فى ارجاع ملكه المغتصب :

---

(١) العصم : الوعول ، قنن الربا : قمم الجبال ./ انظر الصحاح (عصم) ، (قنن) .

وهذا ابن نصر قد أتى وجناحه * مهيض ومن علياك يلتمس الجبر .

غريب يرجى منك ماأنت أهله * فان كنت تبغى الفخر قد جاءك الفخر .

ففز ياأمير المؤمنين ببيعة * موثقة قد حلّ عروتها الغدر .

ومثلك من يرعى الدخيل ، ومن دعا * بيا لمرين جاءه العزّ والنصر .

وخذ ياامام الحقّ بالحق ثأره * ففى ضمن ماتأتى به العزّ والأجر .

وأنت لها ياناصر الحق فلتقم * بحق ، فما زيد يرجى ولا عمرو .

يكف بك العادى ويحيا بك الهدى * ويبنى بك الاسلام ماهدم الكفر .

أعده الى أوطانه عنك راضيا * وطوّقه نعماك التى مالها حصر .

وعاجل قلوب الناس فيه بجبرها * فقد صدهم عنه التغلب والقهر .

وهم يرقبون الفعل منك وصفقة * تحاولها يمناك مابعدها خسر .

ثم يعود بعد هذه الأبيات الى مدح بنى مرين رهط السلطان ، واصفا اياهم بالشجاعة وحب الجهاد واكتساب الثناء العاطر ببذل النفوس ، والصدق فى المعارك ، كما يصفهم بالأخلاق الحميده وتذوقهم للشعر :

وان مدحوا اهتزوا ارتياحا كأنهم * نشاوى تمشت فى معاطفهم خمر .

أما عن مدى تأثير هذه القصيدة فى نفوس سامعيها ، فيقول ابن خلدون الذى كان من شهود ذلك الحفل حيث كان من أكابر رجال الدولة المرينية وكتابها - يقول : ان ابن الخطيب قد أبكى سامعيه تأثرا وأسى (١) ، ويقول ابن الخطيب نفسه : ان الناس كانوا يرتجفون تأثرا لأقواله وتسيل منهم العبرات (٢) .

---

(١) تاريخ ابن خلدون : ٣٠٦/٧ .

(٢) الاحاطه : ٢٦/١ ، وانظر نفاضة الجراب : ١٠٣ ومابعدها .

ولعل سبب هذا التأثير راجع الى صدق عاطفة الشاعر الذى مسته النكبة شخصيا فجرد من منصبه واستئصلت أمواله وضياعه ، وأصبح هو وسلطانه الغنى بالله بعد العز غريبين لا يملكان شيئا من الدنيا .

آخر أصوات الاستغاثة :-

فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى كانت مملكة غرناطه تعيش ظروفا قاسية جدا من الاضطراب والانقسام . فمنذ أن تولى الحكم فيها السلطان أبو الحسن على بن الأحمر سنة ثمان وستين وثمانمائه نازعه أخوه الأمير محمد بن سعد المعروف (بالزغل) أى الشجاع الذى كان واليا على منطقة مالقه (١) وأيده فى ذلك مجموعة من القواد والأجناد ، فأعلن الحرب على أخيه (٢) ، وكانت النتيجة انقسام المملكه الى شطرين متخاصمين وفى هذه الآونة التى اشتغل المسلمون فيها ببعضهم ، كانت أسبانيا النصرانيه فى آخر مراحل الاتحاد النهائى ، وتم ذلك بزواج فرناند و ابن ملك أراجون من ايسابيلا أخت ملك قشتاله ثم اعلانهما ملكين لقشتاله وأرجون سنة اثنتين وثمانين وثمانمائه (٣) ،

---

(١) مدينة بالأندلس على شاطئ البحر غربى غرناطه ، وهى قديمة البناء تحيط بها الأسوار الصخرية المنيعة وتشتهر بكثرة أشجار التين الذى كان يحمل منها الى الشام والعراق لجودته . وكان يتبعها فى آخر عهدها الاسلامى عدد من المدن والحصون / انظر الروض المعطار (مالقه) .

(٢) العربى الفاسى ، مرآة المحاسن : ١٤٢ .

(٣) عنان ، نهاية الأندلس : ١٩٤ .

وبذلك أصبحت الأندلس - مع ماتعانيه من ضعف - تواجه أعظم قوة واجهتها في تاريخها الطويل ، وبدا من تحركات الملكين الكاثوليكيين فرناند و وايسابيلا عزمهما على تسديد ضربة قاضية لآخر معقل اسلامي في الأندلس أعني غرناطة وهنا كان لا بد لمسلمي الأندلس من طلب النجدة من اخوانهم المسلمين في المغرب كما هي عادتهم منذ زمن طويل ، ولكن هذا غير ممكن الآن ، حيث خبت قوة الدولة المرينيه ودخلت في طور الانحلال ، وكان ذلك في عهد آخر حكامهم السلطان عبد الحق الذي تولى سنة ثلاث وعشرين وثمانمائه ولم يكن في حزم أسلافه العظام فأهمل أمور الدوله ماجعل وزيره يحيى بن يحيى الوطاسي يستبد بالأمر ، ويحاول نقل السلطه الى قومه بني وطاس (وهم بطن من بطون مرين) ولما اشتد أمره قبض عليه السلطان وقتله مع رهط من أنصاره ، وأسلم عبد الحق زمام الدولة للرعاع وبخاصة اليهود الذين عاثوا في البلاد وبغوا ، فثار الشعب وعزل عبد الحق وقتله سنة تسع وستين وثمانمائه وبه انقرضت دولة بني مرين ، وقام على أثرهم بنو وطاس في حكم المغرب ، حيث استطاع زعيمهم محمد الشيخ بن زكريا ان يستولى على فاس سنة ست وسبعين وثمانمائه ثم يضم اليها سائر الجهات والقبائل ويكون الدولة الوطاسية ، ولكنها لم تكن من القوة بحيث تعبر البحر لانقاذ الأندلس كالمرينيه . (١) فاستقر رأي أهل الأندلس على الاستنجاد بالمماليك حكام مصر ، فلما وصل رسل الأندلس الى القاهره قدموا كتاب الاستغاثه الى سلطانها الظاهر جقمق سنة أربع وأربعين وثمانمائه ، فرد عليهم بأنه سيبعث الى ابن عثمان سلطان القسطنطينيه أن ينجد الأندلس ولكنهم طلبوا منه عون مصر نفسها ، فاعتذر ببعد الشقه والاحتياج لكثرة المراكب والعدة . (٢)

---

(١) السلاوي ، الاستقصا : ٤/١١٨ - ١١٩ .

(٢) انظر السلوك : ق٣ ، ج ٤ ، ص ١٢١٩ ، الضوء اللامع : ٥/٦٧ .

ولم تسفر هذه الرحلة عن نتيجه ، ماشجع النصارى على المضى فى تحقيق أهدافهم بالقضاء على مملكة غرناطه قبل أن تكون نواة لخطر اسلامى داهم ينساب من وراء البحر ممثلا فى العثمانيين ، وساعدهم على ذلك قيام أبى عبد الله محمد بن أبى الحسن بثورة على أبيه وعزله وتولى الحكم مكانه فى غرناطه وكان هذا السلطان ضعيفا ، حيث حاول أن يغزو النصارى ، فوقع فى أسرهم فاشترطوا لاطلاقه أن يخضع لهم ، ويصحب الصلح معهم عند المسلمين ، ويدفع جزية كبيرة مع اطلاق الأسرى النصارى ، وأن يقدم ولده رهينة حتى يتم وفاء بشروطه فلما أطلق رجع الى غرناطه حيث كان عمه الزغل قد جلس مكانه (١) فى الحكم ، فأخذ أبو عبد الله يحرض الناس على الثورة بعمه يعدهم بالسلامة والأمن الذى سيعم من جراء عقد الصلح مع ملكى اسبانيا وبالفعل انصاع الناس لأقواله وثاروا فى وجه الزغل الذى ارتد الى (وادى آش) (٢) ليستعد للحرب الذى شنها عليه ابن أخيه ، وفى غمرة هذه الأحداث تحرك الجيش القشتالى الى مالقه ليمنع باحتلالها أى مدد يأتى من البحر ، وضرب عليها الحصار فى سنة اثنتين وتسعين وثمانمائه ، وصمد أهلها صمودا رائعا ، وأوقعوا بالمحاصرين خسائر كبيره ، ولكنهم اضطروا الى التسليم عندما فتك بهم الجوع والمرض بعد ثلاثة أشهر وفرض النصارى على أهل المدينة شروطا قاسيه من أهمها : اعتبار جميع أهل مالقه رقيقا يجب عليهم افتداء أنفسهم ، مع دفع الغرامات الباهظه (٣) ، ولا يسمح لمن خرج منها أن يقيم فى غرناطه بل فى قشتاله .

---

(١) مجهول ، أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر : ١٥ .

(٢) مدينة كبيرة بالقرب من غرناطه ، تكثر فيها المياه والأنهار التى تنحط اليها من جبل شليد الواقع فى شرقها ، وعلى ضفافه تكثر الأشجار المتنوعه ، وينسب الى وادى آش كثير من العلماء . انظر الروض المعطار : (وادى آش) .

(٣) عنان ، نهاية الأندلس : ٢١٧ .

وازاء هذا الحادث أرسل الزغل سفارة أخرى الى مصر لشرح أحوال المسلمين بالأندلس وطلب النجدة من السلطان الأشرف قايتباى (١)، وتشير بعض الروايات الى اتفاق سلطان مصر مع بايزيد الثانى العثمانى على أن يغزو الأسطول العثمانى صقليه ليشغل الأسبان عن الأندلس مقابل أن يرسل قايتباى أسطولا آخر عن طريق افريقيا يشترك فى الدفاع ومقاومة النصارى . وربما كان مثل هذا الاتفاق مستبعدا بعض الشئ لأن العلاقات بين البلدين فى هذه الآونه علاقات جفاء وقطيعة ، وتوجس شديد لدى المماليك فى مصر من تحركات العثمانيين نحوهم . وعلى فرض صحة هذه الروايه فاننا لا نجد أى أثر فعلى لأى من الطرفين المذكورين فى اغاثة الأندلسيين المحاصرين .

والذى تذكره المصادر التاريخية أن جواب قايتباى كان بارسال سفارة (٢) مصريه الى البابا والى الملكين الكاثوليكيين ، واختار لأدائها راهبين من رعاياه النصارى أحدهما القس أنطونيوميلان رئيس دير القديس فرنسيس فى بيت المقدس ، وزودهما بكتب تحمل استنكاره لفعل النصارى وعدوانهم على المسلمين واحتلال أرضهم ، فى حين أن رعاياه من النصارى فى مصر والقدس يعيشون فى أمن وحريه كامله ، ولهذا فانه يطلب من الملكين الكف عن البطش بالمسلمين والرحيل عن ديارهم ، ورد ماأخذ منها والا فانه سيضطر الى اتباع سياسة العنف والتنكيل مع نصارى بلاده ويهدم كنائسهم ومعابدهم . وماكانت هذه السفارة لتثنى عزم ملكى اسبانيا عن متابعة احتلال الأراضى الاسلامية وخاصة أنهما أصبحا على وشك الظفر النهائى ولكنهما مجاملة للسلطان ورسله ردا بأنهما

---

(١) على محمد حموده ، تاريخ الأندلس السياسى والعمرانى والاجتماعى : ص ٣٠٢ .

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ووقائع الدهور : ٣/٢٤٦ .

لا يفرقان فى المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارى ، ولكنهما لا يطيقان الصبر على ترك أرض الآباء والأجداد بيد غيرهما (١) . وذهبت هذه السفاره صيحة فى واد . ولم ينفذ السلطان وعيده ، ربما لانشغاله بتحركات العثمانيين ، وترك الأندلس تواجه مصيرها منفرده . ففى سنة خمس وثمانين وثمانمائه أرسل الملكان الى أبى عبد الله حاكم غرناطه يطلبان منه تسليم المدينه التى كانت تموج بما يزيد على أربعمائة ألف نفس من الذين هاجروا اليها عند سقوط مدنهم وحاول أبو عبد الله اقناعهم بالعدول عن ذلك ، ومذكرا اياهم بمحالفته لهم ضد بنى دينه ووطنه ، ولكن هيهات أن تستمع القوة الى كلام الضعفاء والجبناء فقرر عندئذ المقاومه واشتبك مع النصارى فى حرب غير متكافئه ، اضطر على أثرها الى التحصن داخل المدينه . فضربوا حولها حصارا شديدا مدة سبعة أشهر أنهكوا خلالها قوة المدافعين فلجأوا الى التسليم سنة سبع وثمانين وثمانمائه على ستة وخمسين شرطا من أهمها أن تسلّم قلاع الحمراء وابراجها وجميع أبواب غرناطة الى الملكين أو مندوبهما فى ظرف ستين يوما ، ويتعهد الملكان بتأمين السلطان وشعبه بكافة طبقاته على الأرواح والأموال والدين فلا يمنعوا من تأدية شعائرهم ، ولا تهدم مساجدهم ، ولا يجبر من أسلم من النصارى على الرده ، كما يحكم بين المسلمين فى المنازعات قضاة منهم ، من أراد الهجرة الى المغرب فله ذلك بكامل عدته وأمواله وبسفن النصارى . ومن أراد العودة من المغرب فكذلك . أما الضرائب فلا يدفع أهل غرناطه أكثر مما كانوا يدفعونه لحكامهم فى السابق - والى آخر هذه الشروط التى لم يكن يحلم بها أهل غرناطه (٢)

---

(١) نهاية الأندلس : ٢٢٢ .

(٢) نفح الطيب : ٤/٥٢٥ .

ولكن هل نفذ منها شئ ؟ ان فرناند و رجل الفرصة السانحه لا يحفل بوعد ولا عهد متى واتتـه الظروف ، كما ان ايسابيلا كانت تضطرم حماسة لعقيدتها الكاثوليكيه وتستجيب لطلبات القسس الحاقدين الذين كانوا يلحون فى طلب القضاء على المسلمين وتشريدهم . وماهى الا سنوات قلائل حتى بدأ الطاغية الكاثوليكى بنقض الشروط واحدا واحدا ، وأخذ يعد العدة لتذويب الشخصية الاسلاميه الأندلسية نهائيا وذلك بطرد المسلمين وارغامهم على الهجره وتنصير من بقى منهم بالأندلس قسرا، وكانت بداية هذا الأمر سنة أربع وتسعمائه (١) ، وقد قام المسلمون فى ضواحى غرناطه بالثورة ردا على هذا القرار ، ولكنهم كانوا عزلا فقمعوا بوحشيه وقسوه ، وأسس بعد ذلك فى غرناطه مايسمى بديوان التحقيق أو " محاكم التفتيش " (٢) وكان يقوم على هذا الديوان اثنان من الرهبان المجرمين المتعصبين وهما الكردينال " خمنيس " رأس الكنيسه الاسبانيـه ، والدون " ديجو ديسا " المحقق العام ، وقد قام هذا الديوان باكراه المسلمين على الدخول فى النصرانيه ، ونبذ الاسلام بكافة شعائره وعبادته وارغموا على الحضور الى الكنيسه لحضور أعياد النصارى ، وترك الصلاه والصيام ، وذكر الرسول عليه الصلاة والسلام والتوجه الى القبله والتسمى بالأسماء العربيه والاسلاميه ...... الخ وكل من يخالف هذه الأوامر يعذب بألوان العذاب الأليم ، ثم يحرق حيا . وقد تنصرت أعداد هائله من المسلمين ظاهريا خوفا من البطش ، ويبالغ المقرى (٣) فى ذلك عندما يقول : عن أهل غرناطه : " وبالجملة فانهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضره ، وامتنع قوم من التنصر ، واعتزلوا الناس .... فجمع لهم العدو الجموع ، واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا ...... "

---

(١) المقرى ، أزهار الرياض : ١/ ٦٨ .

(٢) عنان ، مواقف حاسمه فى تاريخ الاسلام : ٢٣٢ .

(٣) النفح : ٤/ ٥٢٧ .

وقد عرف هؤلاء الذين تنصروا -فى التاريخ الأندلسى - بالموريسكيين وهى تعنى (العرب الأصاغر) (١) . وفى هذه الآونه التى يصطلى فيها المسلمون بجحيم العذاب ، أوفد فرناند و رسولا الى سلطان مصر سنة سبع وتسعمائه ليؤكد له مايلقاه المسلمون فى الأندلس من الرعاية والاحترام فى ظل حكم الملكين الكاثوليكيين ، وكان هذا الرسول هو (بيترو مارتيرى) مستشار فرناند و ، وكاتبه ومؤرخه الكبير ، ولما وصل الى مصر وحاول سلطانها جان بلاط استقباله ضج الشعب وثار ، فاضطر الى استقباله سرا ، فقام مارتيرى بشرح بطلان المزاعم التى تنسب الى ملكيه من الاستيلاء ظلما على أرض المسلمين ، وقهرهم على التنصير ، واستطاع ببراعته وذلاقة لسانه أن يقنع السلطان المملوكى بأن المسلمين يتمتعون بكامل حرياتهم الدينيه وغيرها وقدم شهادات من بعض حكام الثغور المغربيه تفيد بأن المسلمين المهاجرين الى المغرب يصلون مع نسائهم وأولادهم فى أمن وسلام ، ويلقون من ملكى الملكين كل رعايه . وتمكن الرسول الداهيه تحقيق مطالبه فى اعفاء نصارى بيت المقدس من جملة من المغارم والفروض (٢) . ومع هذا الخذلان الذى لقيه أهل الأندلس من اخوانهم المسلمين ، فانهم كانوا يرون فى العثمانيين خير من يستطيع المساعدة والضغط على ملكى اسبانيا لاحترام شروط تسليم غرناطه على الأقل . ولذلك فقد وجّه الموريسكيون آخر استغاثاتهم الى السلطان العثمانى بايزيد الثانى الذى حكم حتى سنة ثمانى عشرة وتسعمائه ، وكانت استغاثتهم تحوى قصيدة طويلة تبدأ بقول الشاعر :- (٣)

---

(١) عنان ، نهاية الأندلس : ٢٣٢ .

(٢) المرجع السابق : ٢٧٢ ، محمد حتامله ، التنصير القسرى لمسلى الأندلس: ١٠٠ .

(٣) القصيده كامله فى أزهار الرياض : ١٠٩ - ١١٥ .

سلام كريم دائم متجـــدد * أخص به مولاى خير خليفـــة .

سلام على مولاى ذى المجد والعلا * ومن ألبس الكفار ثوب المذلـــة .

سلام على مولاى من دار ملكـــه * قسنطينة(١) اكرم بها من مدينـــة .

سلام على من زين الله ملكـــه * بجند وأتراك من أهل الرعايـــة .

سلام على القاضى ومن كان مثلـه * من العلماء الأكرمين الأجلـــة .

سلام على أهل الديانة والتقـــى * ومن كان ذا راى من أهل المشورة .

سلام عليكم من عبيد تخلفـــوا * بأندلس بالغرب فى أرض غربـــة .

أحاط بهم بحر من الروم زاخـــر * وبحر عميق ذو ظلام ولجـــة .

سلام عليكم من شيوخ تمزقـــت * شيوبهم بالنتف من بعد عـــزة .

سلام عليكم من وجـوه تكشفـــت * على جملة الأعلاج من بعد ستـرة .

سلام عليكم من عجائز أكرهـــت * على أكل خنزير ولحم لجيفـــة .

نقبل نحن الكل أرض بساطكـــم * وندعو لكم بالخير فى كل ساعـــة .

ولعله مما لا يحتاج الى بيان الذلة الشديدة ، والانهزام النفسى اللذان يغلفان مناطق الشاعر وسلامه المكرر على السلطان ، والقضاة والعلماء ، وأهل الديانة الذين يمكن أن يجد عندهم بعض مايصبو اليه .

ولا عجب أن نجد هذا الانكسار فى لغة الشاعر فهو قد ذاق ألوانا مـــن الذل والعذاب النفسى والحسى أمدا ليس بالقصير ، وهو يرى أمام عينيـــه كل يوم مايفعله النصارى باخوانه المسلمين صغارا وكبارا من التعذيب والقتـــل والاكراه على فعل المحرمات زيادة فى النكاية والالام ، وهو يفصل حروبهـــم مع النصارى ومآلت اليه النتيجه ، لعدم اغاثة المسلمين لهم بقوله :-

---

(١) هى القسطنطينيه التى أصبحت عاصمة العثمانيين بعد فتحها علـــى يد محمد الفاتح سنة ١٤٥٣م .

شكونا لكم مولاى ماقد أصابنـــا * من الضرّ والبلوى وعظم الرزيـــة .

غدرنا ونصرّنا وبدّل ديننـــا * ظلمنا وعوملنا بكلّ قبيحـــة .

وكنا على دين النبى محمـــد * نقاتل عمال الصليب بنيـــة .

ونلقى أمورا فى الجهاد عظيمـة * بقتل وأسر ثم جوع وقـلـة .

فجاءت علينا الروم من كل جانب * بسيل عظيم جملة بعد جملـة .

ومالوا علينا كالجراد بجمعهـم * بجد وعزم من خيول وعـدة .

فكنا بطول الدهر نلقى جموعهم * فنقتل فيها فرقة بعد فرقـة .

وفرسانهم تزداد فى كلّ ساعـة * وفرساننا فى حال نقص وقلـة .

فلما ضعفنا خيّموا فى بلادنـا * ومالوا علينا بلدة بعد بلـدة .

وجاءوا بأنفاط[1] عظام كثـيرة * تهدم أسوار البلاد المنيعـة .

وشدوا عليها فى الحصار بقـوة * شهورا وأياما بجد وعزمـة .

فلما تفانت خيلنا ورجالنـا * ولم نر من اخواننا من اغاثـة .

وقلّت لنا الأقوات واشتد حالنـا * أطعناهم بالكره خوف الفضيحـة .

وخوفا على أبنائنا وبناتنـا * من ان يؤسروا أو يقتلوا شر قتلـة .

والشاعر هنا يبرر سقوط الأندلس بيد النصارى ، بأنه أمر خارج عن قدرة أهلها المسلمين الذين لم يدخروا وسعا فى الجهاد والدفاع عن الحوزه مدة طويله ، حتى اذا ضعف عزمهم ، وقل زادهم وعتادهم ، واستنصروا فلم ينصروا ، انهال عليهم الأعداء بأعداد ضخمة ، وقوة كبيرة ، وامداد متواصل فاضطروا الى التسليم خوفا من الأسر أو الموت المحتوم ، والشاعر يحاول ، أن يشعر السلطان بايزيد بمسئوليته وتقصيره لعله يفعل شيئا من أجل أولئك

---

(١) آلات ضخمه تقذف الصخور الملتهبه على الأسوار والموانع فتحرق ماوقعت عليه ./ أخبار العصر : ٢٢ .

المضطهدين فى دينهم . والقصيدة تعتبر وثيقة دقيقة لمجريات الأحداث السياسيه فهى بعد أن ذكرت وقوع الاستسلام تتحدث عن شروط الأمان الذى منحه فرناند وايسابيلا للمسلمي غرناطه :

على أن نكون مثل من كان قبلنا * من الدجن (١) من أهل البلاد القديمة .
ونبقى على آذاننا ، وصلاتنا * ولا نتركن شيئا من أمر الشريعة .
ومن شاء منا البحر جاز مؤمنا * بما شاء من مال الى أرض عدوة .
الى غير ذاك من شروط كثيرة * تزيد على الخمسين شرطا بخمسة .
فقال لنا سلطانهم وكبيرهم * لكم ماشرطتم كاملا بالزيادة .
وأبدى لنا كتبا بعهد وموثق * وقال لنا هذ أمانى وذمتى .
فكونوا على أموالكم وديارکم * كما كنتم من قبل دون أذية .

ولكن هذه الشروط التى رضيها المسلمون لم تكن أكثر من خدعة هدفها الاسراع فى تسليم المدينة ليرفع فوقها الصليب :

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم * بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة .
وخان عهودا كان قد غرنا بها * ونصرنا كرها بعنف وسطوة .
وأحرق ماكانت لنا من مصاحف * وخلطها بالزبل أو بالنجاسة .
وكل كتاب كان فى أمر ديننا * ففى النار القوه بهزء وحقرة .
ولم يتركوا فيها كتابا لمسلم * ولا مصحفا يخلى به للقراءة .
ومن صام أو صلى ويعلم حاله * ففى النار يلقوه على كل حالة .

---

(١) الدجن : مأخوذ من الألفة والاقامه ، والمقصود هنا هم المسلمون - الذين ظلوا على دينهم بين النصارى منذ منتصف القرن السابع الهجرى أيام ذهاب بلنسيه واشبيليه ، وكانوا آمنين حتى اذا سقطت غرناطه آلوا الى ماآل اليه الموريسكيون .

ومن لم يجئ منا لموضع كفرهم (١) * يعاقبه اللباط شر العقوبة .

وفى رمضان يفسدون صيامنا * بأكل وشرب مرة بعد مرة .

وقد أمرونا أن نسب نبينا * ولا نذكرنه فى رخاء وشدة .

وقد بدلت أسماؤنا وتحولت * بأسماء أعلاج من أهل الغباوة .

الى غير هذا من أمور كثيرة * قباح وأفعال غزار رديئة .

لقد كانت النزعة الصليبية الحاقدة هى المحرك الأول للرهبان والقسس الذين كانوا يسيّرون سياسة اسبانيا النصرانيه ، وكان كل مايدور فى خلدهم هو جعل غرناطة عوضا عن القسطنطينيه التى احتلها المسلمون ، ولذا فقد سعوا الى محو كل أثر للاسلام فى تلك الديار وخاصة المصحف الشريف والكتب الاسلاميه ، وتروى الروايات أن الكردينال خمنيس عندما بدأ تنصيره لأهل غرناطه (٢) أمر بجمع كل مايستطاع جمعه من الكتب الاسلاميه من المدينة وماحولها فجمع منها أعداد كبيره ومن بينها كثير من المصاحف المزخرفه ، فوضعت فى أكبر ساحات غرناطة وأشعلت فيها النيران بهمجية بالغة أعدمت خلاصة تراث الفكر الاسلامى فى الأندلس ، وقد استثنى منها مئات من كتب الطب والعلوم ليقيم عليها الكردينال جامعته فى مدينة ألكالا ، وبالاضافة الى احراق الكتب فرض على أبناء المسلمين تعلم الدين النصرانى فى الكنائس ، وذلك لقطع كل صلة لهم بالاسلام منذ صغرهم وهذا مايشير اليه الشاعر متأوها باكيا :-

وآها على أبنائنا وبناتنا * يروحون للّباط فى كل غدوة .

يعلمهم كفرا وزورا وفرية * ولا يقدروا أن يمنعوه بحيلة .

---

(١) هو الكردينال خمنيس زعيم محاكم التفتيش .

(٢) عنان ، نهاية الأندلس : ٣١٦ .

ثم يذكر حالة المسخ الشامل الذى أصاب البلاد عامة ، وخص المساجد بالنصيب الأوفر :

وآها على تلك المساجد سوّرت * مزابل للكفّار بعد الطّهارة .

وآها على تلك الصوامع علّقت * نواقيسهم فيها نظير الشهادة .

وآها على تلك البلاد وحسنها * لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة .

وصارت لعبّاد الصّليب معاقلا * وقد أمنوا فيها وقوع الاغارة .

وصرنا عبيدا لا أسارى فنفتدى * ولا مسلمين نطقهم بالشهادة .

فلو أبصرت عيناك ماصار حالنا * اليه لجادت بالدموع الغزيرة .

فياويلنا ، يابوس ماقد أصابنا * من الضّر والبلوى وثوب المذلّة .

وبعد أن يوضح الشاعر الحالة المزرية التى صار اليها الموريسكيون يتوجه الى السلطان بضراعة وتوسل يستجدى عونه :-

سألناك يامولاى بالله ربّنا * وبالمصطفى المختار خير البرية .

وبالسادة الأخيار آل محمد * وأصحابه أكرم بهم من صحابة .

وبالسيد العباس عمّ نبينا * وشيبته البيضاء أفضل شيبة .

وبالصالحين العارفين بربهم * وكلّ ولى فاضل ذى كرامة .

عسى تنظروا فينا وفيما أصابنا * لعل اله العرش يأتى برحمة .

فقولك مسموع وأمرك نافذ * وماقلت من شئ يكون بسرعة .

ودين النصارى أصله تحت حكمكم * ومن ثمّ يأتيهم الى كل كورة .

فبالله يامولاى منّوا بفضلكم * علينا برأى أو كلام بحجة .

فأنتم أولو الافضال والمجد والعلا * وغوث عباد الله فى كل آفة .

فسل بابهم (١) أعنى المقيم برومة * بماذا أجازوا الغدر بعد الأمانة .

---

(١) هو البابا انوصان الثامن آنذاك .

ومالهم مالوا علينا بغدرهم * بغير أذى منا وغير جريمة .

وجنسهم المغلوب فى حفظ ديننا * وأمن ملوك ذى وفاء أجلّه .

ولم يخرجوا من دينهم وديارهم * ولا نالهم غدر ولا هتك حرمة .

وهو يلحّ فى سؤال السلطان لأنه يعلم قدرته على الاغاثه ، فهو يملك الأسباب التى يستطيع بها الضغط على النصارى ، أليس هو حاكم القسطنطينيه مركزهم الأول ، وتحت حكمه منهم كثير فيمكنه أن يتخذ من تهديدهم وسيلة لكبح جماح البابا وزبانيته وارجاعهم الى ماارتضوه من الشروط التى من أهمها حفظ الدين والحرمات .

ثم تكشف القصيده عن ورود كتاب من بايزيد الثانى الى الملكين الكاثوليكيين متضمنا الشفاعه للموريسكيين وكان نصيبه الاهمال ، وربما كان هذا الكتاب نتيجة استغاثة أخرى قبل هذه القصيدة .

كما تذكر القصيدة أيضا وصول رسل سلطان مصر الى ملكى أسبانيا وكيف استطاعا خداعهم :-

وقد بلغ المكتوب منكم اليهم * فلم يعلموا منه جميعا بكلمة .

ومازادهم الا اعتداء وجرأة * علينا واقداما بكل مساءة .

وقد بلغت أرسال مصر اليهم * ومانالهم غدر ولا هتك حرمة .

وقالوا لتلك الرّسل عنا بأننا * رضينا بدين الكفر من غير قهرة .

وساقوا عقود الزور ممن أطاعهم * ووالله مانرضى بتلك الشهادة .

لقد كذبوا فى قولهم وكلامهم * علينا بهذا القول أكبر فرية .

ولكنّ خوف القتل والحرق ردّنا * نقول كما قالوه من غير نية .

ودين رسول الله مازال عندنا * وتوحيدنا لله فى كل لحظة .

ووالله مانرضى بتبديل ديننا * ولا بالذى قالوا من أمر الثلاثة (١) .

ثم يقول فى آخر القصيده مؤملا النجدة :-

فها نحن يامولاى نشكو اليكم * فهذا الذى نلناه من شر فرقة .

عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا * كماعاهدونا قبل نقض العزيمة .

والا فيجلونا جميعا من أرضهم * بأموالنا للغرب دار الأحبة .

فاجلاؤنا خير لنا من مقامنا * على الكفر فى عز على غير ملّة .

فهذا الذى نرجوه من عز جاهكم * ومن عندكم تقضى لنا كلّ حاجة .

ومن عندكم نرجو زوال كروبنا * ومانالنا من سوء حال وذلة .

فأنتم بحمد الله خير ملوكنا * وعزتكم تعلو على كلّ عزة .

وثّم سلام الله تتلوه رحمة * عليكم مدى الأيام فى كل ساعة .

والقصيدة فى جملتها ركيكة الألفاظ والتراكيب ، الا أنها معبرة ، وصادقة التأثير ، وشاملة للحوادث التاريخية التى عاصرتها ، ولعل سبب ركاكتها هو العسف والبطش الاسبانى الذى شمل كل مايمت الى الاسلام والعربية بصلة فخمدت جذوة الشعر والأدب بسرعة عجيبة اذ أن هذه القصيدة قيلت بعد مرور عشر سنين على حطة التنصير ان لم يكن أقل ، فهى موجهه الى بايزيد الذى دام حكمه حتى سنة ثمانى عشرة وتسعمائه ، ولابد أن تكون قد وجهت اليه قبل هذا التاريخ . وقد أشرنا فيما سبق الى أن التنصير بدأ سنة أربع وتسعمائه .

أما الشاعر الذى قال هذه القصيدة فهو شاهد عيان جرى عليه ماجاء فى قصيدته من المآسى ، ومن غير المتوقع أن نجد اسمه فى أى مصدر من مصادر

---

(١) هى الأقانيم الثلاثه التى يقوم عليها دين النصارى المحرّف وهى (الأب ، والابن والروح القدس) . تعالى الله من ذلك .

تلك الفترة الرهيبه ، وذلك لأن مثل هذه القصيدة تعنى أن صاحبها يأتمر مع الدول الاسلاميه عدوة أسبانيا النصرانيه ، فحكمه الموت المؤكد على يد محاكم التفتيش لمجرد أن تنسب اليه .

أما بالنسبة لصدى هذه القصيده فهو صدى الاستغاثات السابقه ، فلم يرد مايشير الى أن السلطان بايزيد الثانى قد فعل شيئا ، وله فى ذلك بعض الأعذار التى لا تعفيه من تحمل جزء من تبعة ضياع الأندلس من يد المسلمين ومن هذه الأعذار الظروف الصعبه التى واجهها بايزيد منذ بداية توليه ، فمنذ أن توفى والده محمد الفاتح سنة ست وثمانين وثمانمائه ، وتحمل هو أعباء الحكم أعلن أخوه (جم) العصيان ، وطالبه بتقسيم الدولة العثمانيه الى شطرين أوروبى وآسيوى ، فحاربه بايزيد واضطره الى الفرار حيث لجأ الى المماليك فى مصر ، ثم الى أوروبا طالبا العون ضد شقيقه ولكنه مات هناك سنة تسع وتسعين وثمانمائه (١) ، وبعد ذلك كانت الجيوش العثمانيه مشتغلة بصد غارات البولنديين على بعض أقاليمها ، وكانت فى الوقت نفسه تشن هجوما على البندقيه ، وتخوض حربا فى المجر الى أن انتهى الأمر بالاتفاق على الصلح لمدة سبع سنوات وذلك سنة تسع وتسعمائه ، وبعد هذا التاريخ بقليل توقفت فتوحات العثمانيين فى أوروبا ، واتجهت نحو الشرق حيث المماليك فى مصر والشام ، والدولة الصفويه فى ايران (٢) . ولا ندرى سبب هذا الاتجاه وترك الأندلس لمصيرها ؟

---

(١) محمد كمال الدسوقى ، الدولة العثمانيه والمسألة الشرقيه : ٤١ .

(٢) المرجع السابق : ٥٠ - ٥١ .

ولقد كان بايزيد نفسه ضعيفا محبا للسلم والاشتغال بالعلوم فى وقت كانت الدولة المترامية الأطراف بحاجة الى رجل شديد الحزم والقوة ، وفى سنى حكمه الأخيره أظهر أولاده التمرد عليه ، واضطرمت نار الحروب الداخليه بينهم ، وكادت تمزق الدوله لولا قوتها الكبيره ، وأخيرا سار ولده سليم الأول الى بعض نواحى الدولة وأعلن نفسه سلطانا عليها ، واستطاع أن يكسب تأييد الانكشاريه الذين لم يلبثوا أن طلبوا من بايزيد التنازل عن الحكم لولده سليم ، فقبل ذلك وتنازل سنة ثمانى عشرة وثمانمائه حيث توفى بعد ذلك بزمن يسير . (١)

الخصائص العامة لشعر الاستغاثة :-

من خلال مطالعتنا لشعر الاستغاثه يمكن أن نلاحظ الخصائص التاليه :-

أولا : الدخول المباشر فى الغرض الأصلى للقصيده ، وتجنب المقدمات التى لا تحتملها نفس الشاعر الثائره ، وبخاصة عندما تكون القصيدة خلال الحصار ، والأمل فى الانقاذ لايزال موجودا .

ثانيا : حرارة العاطفة ، وصدق المشاعر عند شعراء هذا الفن لأنهم فى الغالب يرون بأعينهم وطنهم يهدد وأهليهم يستباحون .

ثالثا : التركيز على المعانى الاسلاميه كالأخوة ، وحق الجوار ، وفرضية الجهاد للدفاع عن أرض الاسلام ، بحيث يشعر المستغاث به أنه مسؤول ، ومحاسب أمام الله ، وكثيرا ماصور الشعراء ببراعه وقوف النبى -صلى الله عليه وسلم- خصما لمن تخاذل فى الدفاع عن أمته .

---

(١) محمد فريد المحامى ، تاريخ الدوله العليه العثمانيه : ٣٨ .

رابعــا : المبالغة فى مدح المستغاث به مع التركيز على الأمور الحساسـه فى نفسه كذكر أصله العريق اذا كان يفتخر بذلك أو تمجيد شجاعته وأعماله فى الدفاع عن الاسلام والاخلاص فى جهاد الأعداء ابتغاء ثواب الله وجنته .

خامسا : عدم التعرض لدور الحكام الخونه الذين يمالئون الأعداء ضد شعوبهم وبلادهم ويرهقون رعاياهم بدفع الضرائب لتصرف على شهواتهم ومرتزقتهم ، وسبب هذا الاعراض هو الخوف من عقاب أولئك الحكام الذين لا يسمحون لأى صوت أن يرتفع منتقدا ، وسبب آخر هو الخوف من تقليل حماس المرجو نصره اذا سمع أن بلاء الناس من حكامهم وأنفسهم .

سادسا : ابراز الدمار والخراب الذى ألحقه العدو بالمدن الاسلاميه وخاصة المساجد ومدارس التعليم اذ سرعان مايحولها الى كنائس تغص بالصلبان والنواقيس ، لتبعث الشرك والجهل مكان نور الهداية والعلم ، فيقرنون الى حربهم العسكريه حربا فكريه .

سابعا : استخدام الأسلوب الخطابى والألفاظ الجزله مع البعد عن الخيال المجنّح والتراكيب المعقده . كمايلاحظ كثرة ركوبهم للبحور الشعريه ذات التفاعيل الكثيره كالطويل مثلا لا تساعها لهمومهم وزفراتهم التى يطلقونها ممتده عبر القافية المطلقه التى دأبوا على استعمالها .

الفصل الثالث : رثاء الامارات الأندلسيه :-

سنتناول فى هذا الفصل الأشعار التى قيلت فى رثاء امارات ملوك الطوائف عندما استولى عليها المرابطون فى نهاية القرن الخامس الهجرى ، وأصبحت الأندلس كلها بعد ذلك تتبع دولة المرابطين فى المغرب . والواقع أننى لا أعتبر زوال ملوك الطوائف ، وانقضاء عهدهم النكد نكبة ألمت بالأندلس ، بقدر ماهو نصر من الله فرّج به كرب الشعب الأندلسى على يد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين ، وأشهر هذه الامارات الغاربة امارة بنى عباد فى اشبيليه ، وامارة بنى الأفطس فى بطليوس ، وامارة آل صمادح فى المريّه وهناك بعض الامارات الأخرى استولى عليها بعض ملوك الطوائف من جيرانهم بالخديعة حينا وبالحرب حينا آخر ، وكان ذلك قبل الفتح المرابطى . ومن أمثلة هذا النوع الأخير الذى استعمل فيه المكر واستغلال الضعف امارة "مربيطر" (١) وكان أبو عيسى بن لبّون الذى كان يشغل منصب القضاء فى بلنسيه أيام حاكمها (٢)

---

(١) بلدة جبلية حصينه بالقرب من طرطوشة ، وعلى بعد عشرين كيلا الى الشمال من بلنسيه ، وهى تطل على البحر ، وتكثر فيها الأشجار وأصناف الثمار . / الروض المعطار (مربيطر) .

(٢) هو ذو الوزارتين لبّون بن عبد العزيز بن لبّون . كان من جملة أصحاب القادر يحيى بن ذى النون صاحب طليطله وكان قائدا عسكريا وشاعرا مجودا زهد فى الدنيا بعد فقد امارته وعاش خاملا الى أن مات بسرقسطه .

انظر : الحلة السيراء : ٢/ ١٦٧ ، المغرب : ٢/ ٢٧٥ - ٢٧٦ .

أبى بكر بن عبد العزيز ولما توفى سنة ثمان وسبعين وأربعمائه اضطرب حبلها وانقسم أهلها الى قسمين قسم مال الى تصييرها لبنى هود أصحاب سرقسطه وقسم مال الى اسلامها لبنى ذى النون حكام طليطله واستغل القمبيطور هذا الوضع فعسكر عليها وأرهقها بالضرائب . عندئذ تركها ابن لبّون ولجأ الى مربيطر الحصينة وحكمها الا أنه لم يسلم من وطأة القمبيطور ، وعندما رأى أنه لا يستطيع الصمود لهذا الارهاق ، وأنف من مفاوضة القائد النصرانى آثر اللجوء الى جاره أبى مروان عبد الملك بن رزين حاكم شنتمريه (١) ويسلّمه امارته وحصنه مقابل حمايته واجراء الرزق عليه فوافق ابن رزين وتسلّم الحصن واستقدم ابن لبّون وذويه الى بلاده وأنزلهم فى كنفه ، ولكنه سرعان مافاوض القمبيطور بالابقاء على مربيطر مقابل امداد جنوده بما يحتاجون من المؤن فوافق ، عندها أخذ ابن رزين يضيّق على أبى عيسى ويقتر عليه حتى اضطره الى الخروج من شنتمريه بعد أن سلب ملكه يندب حظه ويرثى امارته قائلا : (٢)

خليلى عوجابى على مسقط اللوى * لعل رسوم الدار لم تتغيرا .
فأسأل عن ليل تولى بأنسنا * وأندب أياما تقضت وأعصرا .
ليالى ان كان الزمان مسالما * وان كان غصن العيش فينان أخضرا .
وقد ضربت أيدى الأنان قبابها * علينا وكفّ الدهر عنا وأقصرا .

---

(١) مدينة بالأندلس على المحيط الأطلسى ، تشتهر بالتجارة البحرية ، وبها دار صناعة الأساطيل ، وهى حصينة عظيمة الأسوار ، وكثيرة الخصب ، واليها ينسب الأعلم الشنتمرى العالم المشهور . / الروض المعطار (شنتمريه) .

(٢) الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان : ١١٤ .

فماشئت من لهو وماشئت من دد (١) * ومن مبسم يجنيك عذبا مؤلسرا .

وماشئت من عود يغنيك مفصحا * (سما لك شوق بعد ماكان أقصرا) (٢) .

وبعد أن يعوج الشاعر الحزين على رسوم داره ويتأملها برفق ، يسبح من خلالها فى بحر من الذكريات السارة التى عاشها أيام الأمان بين الناى والعود ، ولكن دوام هذه الحال السعيدة محال اذ سرعان ماتنقلب السعادة الى شقاء وبؤس ، لأن هذا هو ديدن الحياة :-

ولكنها الدنيا تخادع أهلها * تغرّ بصفو وهى تطوى تكدّرا .

لقد أوردتنى بعد ذلك كله * موارد ماألفيت عنهن مصدرا .

وكم كابدت نفسى لها من ملمة * وكم بات طرفى من أساها مسهّدا .

خليلىّ مابالى على صدق عزمتى * أرى من زمانى ونية وتحدّرا .

لئن ساء تمزيق الزمان لدولتى * لقد ردّ عن جهل كثير وبصّرا .

وأيقظ من نوم الغرارة نائما * وكسّب علما بالزمان وبالورى .

والشاعر رغم ماجرّعه الدهر من الغصص بتمزيق دولته وتشريده فانه لم يهن ولم تضعف همته وعزيمته بل ازداد تبصرا وعلما بالحياة وبالناس ، ولعله فى البيت الأخير يلمح الى غدر صديقه به الذى لم يكن يتوقعه . والأبيات فى جملتها تسلك سبيل الحكمة والعظة ، ويبدى فيها الشاعر تجلده للخطوب أكثر من حزنه على وطنه فالبلاد كلها عنده سواء (٣) فهو القائل :-

وكنت اذا مابلدة لى تنكرت * شددت الى أخرى مطىّ ابائى .

وسرت ولا ألوى على متعذر * وصمت لا أصغى الى النصحاء .

كشمس تبدت للعيون بمشرق * صباحا وفى غرب أصيل مساء .

---

(١) الدد : اللهو واللعب : الصحاح (دد) .

(٢) الشطر لامرىء القيس ، وعجزه " وحلّت سليمى بطن قوّ فعرعرا . انظر : ديوانه : ٣٠ .

(٣) القلائد : ١١٥ .

وهذا التجوال في البلاد من قبل الحكام الذين يفقدون ملكهم نجده كثيرا في هذا العصر المضطرب فاذا ما استولى أحدهم على ملك الآخر ، فر المغلوب طالبا النجدة من النصارى أو من غيرهم من المرتزقه مقابل أموال ووعود فيغير هؤلاء على مدينة أو حصن وينصبون صاحبهم حاكما عليه ، ومن هنا كانت الجذور التي تربط هؤلاء الأمراء بالبلاد ليست عميقه ، وصلاتهم مع الشعوب غير وثيقة بسبب التسلط والقهر .

نشاء امارة بني عباد :-

بنو عباد من البيوت العريقه في الأندلس ، فهم ينتسبون الى قبيلة لخم العربية اليمانية (١) ، وكان أجدادهم من الداخلين الى الأندلس مع جيوش الفتح ، ولكن نجمهم لم يلمع الا في آواخر الدولة الأمويه عندما كان الحكم بيد الحاجب المنصور بن أبي عامر الذي عيّن رأس هذه الأسرة آنذاك أبا الوليد اسماعيل بن عباد قاضيا لمدينة اشبيليه (٢) ، وكان هذا القاضي على درجة كبيرة من الورع وحسن الخلق اضافة الى الدهاء والسخاء ، وبذلك استطاع أن يستميل قلوب الناس اليه حتى اذا انقضى حكم بني عامر ، وبدأت الاضطرابات والانقلابات تجتاح الأندلس أخذ يعمل في صمت وهدوء على جمع خيوط الرئاسة في يده فتم له تكوين النواة الأولى لدولة عبادية في اشبيليه ، ثم توفي وخلفه ولده أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد سنة أربع عشرة وأربعمائه (٣) واستبد بالأمر وحشد الرجال والسلاح ، وحاول أن يوسع امارته فاشتبك مع جيرانه أصحاب بطليوس البربر وغيرهم وكانت الحروب سجالا يتخللها أحيانا

---

(١) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب : ٣٩٨ .

(٢) ابن الأبار ، الحلة السيراء : ٢/٣٦ .

(٣) عنان ، عصر الطوائف والمرابطين : ٣٤ .

استيلاء أحدهم على بعض مافى يد الآخر . وهكذا ظل ابن عباد فى حروب مستمره حتى توفى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائه بعد أن هزم هزيمة شنيعه قتل فيها ولده الذى كان يقود جيوشه ثم ولى الأمر بعد ذلك ولده الآخر أبو عمرو عباد بن محمد الملقب بالمعتضد بالله وكان هذا داهية سفاحا عظيم الفتك حتى بأقرب الناس اليه (١) ، وكان أيضا يضطرم حماسة للحرب والتوسع فمنذ أن اعتلى العرش الاشبيلى وضع خطته للقضاء على امارات غرب الأندلس وضمها الى بلاده ، فجهز لذلك الجيوش وبدأ بغزو تلك الامارات الصغيره وارهاقها ، وحاول أمراؤها دفع خطره بدفع الجزية له ، ولكنه رفض حتى تم تسليمها الواحده تلو الأخرى فى حوادث يطول شرحها (٢) ، وماهى الا سنوات قليله حتى أصبحت دولته تشمل سائر الأراضى الممتده من شاطئ نهر الوادى الكبير غربا حتى المحيط الأطلسى ، ولم يقتنع المعتضد بهذا الفتح بل دعته شهوة الحكم السيطرة الى ضم الامارات البربريه الصغيره القائمه فى جنوب الأندلس شرقى الوادى الكبير ، وسلك المعتضد مع زعماء هذه الامارات فى البدايه سبيل الصداقة والود ، وتبادل الهدايا ليستفيد منهم فى حرب أعدائه ، أو ليكسب حيادهم على الأقل ، وهو فى أعماق نفسه يضمر لهم الكيد ، ويتحين الفرص لاستئصال جذورهم ، وفى سنة خمس وأربعين وأربعمائه دبّر المعتضد لأمراء البربر (٣) مكيدة قضى بها عليهم وأهلكهم ، وذلك عندما دعاهم لزيارته باشبيليه فلبوا ومعهم وفد من رؤساء قبائلهم ، فاستقبلهم المعتضد بحفاوه ، ولكنه فى اليوم التالى انفرد بالأمراء وأخذ يوبخهم على

---

(١) الذخيره : ق٢ ، ج ١ ، ص ٢٤ .

(٢) البيان المغرب : ٣/ ٢٩٥ - ٢٩٨ .

(٣) عنان ، المرجع السابق : ٤٥ .

على تقصيرهم فى مساعدته أثناء حربه لأعدائه ، ثم أمر بالقبض عليهم وادخالهم الحمام واضرام النار فيه حتى احترقوا ، ثم سار بعد ذلك بجيوشه ونازل تلك الامارات فاستولى عليها تباعا وأهمها أركش (١) وقرمونه ورنده ، وبهذا أصبحت اشبيليه عاصمة لامارة شاسعة المساحه ، غنية الموارد ، عظيمة القوة العربيه وبدا المعتضد ـ برغم قسوته وخساسة وسائله ـ أمير أمراء الأندلس ، ودولته أعظم ممالك الطوائف ، وأفسح فناء للشعراء والأدباء ونظم بعضهم فى سلك وزارته ، كابن زيدون الشاعر المشهور ، وكان المعتضد نفسه شاعرا أديبا .

يقول الحميرى (٢) : "كان أبو عمرو بن عباد صاحب اشبيليه ، من أهل الأدب البارع ، والشعر الرائع ، والمحبة لذوى المعارف ، وقد رأيت له سفرا صغيرا فى نحو ستين ورقة من شعر نفسه" .

ورغم هذا المجد الذى بناه المعتضد على حساب جيرانه من ملوك الطوائف والبلاط الفخم الذى اتخذه ، وشدة البطش التى عرف بها رغم ذلك كله كانت هناك نقطة سوداء غضت من مكانته ، وهى دفعه الجزية لملك قشتاله النصرانى فرناندو الأول مقابل سكوته عن غزوه والتعرض لامارته ، ولعل

---

(١) أركش : مدينة حصينه بالأندلس ، على نهر وادى لكه ، قديمة البناء ، خربت مرارا وعمرت ، وتشتهر بانتاج الزيتون . / الروض المعطار (أركش) .

قرمونة : تقدمت ترجمتها فى الفصل الأول من هذا الباب ، عند رثاء اشبيليه .

رنده : مدينة قديمة فى جنوب الأندلس ، عظيمة الحصانة والامتناع ، تقع على نهر ينسب اليها ، ويصب فى نهر لكه ، وتكثر حول رنده العيون والقرى . / الروض المعطار (رنده) .

(٢) جذوة المقتبس : رقم ٧٦٢ .

المعتضد يؤديها صاغرا لفرناند و ثم لولده سانشو من بعده حتى توفى سنة احدى وستين وأربعمائه (١) . وتولى الحكم بعده ولده أبو القاسم محمد الملقب بالمعتمد على الله .

وكان أسمح من أبيه وألين جانبا الا أنه كان مولعا بالخمر منغمسا فى اللذات ، عاكفا على البطالة (٢) وقد خاض المعتمد مثل أبيه سلسلة من الحروب والأحداث كان من نتائجها المهمة الاستيلاء على قرطبه وضمها لاشبيليه سنة اثنتين وستين وأربعمائه (٣) ، ثم اشتغل المعتمد بحرب البربر أصحاب امارة غرناطه وعلى رأسهم عبد الله بلقّين وأخوه تميم حاكم مالقه ، ولما أرهقهم المعتمد بن عباد بغاراته المتكرره فكر الأمير عبد الله بالاستعانة بالنصارى ، وتم ذلك على أن يدفع جزية سنوية محددة ، مقابل أن يمده النصارى بسرية من الجند لمحاربة المعتمد ، فقويت بذلك شوكته وعاث فى أرض اشبيليه واسترد بعض الحصون التى كان المعتمد قد استولى عليها من قبل . عندئذ رأى المعتمد أن يسلك طريق خصمه فأرسل وزيره الشهير أبا بكر بن عمار الى الاذفونش ملك النصارى بقشتاله وعقد معه معاهدة تقضى بأن يدفع ابن عباد الجزيه ويلزم الصمت ازاء مايفعله الاذفونش بالامارات الاسلاميه وخاصة طليطله التى قرب سقوطها بيده ، ويتعهد الاذفونش مقابل ذلك بمساعدة المعتمد فى حروبه ضد ملوك الطوائف عامة ، وقد تحدثنا عن هذه المعاهدة وآثارها فى الفصل الأول من هذا الباب عند ذكر سقوط طليطله . وقد كانت هذه المعاهدة الدنيئه وبالا ليس على المعتمد وحده بل على الأندلس عامه ودلت على استهتار

---

(١) البيان المغرب : ٣/٢٨٤ .

(٢) الحلة السيراء : ٢/٥٤ .

(٣) عنان ، عصر الطوائف والمرابطين : ٦١ .

المعتمد بالدين وتضحيته بالمسلمين وأوطانهم مقابل جلوسه على عرش مزعزع مهزوز . فقد أصم أذنيه عن صريخ اخوانه المسلمين فى طليطلة ، وقعد عن نصرتهم أو امدادهم بشئ من المؤن حتى اضطروا الى التسليم ، وذهبت كبرى حواضر الأندلس من قبضة الاسلام الى الأبد ، ولم يدرك المعتمد فداحة جرمه وخطئه الا بعد أن تمكن النصارى من المدينة وبعث اليه الاذفونش سفارته المعتاده لتحصيل الجزية وكان على رأس هذه السفاره وزير الاذفونش (١) (ابن شاليب اليهودى) وكان شديد الغطرسة والحقد على المسلمين ، فرفض الذهب الذى قدم اليه زاعما أنه من عيار زائف وطلب تغييره ، وتسليم بعض الحصون زيادة على ذلك ، كما نقل الى ابن عباد رغبة سيده الاذفونش بالسماح لزوجته أن تقيم بمدينة الزهراء قرب قرطبة لتتمتع بطيب هوائها ، ومن هناك تختلف الى جامع قرطبة لتضع حملها فى الجانب الغربى منه لأن ذلك الموضع كانت تقوم عليه كنيسة معظّمة عندهم ألحقها المسلمون بالجامع. وزاد اليهودى فى طلباته بجفاء وغلظة ، فغضب المعتمد من ذلك وأمر (٢) بقتله وصلبه والقبض على من معه وزجهم فى السجن . ولما علم الاذفونش بذلك استشاط غيظا ، وأقسم على غزو اشبيلية والانتقام من المعتمد وبدأ على الفور باعداد جيوش جرارة لالتهام امارات الطوائف جميعا ، وعسكر (٣) بجيشه على ضفة نهر الوادى الكبير قبالة قصر المعتمد وكتب اليه يقول : " .... وقد أبصرتم مانزل بطليطلة وأقطارها وماحاق بأهلها حين حصارها . فأسلمتم اخوانكم ، وعطلتم بالدّعة زمانكم ، والحذر من أيقظ باله ، قبل

---

(١) الروض المعطار (الزلاقه) .

(٢) وفيات الأعيان : ٢٨/٥ .

(٣) الحلل الموشيه : ٢٩ .

الوقوع فى الحبالة ، ولولا عهد سلف بيننا نحفظ ذمامه ، ونسعى بنور الوفاء أمامه ، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده ، ووصل رسول الغزو ووارده ، لكن الأقدار تقطع الأعذار ، ولا يعجل الا من يخاف الفوت فيما يرومه ، وخشى الغلبة على مايسومه .....» وقد رد المعتمد على هذه الرسالة بكتاب فيه كثير من الجرأة والحزم ومنه : « .... انما كانت سِنَة سعد أيقظ منها مناديك ، وأغفل عن النظر السديد جميل مباديك ، فركبنا مركب عجز نسخة الكيس ، وعاطيناك كؤوس دعة ، قلت فى أثنائها ليس ، ولم تستح أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك ، وانا لنعجب من استعجالك برأى لم تحكم أنحاؤه ، ولا حُسن انتحاؤه ، واعجابك بصنع وافقتك فيه الأقدار واغتررت بنفسك أسوأ الاغترار ، وتعلم أنا فى العدد والعديد ، والنظر السديد ، ولدينا من كماة الفرسان ، وحيل الانسان ، وحماة الشجعان ، يوم التقى الجمعان رجال تدرعوا بالصبر ، وكرهوا القبر ، تسيل نفوسهم على حد الشفار ، وينعاهم المنام فى القفار .... والذى جرأك على طلب مالا تدركه قوم كالحمر ، ظنوا المعاقل لا تعقل ، والدول لا تنتقل ، وكان بيننا وبينك من المسالمة ، ماأوجب القعود عن نصرتهم ، وتدبير أمرهم ونسأل الله المغفرة فيما أتيناه فى أنفسنا ، وفيهم من ترك الحزم واسلامهم لأعاديهم .....» (١) ويلاحظ فى هذه الرسالة اظهار المعتمد لندمه على مافرّط من قبل فى اخوانه المسلمين أهل طليطله ، ثم أخذ المعتمد يفكر فى طلب النجدة من المرابطين فيما وراء البحر لعلمه بحماسهم للجهاد ومقارعة الكفار ، ولكنه وجد من ابنه الرشيد بعض المعارضة لتخوفه من عبور المرابطين

---

(١) المصدر نفسه : ٤٠ .

الى الأندلس واستيلائهم عليها ، فشرح له المعتمد خطورة الموقف ، وقسوة النصارى ، وضعف ملوك الطوائف وتخاذلهم بحيث لا عون يرجى منهم ، فلا مناص من استدعاء المرابطين ثم قال : " أى بنى والله لا يسمع عنى أبدا أنى أعدت الأندلس دار كفر ، ولا تركتها للنصارى ، فتقوم على اللعنة فى منابر الاسلام مثل ماقامت على غيرى . أرعى أن أكون راعى الجمال من أن أكون راعى الخنازير."(1) وانضم الى المعتمد فى رأيه ذاك عدد من ملوك الطوائف الذين أحسوا بالخطر ومنهم أميرا غرناطة وبطليوس ، واتفقوا جميعا على ارسال سفارة مكونة من قضاة قرطبه وغرناطة وبطليوس الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين عاهل المرابطين ، ولما وصلوا اليه استقبلهم بحفاوة بالغه اذ عرف بحبه وتعظيمه للعلماء والفقهاء(2) وسلّموه كتاب الاستغاثة من ابن عباد الذى جاء فيه :(3) " ..... ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحد منا طاقه على نصرة جاره ، ولا أخيه ، ولو شاؤوا لفعلوا الا أن الهوان منعهم من ذلك ، وقد ساءت الأحوال ، وانقطعت الآمال وأنت - أيدك الله - ملك المغرب أبيضه وأسوده ، وسيد حمير ، وملكها الأكبر(4) ، .... نزعت بهمتى اليك ، واستنصرت بالله ثم بك ، واستغثت بحرمكم لتجوزوا لجهاد هذا العدو الكافر ، وتحيوا شريعة الاسلام ، وتذبوا عن دين محمد عليه الصلاة والسلام ...... " .

---

(1) الإشبيلى ، ريحان الألباب وريعان الشباب فى مراتب الآداب : لوحه ١٤٠م .

(2) الحلل الموشيه : ٨٢ .

(3) المصدر نفسه : ٤٦ .

(4) يخاطبه المعتمد بالنسب الحميرى ليقرب النسب بينه وبين يوسف إذ كل منهما من القبائل اليمانيه القحطانيه .

وكتاب آخر من ابن الأفطس صاحب بطليوس يقول فيه (١) : " لمّا كان نور الهدى - أيدك الله - دليلك وسبيل الخير سبيلك .... وصح العلم بأنك لدولة الاسلام أعز ناصر ، وعلى غزو الشرك أقدر قادر ، وجب أن تستدعى لما أعضل الداء ، وتستغاث فيما أحاط بالجزيرة من البلاء ، فقد كانت طوائف العدو تطيف بها عند افراط تسلطها واعتدائها ، تُلاطف بالاحتيال وتُستنزل بالأموال ولم يزل دأبها الشطط والعناد ، ودأبنا الاذعان والانقياد ... وقويت أطماعهم فى افتتاح المدن ، وأضرمت فى كل جهة نارهم ، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم .... وما أحضكم على الجهاد بما فى كتاب الله فانكم له أتلى ، ولا بما فى حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فانكم الى معرفته أهدى ..... " وعلى الفور جهز يوسف جيوشه وعبر بهم الى الأندلس ، ولقيه ملوك الطوائف وفى مقدمتهم المعتمد أجمل لقاء وقدموا مايستطيعونه ، من المؤونة والأموال والهدايا ، وساروا مع جيوش المرابطين تتبعهم جيوش الأندلس الى بسيط من الأرض شرق بطليوس يعرف بالزلاقة وهناك دارت معركة عنيفة حاسمة بين المسلمين والنصارى ، انهزم فيها النصارى هزيمة شديده قطعت تشوفهم الى الأندلس مدة طويلة ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة عف عنها أمير المسلمين وآثر بها ملوك الأندلس اذ أن مقصوده كان الغزو لا النهب ، فعظم قدره فى أعين الملوك والناس (٢) ، وكثر الدعاء له على المنابر ، ثم انه أقام فى الأندلس مدة من الزمن بعد الزلاقة اطلع من خلالها على حال المعتمد اللاهيه ، ووردت عليه الرعايا تشكو الظلم الذى تجده من حكامها وتدعوه لأخذ حقوقها ، فكان يقول لم نأت لهذا (٣) ، والسلاطين

---

(١) الحلل الموشيه : ٣٤ - ٣٥ .

(٢) وفيات الأعيان : ٧/١١٧ .

(٣) مذكرات الأمير عبد الله بن بلقّين المسماة بكتاب التبيان : ١٠٧ .

أعلم بما يصنعون فى بلادهم " ولم تقتصر الشكوى على الرعيه فحسب بل ان الأمراء أنفسهم أخذوا يشكون اليه مايجدونه من بعضهم ، ولكنه أوصاهم بالاتفاق والائتلاف ووحدة الكلمة ورجع الى عاصمته مراكش فى أواخر سنة تسع وسبعين وأربعمائه وبقى الى سنة احدى وثمانين وأربعمائه حيث ورد عليه صريخ الأندلس مرة ثانيه ، وكان الصريخ هذه المره من منطقة شرق الأندلس بلنسية ومرسيه ، ولورقه وغيرها حيث كان القمبيطور يحاصر بلنسية ويهلك كل ماتصل اليه يده ، والنصارى القشتاليون اجتاحوا المنطقة الواقعة بين مرسية (١) ولورقة ، وعمدوا الى انشاء حصن ضخم على جبل شاهق بين المدينتين وشحنوه (٢) بالرجال والسلاح ، واتخذوه قاعدة للاغارة على ماحوله من المناطق حتى ضجت مما نزل بها من الضر وعجزت قوات الأندلس المحليه عن رد العدو وان وكان الأمل الوحيد هو أمير المسلمين ، وكان الرسول اليه هذه المره هو المعتمد (٣) نفسه اذ كان هو الحاكم الشرعى لتلك المناطق المهدده ، وان كانت حاليا قد استبد بها بعض القواد والوزراء ، وقد يكون جوازه للتضيق على هؤلاء كابن رشيق المستبد بمرسيه بعد أن فتحها باسم المعتمد (٤) . وعلى أى حال

---

(١) مدينة أندلسية شهيره على نهر شقوره ، بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وهى فى مستو من الأرض ، وحولها قرى عامره تشقها المياه . وتشتهر مرسيه بخصبها ، وصناعة البسط الرفيعه ./ الروض المعطار (مرسيه) .

(٢) من معاقل الأندلس الحصينة ، على ظهر جبل وبينها وبين مرسيه أربعون ميلا ، وهى ذات أسواق عامره وتوجد فيها أصناف من المعادن الثمينه وتتبعها قرى كثيرة عظيمة الخصب / المصدر السابق (لورقه) .

(٣) الحلل الموشيه : ٦٨ .

(٤) مصطفى عوض الكريم ، الأدب الأندلسى فى عهد المرابطين : ٨ .

فقد أعد ابن تاشفين جنوده للجهاد ، وعبر بهم البحر الى الأندلس ، وطلب من ملوك الطوائف أن يوافوه عند الحصن المذكور ففعلوا ، وكان الحصن فى غاية المنعة فحاصروه مدة أربعة أشهر ولم يستطيعوا اقتحامه ، وعلموا أيضا أن الاذفونش قد تحرك فى جيش لانقاذ الحصن فانصرفوا عنه ، فقدم عليه فوجد قومه قد أنهكهم الحصار فأخرجهم منه وأحرقه . وقد اطلع أمير المسلمين فى هذه الغزوة على فساد دخيلة أمراء الطوائف ، فقد أخرجوا أضغانهم الدفينة على بعضهم ، فهذا ابن عباد يشكو ابن رشيق الذى اغتصب منه مرسيه ويتهمه بالتعاون مع النصارى المحاصرين ، فيستفتى أمير المسلمين الفقهاء بشأنه فيرون سجنه (١) ، ثم يأتى عبد الله بن بلقين أمير غرناطه ليشكو أخاه تميما حاكم مالقه متهما اياه بسلبه ميراث أبيه ، وتنشب بعد ذلك المشاجرات بين الأميرين المتنافسين المعتمد بن عباد والمعتصم بن صمادح حاكم المريه وكان كل منهما يحاول أن يوغر صدر أمير المسلمين على الآخر بكشف مفاسده وخيانته ، وكان المعتصم يذكر ليوسف كبر ابن عباد واعجابه بنفسه وزعم أنه قال - وقد قال له المعتصم : طالت اقامة هذا الرجل بالجزيره - لو عوجت له اصبعى ماأقام بها ليلة واحده هو ولا أصحابه ..... وكأنك تخاف غائلته ، وأى شىء هذا المسكين وأصحابه ؟ انما هم قوم كانوا فى بلادهم فى جهد من العيش ، وغلاء من السعر ، جئنا بهم الى هذه البلاد نطعمهم حسبة وائتجارا ، فاذا شبعوا أخرجناهم عنها الى بلادهم الى مثل هذه الأقوال من تحقيرهم (٢) . وجاءت الرعية - أيضا - يقدمها العلماء والقضاة الى أمير المسلمين تشكو اليه ثقل الضرائب والمغارم ، فأمرهم بعدم دفعها

---

(١) التبيان : ١١١ .

(٢) المراكشى ، المعجب : ٦٨ .

حتى أقفرت خزائن الأمراء ولم يستطيعوا فعل شئ مع الممتحنين (١) . كل هـذه الأمور جعلت أمير المسلمين يغادر الأندلس مغضبا وقد تغيرت نفسه على أمراء الطوائف ، ورأى منهم وسمع مالم يرمحه مجالا لبقائهم حكاما للمسلمين (٢) ، ولما رأى أمراء الطوائف ذلك من أمير المسلمين سارعوا الى دفع الجزية للنصارى مقابل حمايتهم من المرابطين ، وكان أول من فعل ذلك منهم صاحب غرناطه . فلما وقف أمير المسلمين على ذلك اشتد حنقه وخاصة عندما ظفر بكتب ابن عباد الى الاذفونش طالبا حمايته أيضا .. عندئذ استفتى أمير المسلمين الفقهاء والقضاة فى الأندلس والمغرب بشأن أمراء الطوائف فأفتوا بعدم صلاحيتهم للحكم ووجوب انتزاع الأمر من أيديهم ، كما صارت اليه فتاوى أهل المشرق من الأعلام كالغزالى والطرطوشى مؤيدة للحكم السابق (٣) ، فعزم حينئذ على تخليص الأندلس منهم فجهز لذلك عدة جيوش تحت امرة ابن عمه سير بن أبى بكر وعبرت الى الأندلس فى سنة ثلاث وثمانين وأربعمائه ، حيث بدأت بغرناطه فاحتلتها وسيق أميرها عبد الله بن بلقين أسيرا هو وأخوه تميم حاكم مالقه الى المغرب حيث استقروا أخيرا فى مدينة أغمات ولا نجد شيئا من الشعر فى رثاء هذه الاماره ربما لكون الحكام من البربر فلم يهتموا بالأدب والشعر لقلة معرفتهم فيه ، ولكره الرعية لهم وتمنيها زوال حكمهم .

ثم سارت جيوش المرابطين نحو اشبيليه وحاصرتها بشده ، وأبدى المعتمد بسالة شديدة فى الدفاع عنها لو أبداها فى محاربة النصارى لحفظ ماء وجهه ، واقتحمت المدينة فى النهاية ، وقبض على المعتمد وذويه وأخذ أسيرا الى أغمات ودخل المرابطون اشبيليه سنة أربع وثمانين وأربعمائه . (٤)

---

(١) التبيان : ١٠٩ .

(٢) روض القرطاس : ٩٩ .

(٣) تاريخ ابن خلدون : ١٨٨/٦ .

(٤) الحلل الموشيه : ٧٣ .

ولقد كانت شهرة المعتمد كشاعر أكبر من شهرته كملك ، فشعره في الأسر وما فيه من الآلام والحسرات هو الذي أثار عطف الناس على قضيته وأعماهم عن كل أخطائه السياسيه واستهتاره بالقيم الاسلاميه ، ولو أنه قتل قبل دخول المرابطين مدينته لما سمعنا له ذكرا ، ومن جهة أخرى كان المعتمد راعي شعراء الأندلس كلها يتهافتون على فنائه تهافت الطير على الحب ، لما كانوا يجدونه منه من البذل السخي والهبات الوفيره والمجالس الخاصه التي تغص بأنواع اللهو والملذات ، ولذلك فاننا نجد شعرا كثيرا في رثاء بني عباد من شعرائهم الرسميين وغيرهم . فهذا ابن اللبانة (١) شاعر البلاط يقول (٢) :-

تبكي السماء بدمع رائح غادي * على البهاليل من أبناء عباد .

على الجبال التي هدّت قواعدها * وكانت الأرض منهم ذات أوتاد .

والرابيات عليها اليانعات ذوت * أنوارها فغدت في خفض أوهاد .

عرّيسة (٣) دخلتها النائبات على * أساود لهم فيها وآساد .

---

(١) هو أبو بكر محمد بن عيسى من أهل دانيه (على ساحل البحر) كان متكسبا بالشعر قصد الملوك ونال جوائزهم وانقطع للمعتمد بن عباد واللبانة والدته كانت تشتغل ببيع اللبن وشعره لطيف نبيل المأخذ رشيق الألفاظ رحل الى جزيرة ميورقه بعد موت المعتمد ومدح حاكمها وتوفي سنة ٥٠٧ / انظر الذخيره ق ٣ ج ٢ ص ٦٦٦ ، البغيه : رقم ٢١٣ ، الوافي بالوفيات : ٤/٢٩٧ . المغرب : ٢/٤٠٩-٤١٦ . ، الخريده : ٢/١٠٧ . قسم شعراء المغرب والأندلس .

(٢) القصيده في القلائد ص ٢٥ . ، مجيد السعيد ، شعر ابن اللبانة الداني : ٣٠٩ .

(٣) العرّيسة : مأوى الأسد . الصحاح (عرس) ، الأساود : الحيات العظيمه ، المصدر نفسه (سود) .

وكعبة كانت الآمال تعمرهـــا * فاليوم لا عاكف فيهـا ولا بـــاد .

لمّا دنا الوقت لم تخلف له عدة * وكلّ شئ لميقـات وميعــاد .

كم من دراري سعد قد هوت ووهت * هناك من درر للمجد أفـــراد .

نَوْرٌ ونُور، فهذا بعد نعمتـــه * ذوى، وذاك خبا من بعد ايقاد (١) .

ان الشاعر هنا قد هزّه المصاب الجلل بفقد أولياء نعمته الكرام، فجعل كلّ شئ يشاركه حزنه فالسماء تسكب الدمع غزيرا، والنجوم خبا نورها، والزهر قد ذوى وذبل، فالكون فى مأتم بعد أن كان فى عرس أيام عزهم، وكيف لا يكون كذلك، وقد كانوا كعبة الآمال ففقدهم تعطّل كل شئ :-

ياضيف أقفر بيت المكرمات فخذ * فى ضمّ رحلك واجمع فضلة الزاد .

ويامؤمّل واديهم ليسكنـــه * خفّ القطاين وجفّ الزرع بالوادى .

ضلت سبيل الندى يابن السبيل فسر * لغير قصد، فمايهديك من هادى .

وأنت يافارس الخيل التى جعلت * تختال فى عدد منهم وأعداد .

ألق السلاح وغلّ المشرفى فقد * أصبحت فى لهوات الضيغم العادى .

" لا عطر بعد عروس " فى حديثهم * قد أقفر الحى من هند ومن عاد (٢) .

غابت عن الفلك الأرضى أنجمهم * فليس للسعد فيهم نور اسعاد .

فالمكرمات الواسعة قد اضمحلت، والشجاعة والفروسية لم يعد يعرفها أحد بعد رحيلهم وذلك حكم المقادير التى لا تبقى على أحد مهما بلغ شأنه :-

هى المقادير لا تبقى على أحـد * وكل ذى نفس فيها لآساد .

وأسوة لهم فى غيرهم حسنت * فما شماتة أعداء وحساد .

---

(١) النّور، والنوّار : الزهر . اللسان (نور) .

(٢) مثل يضرب لمن لا يدّخر بعده نفيس . أنظر الميدانى، مجمع الأمثال : ٢/ ٢١٢ .

أن يخلعوا فبنو العباس قد خلعوا * وقد خلت قبل حمص أرض بغداد .(١)

نقول فيهم وهم أطلى برامكـــة * فالحال ذا الحال افساد كافساد .

كانت أسرّتها من فضلها بهـــم * مثل المنابر أعوادا بأعـــواد .

انّا الى الله فى أيامهم فلقـــد * كانت لنا مثل أعراس وأعيـــاد .

تبا لدنيا أذاقتهم حوادثهـــا * برح العذاب وما دانوا بالحـــاد .

ذلّوا وكانت لهم فى العزّ مرتبـــة * تَحُط مرتبتى عاد وشـــداد .

كانوا ملوكا ملوك الأرض فانصرفـــوا * ومالهم حومة فيهـــا ولا نـــاد .

حموا حريمهم حتى اذا غلبـــوا * سيقوا على نسق فى حبل مقتـاد .

تبدلوا السجن بعد القصر منزلـــة * وأحدقوا بلصوص عوض أجنـــاد .

وأنزلوا عن متون الشهب واحتطـــوا * فويق دهم لتلك الخيـل أنداد .

وعيث فى كل طوق من دروعهـــم * فصيغ منهن أغلال لأ جيـــاد .

ترى نرى بعد أن قامت قيامتهـــم * من يوم بعث لهم فينا وميـــلاد ؟

وهو هنا يريد أن يقطع الطريق على الشامتين والحساد بضرب أمثلة لقـــوم بلغوا ذروة المجد ثم أتاهم القدر المحتوم فأصبحوا أثرا بعد عين ذلك هـــم البرامكـه وزراء الخليفة العباسى هارون الرشيد ووجه المقارنة هنا بينهـم وبين آل عباد أن المصير الذى لقيه كل منهما كان بسبب السعايات والدسائـــس المفسدة للمودة ، ثم نرى الشاعر يتأسف على أيامهم الماضية ويتأفف من فعـــل الدنيا بهم حيث صاروا فيها الى الذل والهوان بعد العز والشموخ ، وغـــدت السجون المظلمة تحويهم بعد أن كانوا يرفلون فى القصور الفخمه بين الحراس

---

(١) يشير البيت الى خلع بنى العباس واقفار بغداد قبل بنى عباد وهـــو خطأ اذ أن بنى العباس لم يخلعوا الا على يد التتار سنة ٦٥٦هـ عندما اجتاح بغداد . فربما كان البيت مدسوسا على القصيدة .

والأجناد والخدم ، كما أن دروعهم التى كانوا يعتزون بلبسها نزعت عنهم وصنعت منها القيود للخيول ، وهذا امعان فى الاذلال وتحطيم للنفوس ، ومن خلال هذه المفارقات التى يعيشها الشاعر والتى تمثل تحولا فى حياته ،يطلق زفرة بأمنية بعيدة المنال وهى أن يرجع الأحباب الى ماكانوا عليه ، وكأنهم ولدوا من جديد : ثم ينتقل الى وصف المشهد المؤثر الذى كان يوم رحيلهم فيقول :-

نسيت الا غداة النهر كونهم * فى المنشآت كأموات بألحاد .

والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا * من لؤلؤ طافيات فوق أزباد .

حط القناع فلم تستر مخدّرة * ومزّقت أوجه تمزيق أبراد .

حان الوداع فضجت كلّ صارخة * وصارخ من مفداة ومن فاد .

سارت سفائنهم والنوح يصحبها * كأنها ابلّ يحدو بها الحادى .

كم سال فى الماء من دمع وكم حملت * تلك القطائع من قطعات أكباد .

انها صورة حية متحركة رسمها الشاعر المبدع لركوب أسياده البحر معقدين كأنهم أموات فى اللحود ، فالسفن التى تحطهم تسير وسط عواصف من الصراخ والعويل والبكاء يطلقه أولئك الناس الذين ازدحم بهم شاطئا نهر اشبيلية (الوادى الكبير) وهو مشهد يثير آلام النفس وأشجانها ولا شك ، ويظهر مقدار الحب الذى يضمره الشعب لقائده المعتمد ، وهو موقف عمل فيه خيال الشاعر عمله ، اذ أن الحقيقة التاريخيه تخالف ذلك وتشير الى أن الناس قد ملّوا الدولة العبادية وتمنوا الراحة منها (١) . ثم يختم القصيدة بذكر كرمهم وانعامهم عليه :-

---

(١) نفح الطيب : ٢٤٧/٤ .

من لى بكم يابنى ماء السماء اذا * ماء السماء أبى سقيا حشا الصادى .

وأين معتمد ، نعمى يقسمها * مرعى وماء لــــزوّار ورواد .
(١)

وأين يوضح لى هدى الرشيد ضحى * أجلوبه فى ظلام الغى ارشادى .

وأين لى كنف المعتد منزلة * على احتفال من النعمى واعداد .

مكارم ومعال كنت بينهما * كأننى بين روضات وأطواد .

ان كان بعدكم فى العيش من أرب * فان فى غصص عيشى وأنكاد .
(٢)

ويقول ابن اللبّانة من قصيدة أخرى عندما زار المعتمد فى سجنه ورأى قيوده :-

لكل شئ من الأشياء ميقات * وللمنى من منائيهن غايات .

والدهر فى صفة الحرباء منغمس * ألوان حالاته فيها استحالات .

ونحن من لعب الشطرنج فى يده * وطالما قمرت بالبيدق الشاة .

انفض يديك من الدنيا وساكنها * فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا .

وقل لعالمها السفلىّ قد كتمت * سريرة العالم العلوىّ أغمات .

طوت مظلتها لابل مذلتها * من لم تزل فوقه للعزّ رايات .

من كان بين الندى والبأس أنصله * هندية وعطاياه هنيدات . (٣)

رماه من حيث لم تستره سابغة * دهر مصيباته نبل مصيبات .

يبدأ الشاعر بمقدمة رزينة عن الغاية التى ينتهى اليها كل شئ فى هذا الوجود وهى الفناء ، ولكن لكل أجله . وقد جاءت هذه المقدمه مناسبة لنفس الشاعر التى أحست بالألم لما صار اليه أحبابها " ولكنها أعجز من أن تفعل

---

(١) الرشيد والمعتد هما من أبناء المعتمد بن عباد .

(٢) نفح الطيب : ٤/٢٢٢ - ٢٢٣ ، القلائد : ٢٢ .

(٣) الهنيدة : المائه من الابل / اللسان (هند) .

شيئا ، لأن الناس جميعا لعب فى يد الدهر يقلبها من سرور الى بؤس وكذا الحال مع المعتمد ، الرمز المشخ لهذه الحياة فى منظور الشاعر ، أما وقد انطفأ هذا الشعاع واكتتم نوره ، فالحياة كلها ظلام ووحشة تستدعى اليأس منها ونفض اليد . فقد انقلب كل شئ فيها الى كدر يجلب الهم والحزن فالشجاعة الفائقه والكرم الغامر كبلتهما القيود الثقيلة ورمتها السهام المصميه .

أنكرت الا التواء ات القيود به * وكيف تنكر فى الروضات حيّات .
غلطت بين همايين عقدن له (١) * وبينها فاذا الأنواع أشتات .
وقلت هنّ ذؤابات فلم عكست * من رأسه نحو رجليه الذؤابات .
حسبتها من قناه أو أعنته * اذا بها لثقاف المجد آلات .
دروه ليثا فخافوا منه عادية * عذرتهم ، فلعدو الليث عادات .
لو كان يفرج عنه بعض آونة * قامت بدعوته حتى الجمادات .

وفى هذه الأبيات نرى الشاعر وقد أدهشته المفاجأة حينما رأى القيود تعض بساق سيده وكأنها الحيات ، فهو لا يريد أن يصدق مايرى ولذلك يفزع الى الشك والتخمين وتغليط نفسه فيما تعتقد فيحسب القيود همايين شدت على وسطه ، أو ذؤابات وعمائم لرأسه ولكنه - رغما عنه - يخرج من صراعه النفسى ليقف على واقع الأمر وحقيقة مايشاهد فيلتمس للثقاف عذرا يزيد صاحبه فخرا وعزّه ، ذلك أنه ليث عاد تخشى فتكاته فيمن حوله لو كان طليقا وخوفا من رجوع دولته وصولته مرة أخرى اذ أن أتباعه ذوو عدد ووفاء .

---

(١) الهميان : كيس النقود ، أو نطاق يشدّ على الوسط . قال ابن دريد : أحسبه فارسى معرّب . / اللسان (همى) .

ثم يتلهف على أيامهم الخاليه ومانال من حظوة لديهم :-

لهفى على آل عباد فانهم * أهلّة مالها فى الأفق هالات .

تمسكت بعرى اللذات ذاتهم * يابئس ماجنت اللذات والذات .

راح الحيا وغدا منهم بمنزلة * كانت لنا بكر فيها وروحات .

أرض كأن على أقطارها سرجا * قد أوقدتهن بالأدهان أنبات .

وفوق شاطئ واديها رياض ربى * قد ظللتها من الأنشام دوحات . (١)

كأن واديها سلك بلبتها * وغاية الحسن أسلاك ولبات .

نهر شربت بعبريه على صور * كانت لها فى قبل الراح سورات .

معاهد ليت أنى قبل فرقتها * قدمت والتاركوها ليتهم ماتوا .

فجعت منها باخوان ذوى ثقة * فاتوا ، وللدهر فى الاخوان آفات.

والملاحظ هنا تركيزه على اللذات التى كان يقتنصها ابن عباد وصحبه ، ومن جملتهم شاعره ابن اللبانه فهو يقول بصراحه ان نفوسهم قد جبلت على حب اللهو وتمسكت به الى أن تسبب فى هلاكها .

والشاعر لا ينعى عليهم هذا ، لأنه يعتبره من سعة الملك وعزة السلطان فالبكر والروحات فى ظلال الأشجار وحول خرير الأنهار ، ومايتبع ذلك من الراح والريحان هى الحياة التى عاشها شاعرنا فى ظل سيده ، فهو عنها يتحدث ويصدر ، ولا يستطيع أن يخرج عن هذا الاطار فى وصفه لذكرياته ، ألا ترى أنه يتمنى الموت له ولبنى عباد لكونهم فارقوا هذا اللون من العيش .

وفى قصيدته الثالثه يقول ابن اللبانة :- (٢)

---

(١) الأنشام : شجر تتخذ منه القسي . اللسان (نشم) .

(٢) نفح الطيب : ٤/٢٥٧ - ٢٥٨ .

أفكر فى عصر مضى بك مشرقـا * فيرجع ضوء الصبح عندى مظلما .

وأعجب من أفق المجرّة اذ رأى * كسوفك شمسا كيف أطلع أنجما .

لئن عظمت فيك الرزيّة اننا * وجدناك منها فى الرزية أعظما .

قناة سعت للطعن حتى تقسّمت * وسيف أطال الضرب حتى تثلما .

بكى آل عبّاد ولا كمحمد (١) * وأولاده صوب الغمامة اذ همى .

حبيب الى قلبى حبيب لقوله * عسى طلل يدنو بهم ولعلّما .

صباحهم كنا بـه نحمد السّرى * فلمّا عدمناهم سرينا على عمى .

وكنّا رعينا العزّ حول حماهم * فقد أجدب المرعى وقد أقفر الحمى .

قصور خلت من ساكنيها فما بها * سوى الأدم (٢) تمشى حول واقفة الدّمى .

تجيب بها الهام (٣) الصّدى ولطالما * أجاب القيان الطائر المترنما .

كأن لم يكن فيها أنيس ولا التقى * بها الوفد جمعا والخميس (٤) عرمرما .

وهذه القصيدة لا تخرج فى أفكارها عما تقدمها من قصائد فهى استشعار لما يحس به الشاعر من عمق النكبة التى بدلّت ضوء حياته ظلاما بعد أن أجدب الحمى الذى كان يرتع فيه آمنا ، وخلت القصور التى كانت دائمة الازدحام بالوفود والحشود . ولهذا فالشاعر سيظل دائم الحزن والبكاء :-

---

(١) هو المعتمد .

(٢) الأدم : الظباء البيض تعلوهنّ غبرة . الصحاح (أدم) .

(٣) الهام : جمع هامة وهى من طير الليل كانوا يزعمون أنها روح القتيل الذى لا يدرك ثأره تصير هامة وتزقوا عند قبره تقول اسقونى اسقونى ، فاذا أدرك ثأره طارت . وهى من خرافات العرب / الصحاح (هيم) .

(٤) الخميس : الجيش لأنه خمس فرق : المقدمة ، والقلب ، والميمنة ، والميسرة والساق / الصحاح (خمس) .

حكيت وقد فارقت ملكك مالكــا (١) * ومن ولهى أحكى عليك متمّمــا .

مصاب هوى بالنيرات من العــلا * ولم يبق فى أرض المكارم معلمــا .

تضيق علىّ الأرض حتى كأنمــا * خلقت واياها سوارا ومعصمــا .

تندبتك حتى لم يخلّ لى الأســى * دموعا بها أبكى عليك ولا دمــا .

وانى على رسمى مقيم فان أمــت * سأجعل للباكين رسمى موسمــا .

وهذا البكاء الدائم الذى ألزم الشاعر به نفسه انما هو من قبيل الوفاء لسيده الذى هوى مجده بعد المنعة وليس الشاعر وحده هو الذى يملكه الأســى ، وتضيق عليه الأرض وانما يشاركه الكون كله ذلك :-

بكاك الحيا والريح شقت جيوبهــا * عليك وناح الرعد باسمك معلمــا .

ومزق ثوب البرق واكتست الضحــى * حدادا وقامت أنجم الجوّ أقمــا .

وحار ابنك الاصباح وجدا فما اهتدى * وغار أخوك البحر غيضا فما طمــى .

وما حلّ بدر التمّ بعدك دارة * ولا أظهرت شمس الظهيرة مبسما .

قضى الله أن حطوك من ظهر أشقر * أشم وأن أمطوك أشأم أدهمــا .

سينجيك من نجىّ من السجن يوسفا * ويؤويك من آوى المسيح ابن مريما .

وتظهر هنا براعة الشاعر فى استخدام أجزاء الطبيعة فى صورة نابضــة بالحزن مشعرة بالحنو على موقفه الرثائى ، فالريح تشق الجيوب ، والرعــد يطلق صوته بالنواح مرددا اسم المعتمد ، أما البرق فقد خلع ثوبه اللامــع واكتسى مع الضحى والنجوم ثوبا حالكا ، وهذه الصورة الرائعة ترفع من قــدر

---

(١) هو متمم بن نويرة اليربوعى ، ومالك أخوه وقد أسلما أيام النبى - صلى الله عليه وسلم - ولكن مالكا ارتد بعد ذلك فقتله خالد بن الوليد . وكــان متمم دائم البكاء عليه والرثاء له . / انظر الاصابة : ٣/٢٢٦ - ٣٣٧ . ، جمهرة أشعار العرب : ٢/٧٤٧ .

الأمير المرثى حتى تقربه من منزلة الأنبياء الكرام الذين امتحنوا بالسجن والمطاردة من أعدائهم فأنجاهم الله ، ولهذا جاء ذكرهم فى البيت الأخير .

ولعل أهم ماتميز به شعر ابن اللبانة فى رثاء بنى عباد الصدق الفنى والعاطفة الدفاقه فقد رثى المعتمد كما يراه هو ويتصور بغض النظر عن الواقع الذى كان عليه ، وقد أتاح له هذا التصور مجالا واسعا لمد أطناب الرثاء وذكر الصفات الجليله التى احتوت عليها شخصية ابن عباد ، ولا ننسى فى هذا المقام الحب والوفاء الذى كان الشاعر يكنه لأميره مع شىء من الأمل فى رجوع عهده السابق ، هذه الأمور جعلت لغته فى الرثاء قويه ، تذكر بمواقف المدح التى كان يقفها فى ديوان سيده فيما مضى . وقد ألف ابن اللبانة ديوانا شعريا خاصا فى رثاء دولة بنى عباد سماه " السلوك فى وعظ الملوك " ولكنه لم يصل الينا (١) ، وأسلوبه يمتاز بالسهولة فى الألفاظ واللطافة فى المعانى التى يغلب عليها الابتكار ، مع ميل واضح الى الصنعة والزخرفة البديعية واللفظية .

أما بالنسبة لشعر المعتمد فى رثاء نفسه ودولته ، وأولاده فهو كثير يفيض بالعاطفة والبكاء والحنين (٢) ، وسنورد منه هنا مايحتمله البحث ، قال من قصيدة بعث بها الى شاعره ابن حمديس الصقلى (٣) :-

غريب بأرض المغربين أسير * سيبكى عليه منبر وسرير .
وتندبه البيض الصوارم والقنا * وينهل دمع بينهن غزير .
مضى زمن والملك مستأنس به * وأصبح منه اليوم وهو نفور .

---

(١) نفح الطيب : ٢٥٨/٤ .

(٢) انظر الذخيره ، ق٢ ، ج ١ ص ٦٢ - ٧٥ .

(٣) قلائد العقيان : ٢٧ .

برأى من الدهر المضلل فاسد * متى صلحت للصالحين دهور ؟ :

أذل بنى ماء السماء زمانهم * وذل بنى ماء السماء كبير .

فياليت شعرى هل ابيتن ليلة * أمامى وخلفى روضة وغدير .

بمنبتة الزيتون مورثة العلا * يغنى حمام أو تدن طيور .

بزاهرها السامى الذرى جاده الحيا (١) * تشير الثريا نحونا ونشير .

ويلحظنا الزاهى وسعد سعوده * غيورين والصب المحب غيور .

تراه عسيرا أو يسيرا مناله * ألا كل ماشاء الاله يسير .

وهذه الأبيات زفرة حارة من الأمير الأسير أطلقها عندما شعر بذلة الأسر فى المغرب ، وأيقن بفقدان الأمل فى صفو الدهر الغرور ، فراح يبكى ملكه المفقود الذى طالما دافع عنه بالصوارم والقنا ، وتمتع فى ظلاله بالعيش الرغيد ، وامتزج بطبيعته الساحره وسط روضات اشبيليه وحدائقها حيث كانت تقوم قصور المعتمد الشوامخ التى حوت من اللهو والطرب ، مالم يكن بحلب لبنى حمدان ولسيف بن ذى يزن فى رأس غمدان (٢) . ولما وصلت القصيدة الى ابن حمديس شد رحله الى أغمات حيث المعتمد قد أثقلته القيود فقال معارضا للقصيدة السابقه : (٣)

جرى بك جد بالكرام عثور * وجار زمان كنت فيه تجير .

لقد أصبحت بيض الظبا فى غمودها * اناثا لترك الضرب وهى ذكور .

تجئ خلافا للأمور أمورنا * ويعدل دهر فى الورى ويجور .

---

(١) الزاهر والزاهى من قصور المعتمد باشبيليه . المصدر السابق : ٢٤ .

(٢) النفح : ٢٧٥/٤ . وانظر مادة (غمدان) فى الروض المعطار .

(٣) ديوان ابن حمديس : ٢٦٨ .

أتيأس فى يوم يناقض أمسه * وزهر الدرارى فى البروج تدور .

وقد تنتخى السادات بعد خمولها * وتخرج من بعد الكسوف بدور .

لئن كنت مقصورا بدار غربتها * فقد يقصر الضرغام وهو هصور .

أغرّ الأسارى، أن يقال محمد * غريب بأرض المغربين أسير .

الى أن يقول :

ولما رحلتم بالندى فى أكفكم * وقلقل رضوى منكم وثبير .

رفعت لسانى بالقيامة قد أتت * الا فانظروا هذى الجبال تسير .

والشاعر يحاول أن يواسى سيده ويهون عليه ماهو فيه بنسبة ماأصابه الى الحظ العاثر ، والزمان الجائر الذى ربما يبتسم مرة أخرى فتعود البدور العبّاديه الى لمعانها بعد الكسوف ، ولاعبرة بهذا الأسر والبعد عن الوطن اذ أنه لايفل عزيمة رجل كابن عباد . والشاعر فى واقع الأمر غير مقتنع بهذا الأمل والتفاؤل وخاصة بعد أن قتل المرابطون ولدى ابن عباد بقرطبه ورنده عندما حاولا المقاومة والامتناع ، فنراه يصرخ يائسا قد فقد كل شئ حوله وكأن القيامة قد أزفت .

(١)
وفى رثاء قصوره ومنازله يقول المعتمد أيضا :-
(٢)
بكى المبارك فى اثر ابن عباد * بكى على اثر غزلان وآساد .

بكت ثريّاه لاغمت كواكبها * بمثل نوء الثريا الرائح الغادى .

بكى الوحيد ، بكى الزاهى وقبته * والنهر والتاج ، كلّ ذلّه بادى .

ماء السماء على أفيائه درر * يالجة البحر دومى ذات ازباد .

---

(١) القلائد : ٢٦ .

(٢) هو قصر الحكم والامارة وكان يقع فى شرق نهر الوادى الكبير . / عنان عصر الطوائف والمرابطين : ٥٥ .

والملاحظ هنا تكراره للفظ البكاء واسقاطه على القصور ، والنهر ، والتاج .... ليشعر السامع بروعة الملك وفخامة السلطان ، والتصاق ببانيه وشيد أركانه . ومن ناحية أخرى يمكن أن نتبين معجم ابن عباد الشعرى الذى مداره على الغزل والاستمتاع بالحياة والطبيعة ، فهو لا ينفك - حتى فى رثائه - يذكر الروض والغدير ، والسرير ، والثريا ، والقصور والطيور المغرده .... الخ أما ما نزل بقصوره من خراب واهمال وتبدل أحوال فيكتفى بذكر كلمة "بكى" لتعبر عن ذلك كله :

ومر على المعتمد وهو فى معتقله سرب من القطا يمرح فى الفضاء فهاج وجده الى حريته المفقوده فقال :- (١)

بكيت الى سرب القطا اذ مررن بى * سوارح لا سجن يعوق ولا كبل .

ولم تك - والله المعيذ - حسادة * ولكن حنينا أن شكلى لها شكل .

فأسرح لا شملى صديع ، ولا الحشا * وجيع ولا عيناى يبكيهما ثكل .

هنيئا لها أن لم يفرّق جميعها * ولا ذاق منها البعد عن أهلها أهل .

وان لم تبت مثلى تطير قلوبها * اذا اهتز باب السجن أو صلصل القفل .

وماذاك ممّا يعتريه ، وانما * وصفت التى فى جبلة الخلق من قبل .

لنفسى الى لقيا الحمام تشوف * سواى يحب العيش فى ساقه كبل .

ألا عصم الله القطا فى فراخها * فان فراخى خانها الماء والظلّ .

وهو يتمنى الموت ليتخلص من حياة القيود التى تأنف نفسه منها ، وليغيب عن مشاهدة أولاده وهم يعيشون فى بؤس وشقاء بعد النعيم وفى ذلك يقول : (٢)

---

(١) نفح الطيب : ٤/ ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٤/ ٢٧٣ - ٢٧٤ .

ترى بناتك فى الأطمار جائعة * يغزلن للناس مايملكن قطميرا .

برزن نحوك للتسليم خاشعة * أبصارهن حسيرات مكاسيرا .
(١)

يطأن فى الطين والأقدام حافية * كأنها لم تطأ مسكا وكافورا .

لا خدّ الا تشكى الجدب ظاهره * وليس الا مع الأنفاس ممطورا .

أفطرت فى العيد لاعادت مساءته * فكان فطرك للأكباد تفطيرا .

قد كان دهرك ان تأمره ممتثلا * فردّك الدهر منهيّا ومأمورا .

من بات بعدك فى ملك يسرّبه * فانّما بات بالأحلام مغرورا .

ان الحزن والألم قد دخل الى نفس ابن عباد من جوانب كثيرة ، فهو يبكى فقد الملك ، ويبكى ذل الاسار الذى قيد حريته ومجده ونواله ، وهنا نراه يصف بعاطفة الأبوة منظرا حزينا لبناته عندما أقبلن لتهنئته بالعيد فرأى منهن مافطّر قلبه وأدماه فالملابس بالية ، والأقدام حافية ، وأثر الجوع باد على الوجوه المنكسرة الخاشعة من الذّل ، وهذه الصورة الحزينة الموحية وأمثالها من شعر المعتمد - وان كانت لا تخلو من المبالغة - هى التى جعلت نكبة المعتمد تأخذ الطابع الأسطورى على مر العصور ، وقد أحس المعتمد بذلك فقال متجاهلا مع الاحساس بالعظمة الكامنة فى نفسه :- (٢)

أنباء أسرك قد طبّقن آفاقا * بل قد عممن جهات الأرض اقلاقا .

سرت من الغرب لا تطوى لها قدم * حتى أتت شرقها تنعاك اشراقا .

فأحرق الفجع أكبادا وأفئدة * وأغرق الدمع آماقا وأحداقا .

---

(١) يشير المعتمد هنا الى حادثة " يوم الطين " وذلك أن زوجته "اعتماد الرميكية " رأت الناس يمشون فى الطين فاشتهت أن تفعل مثلهم ، فأمر المعتمد بسحق كميات من الطيب وعجنها بماء الورد حتى أصبحت كالطين فخاضته مع جواريها ، أنظر : المصدر السابق : ٤/ ٢٧٢ .

(٢) نفح الطيب : ٤/ ٢١٩ .

قد ضاق صدر المعالى اذ نعيت لها * وقيل : انّ عليك القيد قد ضاقا .
أنّى غلبت وكنت الدهر ذا غلـب * للغالبين وللسبّاق سبّاقـا .
قلت الخطوب أذلّتنى طوارقها * وكان عزمى الى الأعداء طرّاقا .
متى رأيت صروف الدهر تاركة * اذا انبرت لذوى الأخطار أرماقا .

فنبأ أسره الفاجع قد أقلق مشارق الأرض ومغاربها ، وتقرحت قلوب الناس هنا وهناك حزنا وألما من فعل الدهر المولع بتحطيم العظماء ، فبينما كان ابن عباد ملء سمع الدنيا وبصرها اذا به يحويه سجن ضيق ، ويطوقه قيد ثقيل يطوى أخباره وآثاره .

وهكذا ظل المعتمد فى سجنه الى أن مات سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ودفن بأغمات وعندما وافى العيد من تلك السنة زار الشاعر أبو بكر بن عبد الصمد (١) قبر سيده المعتمد وطاف به وخرّ على تربه ولثمه وأنشد (٢) :-

ملك الملوك أسامع فأنادى * أم قد عدتك عن السماع عوادى ؟
لما خلت منك القصور ولم تكن * فيها كما قد كنت فى الأعياد .
أقبلت فى هذا الثرى لك خاضعا * وتخذت قبرك موضع الانشاد .

---

(١) هو أبو بحر يوسف بن أبى القاسم خلف بن أحمد بن عبد الصمد . أصله من كورة جيان ، وجده الأول السمح بن مالك أحد أمراء الأندلس قبل دخول عبد الرحمن الداخل اليها . وبيتهم مشهور بالعلم والأدب والنباهه . وأبو بحر هذا شاعر وناثر مبدع ، وفى رويّته بديهه ، كان من جملة شعراء المعتمد بن عباد . / أنظر الذخيره ، ق٣ ، ج ٢ ص ٨٠٩ ، المغرب فى حلى المغرب : ٢/٢٠٣ .

(٢) أورد جزءا منها صاحب القلائد : ٢٤ ، وأوردها بطولها مصطفى عوض الكريم فى كتابه الأدب الأندلسى فى عهد المرابطين : ٣١ - ٣٤ .

قد كنت أحسب أن تبدد أدمعى * نيران حزن أضرمت بفؤادى .

فاذا بدمعى كلما أجريته * زادت على حرارة الأكباد .

فالعين فى التسكاب والتهتان والـ * أحشاء فى الاحراق والايقاد .

يا أيها القمر المنير أهكذا * يمحى ضيا النيّر الوقاد .

ماكان ظنى قبل موتك أن أرى * قبرا يضم شوامخ الأطواد .

الهضبة الشماء تحت ضريحه * والبحر ذو التيار والازباد .

ويستمر الشاعر فى ذكر صفات الأمير الراحل التى هى فى نظره مثال للكمال الانسانى فهو قائد الفرسان والكتائب يرى الهيجاء روضا يانعا ، وغبارها فى أنفه أطيب من دخان النّد العابق . وهو محل الجود والندى متهلل الوجه لقصّاده فى كل الظروف ، أما العلوم والآداب فهو حامل لوائها والعليم بأخبارها :

من يفهم المعنى الخفى ومن له * صدق الحديث وصحة الايراد .

ثم يدور الزمان دورته ويلعب بابن عباد ، وهذا ليس عجيبا لأن الأيام دول بين الناس وفى التاريخ أكبر دليل :

حتى اذا ما الدهر أظهر حقده * والدهر للأحرار ذو أحقاد .

ألقت بأيديها ممالك التى * ملئت من العقبان والآساد .

وتهدمت أركان كلّ سياسة * وانهد حول الملك كلّ عماد .

حازت بنو العباس ملك أمية * وهم ذوو الأعداد والأمداد .

والدهر أذهب تبعا وجنوده * وأزال ملك الأرض عن شدّاد .

ثم يستطرد الشاعر فى ذكر النعم التى أولاه اياها المعتمد أيام حكمه باشبيلية ، والتى مهما رثى وبكى فلن يوفيها حقها :-

كم نعمة خضراء قد ألبستنى * ومواهب واليتها وأيادى .

أغرقتنى فى بحرك الطامى الذى * منع الظماء ورد كل ثماد .(١)

وسللت فى نصرى سيوف مكارم * تركت سيوف الهند غير حداد .

عادت بحارا اذ سقيت ضحا ضحى * وغدت هضابا اذ رفعت وهادى .

وأقمتنى لما رأيت حوادث الـ * أيام قد أسرفن فى اقصادى .

فالجفن بعدك ليس يدرى ما الكرى * فى دمعة منهلة وسهاد .

وكأن قلبى فوق مخلب طائر * وكأن جنبى فوق شوك قتاد .

ان لم تطب فيك المراثى والثنا * منى فلست بطيب الميلاد .

ولقد تمازج حبكم بجوانحى * كتمازج الأرواح بالأجساد .

ولقد رثيت وما قضيت حقوقكم * والله يعلم ما يكن فؤادى .

والشاعر فيما يبدو صادق العاطفة ، يتحدث عن أمير أحبه وعن واقع عاشه فى كنفه ، وقد مزج فى رثائه بين العبرات المنسكبة حزنا وألما وبين المدح لشخصية المعتمد . التى أمدته بكثير من مادة شعره .
(٢)
وأما عن تأثير هذه القصيدة فى سامعيها فيقول الفتح بن خاقان : " .... وهى قصيدة أطال انشادها ، وبنى بها اللواعج وشادها ، فانحشر الناس اليه وأحفلوا ، وبكوا لبكائه وأعولوا وأقاموا أكثر نهارهم مطيفين به طواف الحجيج ، مديمين البكاء والعجيج ، ثم انصرفوا وقد نزفوا ماء عيونهم وأقرحوا مآقيهم بفيض شجونهم ...... " .

---

(١) الثماد : الماء القليل . الصحاح (ثمد) .

(٢) قلائد العقيان : ٣٥ .

قضية ابن عباد فى اطارها الحقيقى :-

لقد شغلت هذه القضية جانبا كبيرا من جوانب الأدب والتاريخ فى الأندلس والمغرب على وجه الخصوص ، فاننا لا نكاد نجد كتابا فى هذين الفنين يخلو من ذكرها ومن الخوض فيها ، ومن هنا فقد كثرت الآراء والأحكام التى تصم يوسف بن تاشفين بالقسوة والغلظة والخشونة ، ودولة المرابطين عامة بالجهل والتخلف ومحاربة الآداب والعلوم غير الشرعية ، ولعل هذه الأحكام ترجع الى عاملين اثنين هما ، الشعر ، ووجود المؤرخين المعادين لهذه الدولة . فالشعر الذى نظمه المعتمد نفسه أو شعراؤه الذين فقدوا مصدر رزقهم بأسره عمل عمل السحر فى نفوس الناس لما كان يحوى من مبالغات كبيرة فى وصف الآلام والأحزان الرهيبة التى كان يعانيها المعتمد وبناته الصغار من جراء السجن وقلة الزاد ، والمعاملة السيئة القاسية ، وقد قدمنا فيما سبق طرفا من هذا الشعر . أما المؤرخون فأشهرهم عبد الواحد المراكشى صاحب كتاب " المعجب فى تلخيص أخبار المغرب " الذى صور اعجاب ابن تاشفين ببلاد الأندلس ، وطمعه فى الاستيلاء عليها لأجل ذلك ، فقد قال عن عودته بعد الزلاقة : " ..... ورجع أمير المسلمين الى مراكش وفى نفسه من أمر الجزيرة المقيم المقعد ، فبلغنى أنه قال لبعض ثقاته من وجوه أصحابه : كنت أظن أنى قد ملكت شيئا ، فلما رأيت تلك البلاد صغرت فى عينى مملكتى فكيف الحيلة فى تحصيلها " ؟ (١) ويروى أيضا أن أمير المسلمين كان يقول للمعتمد هلم ماجئنا له من الجهاد ، وجعل يتأفف من الاقامة بالأندلس ويتشوق الى مراكش ويقول : " كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيما قبل أن نراها فلما رأيناها وقعت دون الوصف . وهو فى ذلك كله يسرّ حسوا فى ارتغاء " (٢)

---

(١) المعجب : ١٩٩ .
(٢) المصدر نفسه : ٩٣ ، ومعنى المثل أنه يعتقد خلاف مايقول ، كالذى يتظاهر بأخذ الرغوة يحتسى اللبن من تحتها .

الى غير ذلك من أشباه هذه الروايات التى لا يوثق بصحتها فقائلها مؤرخ موحدى مؤمن بالعقيدة الموحدية لدرجة أنه يذكر المعجزات التى لا تصدق عن المهدى ، والتى أعلن عدد من المؤرخين شكهم فيها (١) . فهل ينتظر من مثل المراكشى أن يذكر جهاد المرابطين واخلاصهم وهم أعداء قومه وجهاده ؟ ولعل الذى جعل أمير المسلمين يتأفف من الاقامة فى الأندلس ـ على فرض صحة ذلك ـ هو مارأى من اللهو والعبث والتبذير الذى كان عليه المعتمد بن عباد كبير أمرائها مما دفعه الى القول (٢) : " الذى يلوح لى من أمر هذا الرجل (أى المعتمد) أنه مضيع لما فى يديه من الملك ، لأن هذه الأموال التى تعينه على هذه الأحوال لابد أن يكون لها أرباب لا يمكن أخذ هذا المقدار منهم على وجه العدل أبدا ، فأخذه بالظلم ، وأخرجه فى هذه النزهات . وهذا من أفحش الاستهتار . " واذا كان يوسف عبر الى الأندلس بدافع الطمع وحب السيطرة فلماذا لم يحتلها مباشرة بعد معركة الزلاقة التى جعلت أهل الأندلس يلهجون بحبه والدعاء له ولو أراد ذلك لما وجد مقاومة ، ولكنه أعطى أمراء الطوائف فترة خمس سنوات فلما بان عجزهم واختلافهم ، استفتى أمير المسلمين بشأنهم الفقهاء وعمل برأيهم وهو ازالة هؤلاء الحكام انقاذا للمسلمين وأرضهم ، ذلك أن الأندلس لو لم تنضو تحت لواء المرابطين لسقطت لا محالة فى يد النصارى الملازمين لها كالظل ، والذين استشرى طمعهم بعد احتلالهم طليطلة . ثم اننا لو نظرنا الى الدعاء الذى استفتح به يوسف بن تاشفين جوازه الى الأندلس لقدرنا قيمة أقوال المراكشى السابقة حيث قال عندما ركب سفينته : " اللهم ان كنت تعلم

---

(١) أحمد بدر ، من كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب : ٢٩ .

(٢) وفيات الأعيان : ٢/٤٨٥ .

(٣) روض القرطاس : ٩٣ .

أن فى جوازى هذا خيرا وصلاحا للمسلمين ، فسهّل علىّ جواز هذا البحر ، وان كان غير ذلك فصعّبه علىّ حتى لا أجـوزه . "

ولو أننا الآن نظرنا الى أحداث هذه القضية نظرة شاملة بعيدة عن تأثير العوامل المختلفه لأمكننا التعرف على واقع الحالة التى كان يعيش فيهـا المعتمد بالمغرب ولأ نصفنا أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين مما يتهم به مـن الغلظة والقسوة والأ نانيه . ولا بد أن أن نذكر بادئ ذى بدء أن المعتمـد كان يعيش فى الأ ندلس منغمسا فى الملذات والشهوات يهز عطفيه خيـلاء وسط ذلك العقد من الشعراء الذين خلدوا فيه من الأ مداح " مالو مـدح به الليل لصار أضوأ من الصباح[(١)] . فلم تكن حياة المرابطين لتعجبه ولو وضعوه فى قصر أمير المسلمين نفسه ، وهل يرضى المعتمد المتنعم بخبز الشعير ولبن الابل اللذين كانا غذاء أمير المسلمين الدائم كما يشهد بذلك المستشرق أشباخ بالرغم من عدائه الشديد للمرابطين . اذ يقول : " قد بلغ من اعتداله ، وتقشفه أنه لم يكن يأكل سوى خبز الشعير ولحم الابل ولا يشرب سوى لبنهـا[(٢)] " . وقد كان أمير المسلمين يكنّ للمعتمد شيئا من الا حترام لمشاركته فى الحـروب التى خاضها المرابطون فى الأ ندلس ، ولذا فقد أمر ابن تاشفين قائده بـترك اشبيليه حتى يفرغ من جميع امارات الطوائف ثم يعرض على المعتمد التحول الـى المغرب بأهله وماله ، فان فعل والا نازله[(٣)] . فلما أبى المعتمد التحول كان من أسره ماسبق ايضاحـه . وعن معاملة هذا الأ سير يحدثنا زميله فى الأ سـر عبد الله بن بلقين أمير غرناطـة الذى أسره المرابطون قبل المعتمد واستقـر فى مدينة مكناسة حيث وافاه المعتمد هناك ، وانتقلا معا الى أغمـات[(٤)] .

---

(١) نفح الطيب : ٣ / ٢٢٥ .

(٢) تاريخ الأندلس : ١/ ٧١ .

(٣) الوفيات : ٢/ ٤٨٧ .

(٤) التبيان : ١٧١ .

وفى ذلك يقول : (١) "وأمرنا أن نستوطن أغمات ، فأتيناها ، ولقينا من أمير المسلمين كل جميل ، وأنزلنا بداره الصغرى فى الحريم ، ولم يزل يحتقد نسا من انعامه كيف ماهيأ الله على يديه ، ووجدناه بعد الله أرفق بنا وأحسن مذهبا فينا من الناس أجمعين ، ومن كل من سبق اليه منا احسان ."

ولم تكن أغمات أنذاك مدينة مهملة أو صغيرة فقد كانت عاصمة المرابطين قبل مراكش تشتهر ببساتينها الفسيحة وأسواقها التجاريه الضخمه (٢) ، وقد كانت للمعتمد حرية الاتصال بالناس ، وكان الشعراء - وهم الطبقه المفضلة لديه - على اتصال دائم به ، فمنذ أن وصل مدينة طنجه (٣) فى طريقه الى أغمات تلقاه الشعراء الطحفون والمكدون وأسمعوه بعض أشعارهم فيه فأعطاهم مما كان معه من المال وقال (٤) :-

شعراء طنجة كلهم والمغرب * ذهبوا من الاغراب أبعد مذهب .

سألوا العسير من الأسير وانه * بسؤالهم لاحق فأعجب وأعجب .

وأما عندما استقر فى أغمات فقد زاره شعراؤه الثلاثة ابن اللبانة وابن حمديس الصقلى وعبد الصمد وأنشدوه من أشعارهم الشئ الكثير ، ومكثوا عنده فى حرية تامة بل ان بعضهم كابن اللبانة أنشده شعرا لا يمكن أن يسمح بمثله

---

(١) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٢) عباس الجرارى ، الأدب المغربى : ١/١٢٣ نقلا عن البكرى فى المسالك والممالك ص ١٥٣ .

(٣) مدينة قديمة بالمغرب على ساحل البحر المتوسط ، افتتحها عقبة بن نافع ، وكانت قصبة بلاد البربر ، ومنها يجوز أهل المغرب الى شواطئ الأندلس . / الروض المعطار (طنجه) .

(٤) عوض الكريم ، الأدب والأندلس فى عهد المرابطين : ٣٦ .

فى تلك الظروف فى أى زمان أو مكان ، وذلك أنه مدح المعتمد فأراد أن يجيزه بما معه من المال فرفض الشاعر وقال من قصيدة طويلة :- (١)

ويهدك سوف توسعنى سرورا * اذا عاد ارتقاؤك للسرير .

وسوف تحلّنى رتب المعالى * غداة تحلّ من تلك القصور .

تأهب أن تعود الى طلوع * فليس الخسف ملتزم البدور .

وله أيضا :

ليت لى قوة أو اوى لركن * فترى للوفاء منى سرا .

وشاعره أبو بحر عبد الصمد الذى أنشد على قبره وبكى واحتشد الناس من حوله فى مشهد كبير صاخ . فهل نجد أكثر من هذا القول والفعل دليلا على الحرية التى كانت متاحة للمعتمد وشعرائه ، واذا أضفنا الى هذه الحرية بعض جوانب اهتمام ابن تاشفين بأسيره كأمره لطبيبه الخاص أبى العلا بن زهر بعلاج اعتماد الرميكيه زوجة المعتمد (٢) استطعنا أن ندرك مدى المبالغات التى أحاطت بهذه القضية ، واستطعنا أيضا أن نرد أقوال المؤرخين المبالغين فى الماضى والحاضر ، كقول ابن الأثير (٣) : عن بنى عباد : "وفعل أمير المسلمين بهم أفعالا لم يسلكها أحد من قبله ولا يفعلها أحد ممن بعده الا من رضى لنفسه بهذه الرذيلة ..... وأبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفسه ولؤم قدره" .

وعذر ابن الأثير فى هذا الكلام أنه ينقل عن كتاب السلوك فى وعظ الملوك لابن اللبانة شاعر المعتمد وصنيعته الآنف الذكر ، وكلامه لا يلتفت اليه لأنه

---

(١) المعجب : ٢٢١ .

(٢) الذخيره : ق٢ ، ج ١ ، ص ٢٢٧ .

(٣) الكامل فى التاريخ : ١٩٠/١٠ .

خصم همه تشويه سمعة أمير المسلمين . ولم يعلق ابن الأثير على مانقلـه شيئا فتحمل بذلك وزر ماصنع .

ومن المحدثين المستشرق رينهارت دوزى الذى يقول : "ان معاملة ابن تاشفين للمعتمد كانت قاسية ومقيته" (١). وقد تبعه فى هذا الرأى المؤرخ محمد عبد الله عنان الذى يقول : "..... ولم يكن مقامه (أى المعتمد) بأغمات معتقلا عاديا بل كان سجنا شنيعا بكل معانى الكلمه ، ضيق فيه على المعتمد وآله أشد التضييق فلم يكن يطلق لهم مايكفيهم من النفقه ، وكان المعتمد وزوجه الرميكيه ، وأبناؤه الأمراء ، وبناته الأقمار يرتدون الثياب الخشنه ." (٢)
وقال أيضا : "..... وأى ضرورة اقتضت أن يعامل سيد المرابطين المعتمد بن عباد وآله بهذه القسوه المروعه ، بعد أن غدوا فى يده أسرى لا حول لهم ولا قوه ؟ وكيف سمح أمير المسلمين القوى القادر لنفسه أن تمتد هذه القسوه الى الولد الضعاف والنساء والبنات ." (٣)

ولا أدرى من أين أتى عنان بهذه المعلومات الا أن يكون ذلك من تأثير مبالغات الشعر الذى قيل فى هذه القضيه ، أو من متابعة هذا الرجل لجملة المستشرقين الدارسين لتراث الأندلس ، والذين كان ديدنهم الطعن فى الجوانب المختلفه لدولة المرابطين . لا لشئ الا أنها دولة اسلامية مجاهدة حطمت شوكة النصارى ردحا من الزمن ، وقضت على مظاهر الفسق والفجور التى كانت تعج بها الأندلس يقول دوزى : "كان مجئ المرابطين الى بلاد الأندلس (٤)

---

(١) تاريخ مسلمى اسبانيا : ٣/١٦٨ .

(٢) عصر الطوائف والمرابطين : ٣٥٧ .

(٣) المرجع نفسه : ٣٦٥ .

(٤) حسن محمود ، قيام دولة المرابطين : ٤٤٠ .

نذيرا بانقلاب بعيد المدى ، فقد دالت دولة الحضارة وقامت الهمجية على أنقاضها ، أما حسن الادراك فقد حلت محله الخرافات ، ذهب التسامح وسيطر التعصب .... فبدلا من أن نسمع مساجلات العلماء في دور العلم ومناقشاتهم في الفلسفة ، ونشيد الشعراء ، وغناء أهل الموسيقى بدأنا لا نسمع الا أصوات الفقهاء وصليل السيوف . "

(١)

ويقول أشباخ : "كان المرابطون يعملون على سحق جميع العلوم والفنون التى بلغت ذروتها في ظل السيادة العربية ، فكانوا يطاردون العلماء الذين ينحرفون عن معتقداتهم ، ويحرقون كتبهم ، ويعملون بالأخص على تحطيم الروح الشعرية الأندلسية التى كانت تجد متعتها في قريض الفروسية ، والقصص العادى ، وكانت قراءة هذه الكتب تحظر ويعاقب عليها بأشد العقوبات . " ويعلق الدكتور مجيد السعيد على هذا النص (٢) بقوله : " اننا لا ندرى ماذا يقصد المؤلف بقصص الفروسية والقصص العادى ؟ ومن أين أتى بهذا النص ؟ وهل كان لدى الأندلسيين قبل المرابطين مثل هذا الفن ؟ الذى نراه أن الرجوع الى كتب التراجم والسير ، وكتب الأدب المؤلفة خلال هذا العصر ومابعده ماتضم أسماء أعلام برزوا في علوم مختلفة يعتبر خير رد على أشباخ ويبين خطل ماذهب اليه " .

والواقع أن عصر المرابطين كان عصرا زاهرا بالعلم والأدب ويكفى أنه عصر ابن بسام والفتح بن خاقان ، وعصر ابن خفاجه شاعر الأندلس ، وعصر الموشحات والأزجال ، التى يعتبرها المستشرق غارسيه غومث انعطاطا

---

(١) تاريخ الأندلس : ١/٤٩٣ .

(٢) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس : ٦٣ .

في الذوق نتيجة لتعصبه ضد العصر الذي ازدهرت فيه . يقول كرد علي عن المرابطين واهتمامهم بالناحية الفكريه : (١) " .... فاجتمع لهم في بلاطهم بمراكش من الكتاب ، وفرسان البلاغة ، وأفذاذ العلوم ، مالم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار ، حتى أشبهت حضرتهم حضرة بني العباس في صدر دولتهم . " ولو أردنا أن نستقصي ذلك تفصيلا لاحتجنا الى كثير من الصفحات التي لا يتسع لها المجال .

وبعد فهذا قليل من كثير من الآثار التي انتجتها قضية المعتمد بن عباد ولا تزال الى اليوم حية تخوض غمارها الأقلام واني لأرجوه أن أكون قد وضعتها في اطارها الحقيقي أو في قريب منه .

رثاء امارة بني الأفطس :-

الى الشمال من امارة اشبيلية كانت تقوم امارة بني الأفطس على رقعة كبيرة من الأرض تمتد من غرب طليطلة حتى المحيط الأطلسي وكانت مدينة بطليوس عاصمة هذه الامارة تقع في وسط تلك الرقعه (٢) ، أما أمراؤها بنو الأفطس فهم من قبائل المغرب البربريه ، ولكنهم ينتسبون الى قبيلة تجيب العربية واشتهروا بهذا النسب ومدحتهم به الشعراء (٣) ، وينكر ذلك عليهم المؤرخ ابن حيان وأولهم عبد الله بن مسلمه المعروف بابن الأفطس الذي

---

(١) كرد علي ، غابر الأندلس وحاضرها : ٦٠ .

(٢) مدينة جليلة في بسيط من الأرض ، بنيت في عهد الأمويين ، وتحيط بها الأسوار المنيعة ويجري في شرقها نهر تقوم عليه قرى كثيره خصبه . / الروض المعطار (بطليوس) .

(٣) الحلة السيراء : ٩٧/٢ .

كان وافر الحزم والسياسه استطاع أن يصمد عدة سنوات فى الحروب التى دارت بينه وبين جاره ابن عباد بسبب أطماع الأخير الى أن توفى سنة سبع وثلاثين وأربعمائه (١) وخلفه ولده محمد الملقب بالمظفر وكان عالما فارسا اشتبك مع ابن عباد فى معارك كانت الدائره عليه وتوغل ابن عباد فى أراضيه ، ولم ينقذه الا مساعى ابن جهور حاكم قرطبه ونجاحه فى توقيع الصلح بين الطرفين سنة ثلاث وأربعين وأربعمائه ، وقد اشتهر المظفر بالعلم والأدب ، وله التأليف الكبير المسمى بالمظفرى فى خمسين مجلدة احتوى على الأخبار والسير والآداب ، والطرف المستملحه ، والنكت البديعه (٢) .

وقد استغل النصارى القشتاليون الخلافات القائمه بين الأمراء الأندلسيين وأغاروا على أطراف امارة بنى الأفطس من الشمال والغرب واحتلوا بعض الأجزاء واستوطنوها وأخذوا يهددون ابن الأفطس الذى لم يجد بدا من دفع الجزيه لهم لعجزه عن دفعهم بسبب انشغاله بحرب ابن عباد ، وظل الأمر كذلك الى أن توفى المظفر وخلفه ولده يحيى المنصور الذى نشب النزاع بينه وبين أخيه المتوكل حيث كان يرى أنه أحق بالحكم من المنصور واستمر النزاع عدة أعوام اضطربت خلالها الامارة اضطرابا كاد يودى بها لولا أن انتهى الخصام بموت يحيى فجأة سنة أربع وستين وأربعمائه ، فتولى عمر المتوكل الحكم مكانه بهدوء وسلام . وكان المتوكل أديبا وشاعرا كبيرا ، وكان يضاهى المعتمد بن عباد فى فخامة البلاط

---

(١) عنان ، عصر الطوائف والمرابطين : ٨٤ .

(٢) البيان المغرب : ٣/٢٣٦ .

وجلب الشعراء والعلماء والمغنين وغيرهم ويصفه الفتح بن خاقان بقوله[١] : " ملك جنّد الكتائب والجنود ، وعقد الألوية والبنود وأمر الأيام فأتمرت وطافت بكعبته الآمال واعتمرت ، الى لسن وفصاحه ، ورحب جناب للوافد وساحه ، ونظم يزرى بالدر النظيم ، ونثر تسرى رقته سرى النسيم ، وأيام كأنها لحسنها جمع ، وليال كان فيها على الأنس حضور مجتمع ، راقت اشراقا وتبلجا ، وسالت مكارمه أنهارا وخلجا " .

ويقول لسان الدين بن الخطيب[٢] : " .... وكان المتوكل ملكا عالى القدر ، مشهور الفضل ، مثلا فى الجلالة والسرور ، من أهل الرأى والحزم والبلاغه ، وكانت مدينة بطليوس فى مدته دار أدب وشعر ونحو وعلم . "

وقد شهدت الاماره فى عهده شيئا من الاستقرار والأمن الى أن استولى القشتاليون على طليطله وبعث ملكهم الى المتوكل يطلب منه تسليم بعض الحصون والقلاع مع أداء الجزيه ، فرفض المتوكل ذلك ورد على ملك قشتاله برسالة حازمة منها[٣] : " ..... وأما نحن ان قلّت أعدادنا ، وعدم من المخلوقين استمدادنا ، فما بيننا وبينك بحر نخوضه ، ولا صعب نروضه الا السيوف تشهد بحدها رقاب قومك ، وجلاد تبصره فى ليلك ويومك ، وبالله تعالى وملائكته المسومين ، فنقوى عليك ونستعين .... " ثم بعث المتوكل قاضيه أبا الوليد الباجى ليطوف بحواضر الأندلس ويحضهم على الوحدة لمدافعة العدو ، فقام بالمهمة وما وسعه ذلك[٤] ، ولكن هيهات أن يستجيب الأموات عندئذ استقر رأى المتوكل بن الأفطس والمعتمد على استدعاء

---

(١) قلائد العقيان : ٤١ .

(٢) أعمال الأعلام : ١٨١ .

(٣) الحلل الموشيه : ٣٧ .

(٤) الحلة السيراء : ٩٨/٢ .

المرابطين ، فكان قد ومهم وحدوث معركة الزلاقة . كما سبق بيمانه . ولما أراد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين انقاذ الأندلس وازالة هؤلاء الأمراء وبدأ باشبيليه ، شعر ابن الأفطس بالخطر فسلك مسلك ابن عباد من قبل وهو الاستغاثة بالاذفونش ملك قشتاله وبذل له ثلاث مدن هامه من أملاكه (١) ، وكان لهذا التصرف الأرعن أثره في نفوس الناس ، فانحرفوا عن المتوكل ، وكتب أعيانهم الى المرابطين يستدعونهم ، فتحرك في أوائل سنة ثمان وثمانين وأربعمائه جيش مرابطى من اشبيليه واخترق أراضى بطليوس بسرعه الى أن وصلوا الى مأوى المتوكل فاقتحموه وقبضوا على المتوكل وولديه الفضل والعباس وضربوا أعناقهم ، وهكذا انتهت امارة بنى الأفطس في بطليوس بعد أن دامت قرابة خمس وسبعين سنه . (٢)

وقد رثى هذه الامارة وأصحابها وزيرهم الشاعر الأديب عبد المجيد ابن عبدون (٣) ، بقصيدة طويله اشتهرت باسم البسامه حشد فيها جملة كبيرة (٤) فمن أصابتهم حوادث الأيام في مختلف العصور . يقول :-

---

(١) عصر الطوائف والمرابطين : ٣٦٨ .

(٢) أعمال الأعلام : ١٨٦ .

(٣) هو ذو الوزارتين أبو محمد عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون الفهرى . من أهل مدينة يابره ، كان أديب الأندلس في عصره شعرا وكتابة وترسلا مع العلم بالخبر والأثر ومعاني الحديث . تولى الوزارة لبني الأفطس حتى انقضاء دولتهم ثم انتقل الى خدمة المرابطين ، له كتاب في نصرة أبى عبيد على ابن قتيبه ، وروى عن الأعلم الشنتمرى انظر الصلة : ٢/٣٨٨ - ٣٨٩ ، فوات الوفيات : ٢/٣٨٨ ، دائرة المعارف الاسلاميه ١/٢٢٥ .

(٤) القصيده في المعجب : ١٢٩ - ١٤٠ .

الدهر يفجع بعد العين بالأثر * فما البكاء على الأشباح والصور ؟

أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة * عن نومة بين ناب الليث والظفر .

فالدهر حرب وان أبدى سالمة * والبيض والسود مثل البيض والسمر (١) .

ولا هوادة بين الرأس تأخذه * يد الضراب وبين الصارم الذكر .

فلا يغرنك من دنياك نومتها * فماصناعة عينيها سوى السهر .

ماالليالى أقال الله عثرتنا * من الليالى وخانتها يد الغير .

فى كل حين لها فى كل جارحة * منا جراح وان زاغت عن البصر .

تسر بالشئ لكن كى تغر به * كالأيم (٢) ثار الى الجانى من الزهر .

كم دولة وليت بالنصر خدمتها * لم تبق منها ، وسل ذكراك من خبر .

يبدأ الشاعر قصيدته بهذه المقدمة الرزينة التى تنم عن حكمة ومعرفة بأحوال الدهر وتقلبات الأيام التى لا تفتأ فى حركة مستمرة تأتى بكل عجيب لا يخطر على بال من غفل واغتر بمسالمتها فالأيام فى نظر الشاعر عدو شاكى السلاح ، واقف بالمرصاد لمحو العين والأثر لكل حى مهما تنعم ولكل دولة وان ازدهرت وشمخت والأمثلة على ذلك تفوق كل حصر :-

هوت بدارا (٣) وفلت غرب قاتله * وكان عضبا على الأملاك ذا أثر .

واسترجعت من بنى ساسان (٤) ماوهبت * ولم تدع لبنى يونان من أثر .

---

(١) البيض والسود : هى الأيام والليالى ، والبيض والسمر : هى السيوف والرماح .

(٢) الأيم : الحيّه . الصحاح (أيم) .

(٣) قام بشرح هذه القصيدة ابن بدرون الشلبى الأندلسى ، وعلى شرحه المخطوط بمركز البحث العلمى اعتمدت فى تفسير النواحى التاريخيه .
دارا : هو آخر ملوك الفرس الأوائل ، وقاتله هو الاسكندر ذو القرنين الذى تغلب على سائر الملوك ومات من بضع وثلاثين سنه . / انظر لوحه ٣-٤ ، الأثر : فرند السيف . / اللسان (أثر) .

(٤) بنو ساسان : هم الأكاسره من ملوك الفرس ، وساسان جدهم ، وحكموا أربعة قرون . لوحه : ٦ .

(١)
والحقت أختيها طسما ، وعاد على * عاد وجرهم منها ناقض المرر .

وما أقالت ذوى الهيئات من يمن * ولا أجارت ذوى الغايات من مضر .

ومزقت سبأ فى كلّ قاصية * فما التقى رائح منهم بمبتكر .

يسير الشاعر بتسلسل هرمى ذاكرا الأقوام الذين أناخ عليهم الدهر وأبادهم ، ويبدأ بالأمم القديمه الغابره ، كالفرس الأوائل والأكاسره واليونانيين ، ثم ينتقل الى قبائل العرب البائده كطسم وجديس ، وعاد وجرهم وغيرهم من القبائل اليمانية والمضرية التى عاشت حينا من الدهر فى خفض وترف ورياسه ، ثم عفت وأصبحت أحاديث وأخبارا . وينتقل بعد ذلك الى العصر الجاهلى قائلا :

وأنفذت فى كليب حكمها ، ورمت * مهلهلا بين سمع الأرض والبصر .
(٢)
ولم تردّ على الضّليل صحته * ولا ثنت أسدا عن ربّها حجر .
(٣)
ودوّخت آل ذبيان واخوتهم * عبسا ، وغصت بنى بدر على النهر .

---

(١) طسم وجديس من قبائل العرب البائده . كان موطنهما باليمامة ، ويحكمهما ملك من طسم اسمه عطوق شديد الظلم والعسف ، وكان مصرعه بتدبير امرأة من جديس ، فكان فى ذلك ابادة القبيلتين . / المخطوط السابق ، لوحه ٨ .

جرهم : قبيلة يمانية هاجرت الى الحجاز ، وأصهر اليهم اسماعيل عليه السلام ثم بغوا وضلوا فأهلكهم الله . المرر : القوه .

(٢) الضليل : هو أمرؤ القيس ، ذهب يستعدى قيصر الروم على بنى أسد قتلة أبيه فهلك هناك .

(٣) بنو بدر : هما حمل بن بدر وحذيفة بن بدر من سادة ذبيان ، دهمتهما خيل عبس وهما على ماء اسمه جفر الهباءة وذلك أثناء حرب داحس والغبراء ، المصدر السابق ، لوحه : ٥٥ .

والحقت بعدىّ بالعراق علــــى (١) * يد ابنه أحمر العينين والشّعر .

وأهلكت ابر ونرا بابنــه درمـــت (٢) * بيزد جرد الى مرد فلم يحـــر .

والشاعر قد جعل القصيدة ميدانا لذكر ثقافته التاريخية الواسعـــه التى كانت من الروافد الأساسيه التى يجب أن يلمّ بها من يتولى الــــوزارة والكتابة كابن عبدون ، فنراه يفيض فى ذكر أيام العرب وحوادث الأشـــراف منهم وممن عاصرهم من الفرس وغيرهم ، ثم يتدرج الى العصر الاسلامى منـــذ بداية معاركته الأولى :-

يوم القليب بنو بدر فنوا وسعـى * قليب بدر بمن فيه الى سقـر .

ومزّقت جعفرا بالبيض واختلست * من غيله حمزة الظلام للجـزر .

وأشرفت نجبيب فوق قارعـــة * وألصقت طلحة الفيّاض بالعفـر .

وخضّبت شيب عثمان دما وخطـت * الى الزّبير ولم تستحى من عمـر .

ولا رعت لأبى اليقظان صحبتــه * ولم تزوّده الا الضّيح فى الخمر (٣) .

وأجزرت سيف أشقاها أبا حســن * وأمكنت من حسين راحتى شمـر .

---

(١) عدى بن زيد الشاعر قتله النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، وكان لعدى ولد اسمه زيد سعى بالنعمان لدى كسرى حتى قتله . لوحه : ٦٠ .

(٢) أبرويز بن هرمز من ملوك الفرس عذر أباه واستولى على العرش ثم كانـت نهايته على يد ولده شيرويه ، يزد جرد هو الملك الذى فر أمـــام المسلمين فى القادسيه وعقد حلفا مع الترك والصغد ولكنهم أسلمــوه فقتل بمرو . لوحه ٦٥ . ، يحور : يرجع .

(٣) هو عمار بن ياسر ، الضّيح : اللبن حيث طلب ماء فجئ بلبن فشربـــه وقتل بعد ذلك سنة ٣٦ هـ يوم صفين . لوحـه : ٦٨ .

وبعد عصر الراشدين يأتي لذكر حوادث العصر الأموي :-

وفي ابن هند وفي ابن المصطفى حسن (١) * أتت بمعضلة الألباب والفكر .

فبعضنا قائل ما اغتاله أحـــد * وبعضنا ساكت لم يؤت من حصر .

وأردت ابن زياد بالحسين فلم * يبوء بشسع له قد طاح أو ظفر .

وعممت بالنبي فودى أبي أنس (٢) * ولم ترد الردى عنه قنا زفر .

ولم تراقب مكان ابن الزبير ولا * راعت عياذته بالبيت والحجر .

واظفرت بالوليد بن اليزيد ولم * تبق الخلافة بين الكأس والوتر .

ثم يعرج بعد ذلك على العصر العباسي ذاكرا لكثير من عظمائهم الذين عصفت بهم يد الحدثان :

ولم تعد قضب السفاح نائية * عن رأس مروان أو أشياعه الفجر .

وأسلبت دمعة الروح الأمين على * دم بفخ (٣) لآل المصطفى هدر .

وأشرقت جعفرا والفضل ينظره (٤) * والشيخ يحيى بريق الصارم الذكر .

---

(١) ابن هند : معاوية بن أبي سفيان ، وفي البيتين اشارة الى ارتياب بعض المسلمين في ميتة الحسن بن علي ، واتهامهم معاويه بتدبيرها ليكون العرش من بعده لولده يزيد . / المصدر السابق ، لوحه : ٧٣ .

(٢) أبو أنس هو الضحاك بن قيس الفهري ، وزفر بن الحارث الكلابي من أصحابه . كان يدعو لابن الزبير . التقى بجيوش الأمويين بمرج راهط سنة ٦٤ هـ ودارت الدائره عليه فقتل وفر عنه زفر . / لوحه : ٨٠ .

(٣) فخ : موضع قريب من مكه ، قتل فيه ثلاثة من أبناء وأحفاد الحسن بن علي في زمن الخليفة المهدي العباسي / لوحه : ١١ .

(٤) يشير في هذا البيت الى مصرع البرامكه على يد الرشيد ، وجعفر والفضل هما ابنا يحيى البرمكي . وقصتهم مشهوره .

وأخفرت فى الأمين العهد وانتدبت (١) * لجعفر بابنه والأعبد الغدر .

وروّعت كلّ مأمون ومؤتمن * وأسلمت كلّ منصور ومنتصر .

وأوثقت فى عراها كلّ معتمد * وأشرقت بقذاها كلّ مقتدر .

وبعد هذه المقدمات التاريخية الطويلة يصل ابن عبدون الى غايته من القصيدة وهى رثاء بنى الأفطس فيقول :-

بنى المظفر والأيام مابرحت * مراحلا والورى منها على سفر .

سحقا ليومكم يوما ولا حملت * بمثله ليلة فى مقبل العمر .

من للأسرة أو من للأعنة أو * من للأسنة يهديها الى الثّغر .

من لليراعة أو من للبراعة أو * من للسماحة أو للنفع والضّرر .

أو دفع كارثة أو ردع آزفة * أو قمع حادثة تعيا على القدر .

ويح السّماح وويح البأس لو سلما * وحسرة الدين والدنيا على عمر (٢) .

سقت ثرى الفضل والعباس هامية * تعزى اليهم سماحا لا الى المطر (٣) .

ثلاثة ماارتقى النسران حيث رموا * وكلّ ماطار من نسر ولم يطر .

ثلاثة كذوات الدهر منذ نأوا * عنى ، مضى الدهر لم يربع (٤) ولم يجر .

---

(١) جعفر المذكور هو جعفر بن المعتصم الملقب بالمتوكل الخليفة العباسى تآمر عليه ولده المنتصر مع بعض العبيد وقتلوه . لوحه / ١٢٨ .

(٢) هو عمر المتوكل بن المظفر آخر أمراء بنى الأفطس .

(٣) الفضل والعباس هما ولدا المتوكل اللذان قتلهما المرابطون عند فتح بطليوس .

(٤) يربع : يقف / الصحاح (ربع) .

وهنا نلاحظ اختلاف نغمة الشاعر عن السرد التاريخى السابق ، ففى رثائه لقومه بنى الأفطس نجد مسحة خفيفة من الحزن تبدو من خلال حديثه عن صفاتهم المجيده ، وعزهم الباذخ الذى انهار بعد أن كانوا ملوكا على الأسرّة ، فرسان السيف والقلم ، تفيض أيديهم وأنفسهم كرما وسماحه .

فعلى هؤلاء تبكى الدنيا ، ويندب الشاعر المآثر التى خبرها عن قرب مرددا مستفهما بتفجّع :-

أين الجلال الذى غضّت مهابته * قلوبنا وعيون الأنجم الزّهر .
أين الاباء الذى أرسوا قواعده * على دعائم من عز ومن ظفر .
أين الوفاء الذى أصفوا شرائعه * فلم يرد أحد منهم على كدر .
كانوا رواسى أرض الله منذ نأوا * عنها استطارت بمن فيها ولم تقر .
كانوا مصابيحها فمذ خبوا عثرت * هذى الخليقة يالله فى سدر (١) .
من لى ولا من بهم ان أظلمت نوب * ولم يكن ليلها يفضى الى سحر .
من لى ولا من بهم ان أطبقت محن * ولم يكن وردها يفضى الى صدر .
من لى ولا من بهم ان عطلت سنن * وأخفيت ألسن الآثار والسّير .

وتظهر من خلال هذه الأبيات براعة الشاعر فى استعمال التكرار المفضى الى معان رثائية متعددة ومبتكره تضع المرثيين فى ذروة الكمال الانسانى ، وبخاصة تلك الأوصاف المعنويه التى يخرجها الى حيز الماديه فهم الذين أرسوا قواعد الاباء ، وصفوا شرائع الوفاء ومناهله .

وقد لعب خيال الشاعر دوره فى ابراز صور العظمة التى تفرد بها بنو الأفطس فهم : أوتاد الأرض ورواسيها ، وبفقدهم تزلزلت أركانها ، وهم

---

(١) السدر : تحيّر البصر / المصدر نفسه (سدر) .

مصابيح هداها ، فلما انطفأت ترددت الخليقة فى دياجير الحيرة والاضطراب وتكالبت عليها المحن التى لا تنتهى ، وازاء ذهاب فضائل هؤلاء الأمـــــراء لا يجد شاعرهم أوسع من الصبر :-

على الفضائل الا الصبر بعدهـــم * سلام مرتقب للأجر منتظـــر .

وبعد ، فلعل ابن عبدون وقومه بنى الأفطس مدينون بشهرتهم الـــى هذه القصيده التى طار ذكرها فى آفاق الأدب العربى ، وكثر الثناء عليهـــا وبولغ فى تقديرها ، فالمراكشى يصفها بأنها القصيدة الغراء ، والعقيلـــة العذراء التى " أزرت على الشعر ، وزادت على السحر ، وفعلت فى الألبـــاب فعل الخمر ، فجلّت عن أن تسامى ، وأنفت من أن تضاهى ، فقل لهـــا النظير ، وكثر اليها المشير ، وتساوى فى تفضيلها وتقديمها باقل وجرير ... سلك فيها أبو محمد - رحمه الله - طريقة لم يسبق اليها ، وورد شرعة لـــم يزاحم عليها ، فلذلك قل مثلها لا بل عدم ، وعزّ نظيرها فيما توهّم ولا علم "[(١)] .

ومما لا جدال فيه أن القصيده ذات أسلوب رصين مشرق رشيقة الألفاظ جيـدة المعانى والأفكار ، موشحة بالبديع والترصيع ، ولكن - فيما يبدو - أن تفضيلها لم يأت من هذا الجانب ، وانما من جانب الطريقة التى اتبعها الشاعر فى نظم الحوادث التاريخيه التى تدل على علم واسع ، وثقافة راسخه . أضف الـــى ذلك أن الأدباء والنقاد فى عصر ابن عبدون كانوا يحتفون بالآثار الأدبيـــه المنثورة والمنظومة لا لقيمتها الفنية ، وانما لما تحوى من اشارات تاريخيـــه تفسح المجال للشرّاح والمفسرين ليبدءوا فيها ويعيدوا . وخير مثال على هذا القول رسالتا ابن زيدون - المعاصر لابن عبدون - الجديّة والهزلية فقـــد

---

(١) المعجب : ١٢٨ .

شرحت كل منهما بسفر مستقل كما برزت فى الأندلس فى هذا العصر الأراجيز التاريخيه، حيث ينظم الشاعر حوادث التاريخ شعرا فى قنوات وبحور متعدده وأشهر من يذكر فى هذا المجال الشاعر الراجز أبو طالب عبد الجبار الذى[2] نظم أرجوزة طويله بدأها بالتحميد ثم التفكير فى ملكوت الله ثم بدء الخليقة[3] من لدن آدم - عليه السلام - مرورا بالرسل الكرام مفصلا أخبارهم ثم الخلفاء الأربعه وسيرتهم، فبنى أميه - فالعباسيين، ثم يعرج على الأندلس فيذكر حكم الأمويين ثم ملوك الطوائف فالمرابطين حتى حكم على بن يوسف بن تاشفين الذى تولى الحكم سنة خمسمائه من الهجره، وقد ذكر صاحب الأرجوزه[4] كلامه فيها بأنه "فى معنى ماتضمنته كتب التاريخ، قطفت عيون زهرها، والتقطت مكنون دررها، واقتصرت على أقلها دون أكثرها مما لا يسع جهله، وحذفت كلّ حديث يتغلغل، وخبر بتسلسل، الا ما زدت حلاه رونقا، ومجتلاه تألقا ....".

---

(١) شرح الرسالة الجدّيه خليل بن أيبك الصفدى بكتاب سماه "تمام المتون" وشرح الرسالة الهزليه جمال الدين بن نباته المصرى بكتاب سماه "سرح العيون" وهما محققان مطبوعان.

(٢) من أهل جزيرة شقر بنواحى بلنسية، كان يعرف بالمتنبى، من أبرع أهل وقته أدبا، وأعجبهم مذهبا وأكثرهم تفننا فى العلوم، وأجاده فى المنثور والمنظوم. ولم تمدنا المصادر بتفاصيل عن حياته / انظر الذخيره: ق١، ج٢، ص ٩١٦، الخريده - قسم شعراء المغرب والأندلس: ٢/ ١١٠.

(٣) انظر الذخيره: ق١ ج٢ ص ٩٢٠ - ٩٤٤.

(٤) المصدر السابق ص ٩١٩.

ولعل أصول هذا الاتجاه الجديد في الشعر ترجع الى المشرق ، حيث كان أبو تمام يضمن قصائده شذرات من التاريخ ثم توسع في ذلك الملك الشاعر عبد الله بن المعتز فنظم أرجوزته التاريخية الشهيرة (١) التى ذكر فيها أحوال الخلفاء العباسيين ، والمتلاعبين بالخلافة في منتصف القرن الثالث الهجري ووصف فتنهم ومنكراتهم بشئ من التفصيل .

وفي تقديري ان الذين أعجبوا بقصيدة ابن عبدون كان اعجابهم بالشاعر لا بالشعر ، فالقصيدة تخلو من العاطفة الصادقة الفياضة بالألم والحزن الذى يمثل الروح في قصائد الرثاء .

فجاء تأثيرها ضعيفا في النفوس اذا ماقيس بتأثير قصائد شعراء المعتمد السابقة ، التى تفيض بالأشجان والحسرات والصدق لأنها صادرة عن أنفسهم واحساسهم بعكس ابن عبدون الذى كان يصدر عن ثقافته ولسانه ولذا فلاعجب أن نراه بعد هلاك قومه بنى الأفطس يعمل في بلاط أعدائهم المرابطين .

ولعل أبيات القصيدة الأخيرة تدل على أن هدف شاعرنا كان اظهار البراعة والتفوق الأدبى وذلك عندما يقول :

قرطت آذان من فيها بفاضحة * على الحسان حصى الياقوت والدّرر .

سيارة في أقاصى الأرض قاطعة * شقا شقا هدرت في البدو والحضر ..

مطاعة الأمر في الألباب قاضية * من المسامع مالم يقض من وطر .

---

(١) ديوان ابن المعتز : ٤٨١ - ٥٠٥ .

نشأة امارة بنى صمادح فى المريّـــة :- (١)

لمّا سقطت الدولة الأموية فى الأندلس استبد موالى المنصور بن أبى عامر بحكم مدينة المرية وماجاورها ، ولمع فى عصر الطوائف اسم الفتى (خـــيران العامرى) قائدا وسياسيا وأديبا ، استطاع أن يحافظ على مافى يده حـــتى توفى ثم خلفه أخوه الفتى (زهير العامرى) وكان خطيرا داهية شديـــــد البأس ، ووسّع امارته حتى بلغت حدود طليطله شمالا . ثم قرر غزو غرناطــــه على أثر موت أميرها ، فسار اليها بجمع كبير ولكنه هزم وقتل فى هذه الوقعـه . فغدت المريه بلا حاكم ، فاجتمع وجوه أهلها على استدعاء حاكم بلنسية آنذاك ــ عبد العزيز ابن أبى عامر لكونه صاحب الحق فى ميراث موالى أسرته ، فجـــاء وضبط أمورها ، ولكنه اضطر الى العوده الى بلنسية ، ووكل أمر تدبير المريــه الى وزيره أبى الأحوص معن بن صمادح التجيبى كنائب له فيها . ولكن هـــذا الوزير سرعان ماأخذ يمهد ويخطط للاستئثار بالسلطة ، والاستبداد بالمريـــه ، فتم له ماأراد وجاهر بخلع الطاعة لعبد العزيز ، وأيده الناس فى ذلك . وتـــم هذا الأمر فى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائه .(٢)

قال ابن حيان عن ابن صمادح " .... فكان شر خليفة استخلف ، لـــم يكد يوارى وجهه عبد العزيز عنه حتى خان الأمانة ، وطرده من الامارة ، ونصب

---

(١) مدينة حصينة بالأندلس ، بناها عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٤ هـ تقــع على شاطئ البحر المتوسط ، وتكثر فيها الأوديه الجاريه التى تسقـــى بساتينها ، وتشتهر بصناعات الحرير والمعادن . وكانت مراكب التجـــار تقصدها من الشام ومصر . / الروض المعطار (المريه) .

(٢) البيان المغرب : ١٦٨/٣ .

له الحرب ، فضرب فى اللؤم ماشاء ، وتنكب ابن أبى عامر التوفيق لاستدعائه الذئب الأزل على ثلته ، وستدعى الذئب أظلم . وكان من العجب أن تملاها ابن صمادح ، وخلفها ميراثا فى عقبه " . (١)

واستمر معن فى الحكم زهاء عشرة أعوام ثم توفى وخلفه ولده محمد الذى اتخذ على عادة أمراء الطوائف - الالقاب الفخمه فتلقب بالمعتصم بالله الواثق بفضل الله ، ولم يكن المعتصم من رجال الحرب الا انه استطاع أن يحافظ على امارته ضد الثورات الداخليه التى كان يحركها عبد العزيز بن أبى عامر والحروب الخارجيه مع المعتمد بن عباد الذى استطاع أن ينتزع بعض أراضى الاماره فيما بعد . وثابت للمعتصم أطماع فى الاستيلاء على أراضى جارته غرناطه وذلك بتدبير اليهودى يوسف بن النغراله وزير غرناطه . فاستولى على بعض حصونها الشرقيه ، ولكن المؤامره كشفت وقتل الوزير اليهودى وفشلت الخطه (٢) . على أن أهم ماعنى به هو تشييد القصور الفخمة وحماية دولة الشعر والأدب فقد شيد قصره الشهير المعروف "بالصمادحيه" حيث يشرف على البحر وتحيط به الجنات والبساتين ومنه يستطيع مشاهدة مدينة المرية كلها . وفى بلاط هذا القصر كانت تقوم جامعة أدبيه وعلميه تنافس بلاط اشبيليه وبطليوس (٣) . يقول ابن بسام . : " ولم يكن أبو يحيى (المعتصم) هذا من فحولة ملوك الفتنة ، أخلد الى الدعة واكتفى بالضيق من السعة ، واقتصر على قصر يبنيه ، وعلق يقتنيه ، وميدان من اللذة يستولى عليه

---

(١) الذخيره : ق ١ ، ج ٢ ، ص ٧٣١ .

(٢) التبيان : ٥٣ .

(٣) الذخيره : ق ١ ، ج ٢ ، ص ٧٣٢ .

ويبرز فيه غير أنه كان رحب الفناء ، جزل العطاء ، حليما عن الدماء والدهماء ، طافت به الآمال ، واتسع في مدحه المقال ، وأعملت الى حضرته الرحال ولزمه جملة من فحول شعراء الوقت ......" .

وقال ابن خاقان : "ملك أقام سوق المعارف على ساقها ، وأبدع في انتظام مجالسها واتساقها .... لم تخل أيامه من مناظره ولا عمرت الا بمذاكره ومحاضره ، الا ساعات أوقفها على المدام ..... وكانت دولته مشرعا للكرم نفسقت فيها أقدار الأعلام ، وتدفقت بحار الكلام ....." .(١)

وقد كان المعتصم وبنوه جميعا ، معز الدولة ، ورفيع الدولة ورشيد الدولة من أهل الأدب والشعر ، كما كانت ابنته أم الكرام من أشهر شاعرات العصر ، (٢) وبالاضافة الى الشعر ورعاية الشعراء فقد كان للمعتصم يوم من أسبوع يخصصه للعلماء والفقهاء يتناظرون فيه بمسائل الفقه والتفسير (٣) والحديث ونتيجة لهذه الحياة الوادعة لم يكن المعتصم من المتحمسين لاستدعاء المرابطين ، ولكنهم لما عبروا الى الأندلس شارك في استقبالهم ونال حظوة عند ابن تاشفين استغلها في الطعن على المعتمد وغيره ، وفي سنة أربع وثمانين وأربعمائه توجهت القوات المرابطيه الى المريه لاكمال مشروعها في ازالة الامارات المفككه المنحله فحاصرتها ، وكان المعتصم آنذاك يعاني من مرض كان خاتمة حياته ، فقال عبارته المشهورة "نغّص علينا كلّ شيء حتى الموت" (٤) وهكذا هلك المعتصم بعد حكم دام أربعين سنة ، ودخلت المريه تحت راية المرابطين .

---

(١) قلائد العقيان : ٥٣ .
(٢) انظر أخبارهم وأشعارهم في الحلة السيراء : ٧٨ - ٩٦ .
(٣) نفح الطيب : ٤/ ١٧٠ .
(٤) الخريده : ٢/ ٨٨ .

وقد رثى هذه الامارة وأميرها الشاعر أبو الحسن بن الحاج (١) فى مخمسة منها قوله بعد الغزل (٢) :-

يارب أرض قد خلت قصورها * وأصبحت آهلة قبورها .
يشغل عن زائرها مزورها * لا يأمل العودة من يزورها .
هيهات : ذاك الورد ممنوع الصدر .

تنتحب الدنيا على ابن معن * كأنها ثكلى أصيبت بابن .
أكرم مأمول ولا أستثنى * أثنى بنعماه ولا أشنى .
والروض لا ينكر معروف المطر .

عهدى به والملك فى ذماره * والنصر فيما شاء من أنصاره .
يطلع بدر التم من أزراره * وتكمن العفة فى ازاره .
ويحضر السؤدد أيان حضر .

قل للنوى جد بنا انطلاق * مابعدت مصر ولا العراق .
اذا حدا نحوهما اشتياق * ومن دواء العلل الفراق .
ومن نأى عن وطن نال وطر .

---

(١) هو ذو الوزارتين جعفر بن ابراهيم بن أحمد بن سعيد بن الحاج . أصله من لورقه (مدينة على البحر تجاور المريه) ، وهو من بيت جلالة ووزاره . كان مقدما فى النظم والنثر ، ومن رؤساء الأدباء ، وكانت له صلة بالمعتصم بن عباد وقد عمر طويلا وتوفى بعد سنة خمسائه . / انظر : المطرب : ١٣٧ ، بغية الملتمس : ٢٤١ ، الخريده : ٢/ ١٤١ .
(٢) نفح الطيب : ٤/ ١٠٤ - ١٠٥ .

والمخمسة فيما أحسب تقصد الى اظهار شاعرية كاتبها فى المقام الأول ، فعاطفة الحزن والتأثر النفسى بالحدث لا تكاد تظهر ، والصور الرثائيه باهتـه لا روح فيها ، ومن العجب أن الشاعر بدأ هذه المخمسة بالغزل ووصف المحبوب وليالى الأنس به ثم مكابدة الشوق :-

من لى بمجبول على ظلم البشـر * صحّف فى أحكامه حاء الحـور .
مرّبنا يسحب أذيال الخفـر * ماأحسد الظبى له اذا نفـر .
وأشبه الغصن به اذا خطـر .

كافورة قد طرزت بمسـك * جوهرة لم تمتهن بسـلك .
نبذت فيها ورعى ونسكـى * بعد لجاجى فى التقى ومحكى .
فاليوم قد صح رجوعى واشتهـر .

سقى الحيا عهدا لنا بالطـاق * معترك الألباب والأحـداق .
وملتقى الأنفس والأشـواق * أيأس فيه الدهر عن تلاقـى .
وربما ساء دهـر ثم سـرّ .

وهكذا يستمر على هذا المنهج فى خمسة المقاطع الأول من القصيده ثـم يعرج على رثاء ابن صمادح كنوع من الواجب يراه الشاعر لمن أحسن اليـه " والروض لا ينكر معروف المطر " .

وبعد الرثاء يذكر رحلته وركوبه البحر ميمما شطر بغداد فى أربعـة مقاطع :

يوم عدل الملك الرضـىّ * الهاشمىّ الطاهر النقـىّ .
والمجتبى من ضئضئ[1] النـبىّ * من ولد السفّاح والمهـدىّ .
فخـر معدّ ونـزار ومضـر .

---

(١) الضئضئ : الأصل . / الصحاح : (ضأضأ) .

ولا نلاحظ فى مفارقته للديار التى ذاق حلاوة العيش فيها أى أسف أو حنين بل نجده قد ملّها الى مغادرتها : "ومن نأى عن وطن نال وطر" .

أما أسلوب القصيده فهو سهل فيه رقة وعذوبه . وتبدو الصنعة البلاغيه فيه واضحة ولكنها لا تشوبه بتعقيد ولا توعر .

الفصل الرابع
رثاء الأندلس عامــــة

سنتناول في هذا الفصل القصائد التي قيلت في رثاء الاندلس الاسلامية عامة، وتسير هذه القصائد في مسارين : المسار الأول يمثل القصائد التي قيلت بعد سقوط عدد كبير من قواعد الأندلس ألهامة بيد النصارى، وذلك في الفترة الممتدة من بداية القرن السابع الهجري الى مابعد منتصفه، وهي فترة الغروب الاخير لدولة الموحدين في المغرب والاندلس، وقد سقطت خلالها : قرطبة واشبيلية وجيان وبلنسيه وبطليوس وغيرها كثير[1]. وانحصر الوطن الاندلسي الذي كان يشمل نصف الجزيرة الاسبانية في رقعة صغيرة هي مملكة غرناطة التي لم تكن بعيدة عن الخطر الداهم ايضا . هذه الحالة الخطيرة اكدت في النفوس وقوع الانهيار النهائي للصرح الشامخ، فتفجرت ينابيع البكاء ونظمت قصائد الرثاء .

أما المسار الثاني فيمثل القصائد التي قيلت بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين في الاندلس في نهاية القرن التاسع الهجري حيث عادت الاندلس كلها دار كفر، واكره المسلمون على اعتناق النصرانية .

ومن اشهر قصائد المسار الاول نونية ابى البقاء الرندى[2] التي قالها عندما تنازل ابن الاحمر محمد بن يوسف ملك غرناطة عن عدد كبير من

---

(١) غنان، نهاية الاندلس: [illegible] ٢٠ .

(٢) هو ابو البقاء او ابو الطيب صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن شريف الرندي (نسبة الى مدينة رنده) ، واصله من قبيلة نفزه البربرية كان فقيها حافظا وفرضيا متفننا في معارف شتى، بلغ الذروة في التصرف بمنثور الكلام ومنظومه . كان يتردد على غرناطة ويمدح بني الاحمر ويلتقي بوزيرهم لسان الدين بن الخطيب، ومن آثاره كتاب " الوافي في نظم القوافي" وكتاب " روضة الانس ونزهة النفس" وتوفي سنة ٦٨٤هـ . انظر الاحاطة: ٣٦٠/٢ ، رضوان الداية، تاريخ النقد الادبي في الاندلس: ٤٥ ، عبد الله كنون، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية: ٦/ ٢٠٥ – ٢٢٠ .

الحصون والمدن المسورة بلغ اكثر من مائة وخمسين موضعا[1] للنصارى مقابل ان يحتفظ بعرش غرناطة ولو تحت سيادة فرناند و ملك النصارى القشتاليين وكان ذلك فى سنة خمس وستين وستمائة، وكانت هذه الخطوة من قبل ابن الاحمر ليست الاولى من نوعها بل سبقتها اخرى فى سنة ثلاث واربعين وستمائة حيث قدم الجزية وسلم عددا من المدن واشترك مع النصارى فى حصار المدن الاسلامية واهمها اشبيليه، وقد اشرنا الى ذلك فى فصل سابق ولعل ابن الاحمر كان يقصد من معاهداته هذه ان تتاح له فرصة الاستعداد وانشاء القوة التى تمكنه من مواجهة النصارى، وذلك بجمع الحشود التى تلجأ اليه فارة من المدن الساقطة، وعن طريق طلب النجدة من المرينيين فى المغرب الذين عبرت كتائبهم فعلا وجاهدت فى سبيل الله . ولكن النصارى كانوا يرون فى ابن الاحمر الخصم الذى يجب تحطيمه واذلاله بسرعة قبل ان يكون له شأن ، ولذلك شددوا الضغط عليه فتقهقر امامهم وشرب الكأس المرة حتى الثمالة .

يقول الرندى[2] :

لكل شيء اذا ماتم نقصان	فلا يغر بطيب العيش انسان
هى الامور كما شاهدتها دول	من سره زمن ساءته ازمان
وهذه الدار لاتبقى على احد	ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتما كل سابغة	اذا نبت مشرفيات وخرصان[3]
وينتضى كل سيف للفناء ولو	كان ابن ذى يزن والغمد غمدان[4]
اين الملوك ذوو التيجان من يمن	واين منهم اكاليل وتيجان
واين ماشاده شداد فى ارم	واين ماساسه فى الفرس ساسان

---

(١) الذخيرة السنية: ص١٢٧ .

(٢) النفح : ٤٨٧ - ٤٨٨ .

(٣) المشرفيات : السيوف، الخرصان : جمع خرص وهو الرمح . اللسان (شرف، خرص) .

(٤) غمدان : قصبة صنعاء، وفيها قصر ابن ذى يزن . البكرى، معجم ما استعجم (غمدان) .

واين ماحازه قارون من ذهب ... واين عاد وشداد وقحطان
اتى على الكل امر لا مرد له ... حتى قضوا فكان القوم ماكانوا
وصار ماكان من ملك ومن ملك ... كما حكى عن خيال الطيف وسنان
دار الزمان على دارا وقاتله ... وام كسرى فما آواه ايوان
كأنما الصعب لم يسهل له سبب ... يوما ولا ملك الدنيا سليمان
فجائع الدهر انواع منوعة ... وللزمان مسرات واحزان

يفتتح الشاعر قصيدته بمقدمة تنبض بالحكمة ، والمعرفة اليقينية بالحقيقة الخالدة وهي ان لابد لكل شيء من نهاية تودى به مهما بلغ من العظمة والشموخ ، فحال الدنيا مجبول على الكدر ، وصفوها قليل مهما طال امده ، والدهر موكل بتحطيم ذوى الشأن على مر العصور والايام ويسرد لنا الشاعر نماذج من الذين سل عليهم الدهر سيفه ، فاصبحوا احاديث وذكريات في زوايا التاريخ بعد ان ملأوا الدنيا حينا من الوقت باخبارهم واكاليلهم وتيجانهم ، فاين ملوك اليمن ؟ واين ملوك الفرس اهل العمران والسلطان واين قارون ؟ . . . . وهكذا يستمر في تعداد فواجع الدهر المنوعة حتى يصل الى ماده جزيرة الاندلس . ولعل هذا التسلسل التاريخي الذى يورده الشاعر يذكرنا بصنيع ابن عبدون في قصيدته البسامة التي مرت بنا في الفصل السابق ، ولعل مانالته تلك القصيدة من شهرة جعلت ابا البقاء يستضيء بنورها في ابيات قصيدته الاولى وبخاصة عند حديثه عن فعل الدهر وتقلب الايام ، وذكر الاقوام انفسهم ، كقوله : " دار الزمان على دارا وقاتله " .

وقول ابن عبدون : هوت بدارا وفلت عرب قاتله .

ويقول ابو البقاء :

يمزق الدهر حتما كل سابغة ... اذا نبت مشرفيات وخرصان

ويقول ابن عبدون :

فالدهر حرب وان ابدا مسالمة ... والبيض والسود مثل البيض والسمر

فالتشابه واضح في المعاني والالفاظ، وربما كان لوحدة الموضوع وهو رثاء دولة كبرى او دول - اثر في هذا التشابه . فالرندى يرثي الاندلس كلها وابن عبدون يرثي عصر الطوائف كله ممثلا في بني الافطس . وعندما يصل ابو البقاء الى غايته من القصيدة وهي رثاء الاندلس يبكي بحرارة مصير الاسلام ومعاقله الغاربة قائلا :

وللحوادث سلوان يهونها	وما لما حل بالاسلام سلوان
دهى الجزيرة امر لاعزاء له	هوى له احد وانهد ثهلان
اصابها العين فى الاسلام فامتحنت	حتى خلت منه اقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ماشأن مرسية	واين شاطبة ام اين جيان
واين قرطبة دار العلوم، فكم	من عالم قد سما فيها له شان
واين حمص وماتحويه من نزه	ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كن اركان البلاد فما	عسى البقاء اذا لم تبق اركان
تبكي الحنيفية البيضاء من اسف	كما بكي لفراق الالف هيمان
على ديار من الاسلام خالية	قد اقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما	فيهن الا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة	حتى المنابر ترثي وهي عيدان
ياغافلا وله في الدهر موعظة	ان كنت في سنة فالدهر يقظان
وماشيا مرحا يلهيه موطنه	أبعد حمص تغر المرء أوطان
تلك المصيبة انست ماتقدمها	ومالها مع طول الدهر نسيان

ان مصيبة الاندلس لاتشبهها مصيبة من حيث الضخامة والشمول ، فهي تمزق لشعب عريق ثابت الجذور في ارض افتتحها وغرس فيها حضارة الاسلام العظيم ، التى اثمرت واينعت في شتى المجالات العلمية والادبية والعمرانية ومن هنا كان الكيد الشديد لهذا الاسلام حتى اصيب في النهاية بما لاعزاء له ، والشاعر يتلمس اسباب هذه المحن فيرجعها الى العين الحاسدة التى اصابت قواعد الاندلس واركانها فابتليت باهل الصليب الذين جاسوا خلالها وعمروها بالكفر، فالمساجد قد عادت كنائس تقرع فيها النواقيس

والمحاريب والمنابر تنوح وتئن من جور الصلبان المنصوبة فوقها . هذه الصورة القاتمة لماآلت اليه مدن الاندلس العظمى - قرطبة ، بلنسية ، مرسية ، اشبيلية عملت عملها في قلب الشاعر ونفسه ، ولكنه لم يستسلم لاحزانه بل فزع الى طلب النجدة ، ورفع صوته مناديا اخوانه المسلمين من اهل المغرب :

ياراكبين عتاق الخيل ضامرة	كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة	كأنها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعة	لهم باوطانهم عز وسلطان
اعندكم نبأ من اهل اندلس	فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم	قتلى واسرى فما يهتز انسان
ماذا التقاطع في الاسلام بينكم	وأنتمُ ياعباد الله إخوان
الانفوس ابيات لها همم	أما على الخير أنصار وأعوان

ولهجة الشاعر في استصراخه فيها حدة وصرامة ، لانه يخاطب قوما يقع عليهم عبء الدفاع عن جيرانهم واخوانهم في الاندلس ، وهو ينكر عليهم تقاعسهم عن الجهاد ، وتفضيلهم لعيش الدعة والامان مع سماعهم اصوات الاستغاثة من المستضعفين . وبخاصة انهم فرسان وشجعان يقدرون على تلبية النداء .

ثم يشرح بعد ذلك ماحل باولئك المستضعفين من الذل والعذاب بحيث لايبقى بعد ذلك عذر لمتقاعس :

يامن لذلة قوم بعد عزهم	احال حالهم كفر وطغيان
بالامس كانوا ملوكا في منازلهم	واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لادليل لهم	عليهم من ثياب الذل الوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم	لهالك الامر واستهوتك احزان
يارب ام وطفل حيل بينهما	كما تفرق ارواح وابدان

وطفلة امثل حسن الشمس اذ طلعت   كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة   والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد   ان كان في القلب اسلام وايمان

ان روعة هذه القصيدة تكمن في صدق عواطف الشاعر واحاسيسه الانسانية، فجاءت قصيدته قطعة من نفسه، يحس القارئ عند قراءتها انه انتقل الى ذلك الجو، ووقف امام تلك المآسي الدامية يتأملها بغصة ومرارة، فالناقوس يجلجل على انقاض الاذان الصامت والمساجد الشامخة تتقد حسرة وهي تحول الى كنائس، وقد زاد من تأثير هذه القصيدة في النفوس ما اشتملت عليه من شعور اسلامي فياض يحرك النفوس ويدفعها الى نجدة البلاد واهلها، وبخاصة عندما يذكر بكاء الاسلام لفراقه قواعده التي الفها والفته، او عندما يصف المشهد الحي لحالة اهل الاندلس حين اصبحوا في قبضة الاعداء، فقد غدوا عبيدا يباعون بعد السيادة ناهيك عن القتل والاسر، وهتك الاعراض المصونة . والمعاني الرثائية والصور في هذه القصيدة مطروقة من قبل في شعر رثاء الدول في الاندلس ولكن اسلوب الشاعر العذب الذي يميل الى الحماس والنزعة الخطابية وطريقة عرضه للافكار موشحة بظلال كئيبة من الحزن، كل هذه الاسباب هي التي خلدت هذه القصيدة واكسبتها الشهرة على مر الاجيال . ولشهرة هذه القصيدة وذيوعها فقد زيدت فيها ابيات كثيرة فيما بعد . وقد نبه المقري[1] الى ذلك بقوله ـ بعد ان سرد القصيدة ـ :

" انتهت القصيدة الفريدة، ويوجد بايدي الناس زيادات فيها ذكر غرناطة وبسطة وغيرهما مما اخذ من البلاد بعد موت صالح بن شريف وما اعتمدته منها نقلته من خط من يوثق به على ماكتبه، ومن له ادنى ذوق علم ان مايزيدون فيها من الابيات ليست تقاربها في البلاغة، وغالب ظني ان تلك الزيادة لما اخذت غرناطة وجميع بلاد الاندلس، اذ كان اهلها يستنهضون همم الملوك بالمشرق والمغرب، فكان بعضهم لما اعجبته قصيدة صالح بن شريف زاد فيها تلك الزيادات . . . . . " .

---

(١) النفح : ٤/٤٨٨ .

وقد عرض لهذا النص ونص آخر من كلام المقرى في وصف الرندي الاستاذ محمد عبدالله عنان ، واستشف منهما ان المقرى قد وهم في تعيين العصر الذي قيلت فيه هذه القصيدة ، يقول[1] : " وقد التبس الامر على المقرى في تعيين العصر الذي قيلت فيه هذه القصيدة والذي عاش فيه ناظمها صالح بن شريف ، فوصفه بانه خاتمة ادباء الاندلس ، وذكر في نفح الطيب ان ابياتا اخرى اضيفت اليها تشتمل على ذكر بسطة وغرناطة وغيرهما ليست من نظم صاحبها لانه توفي قبل سقوطها (اي غرناطة) مما يدل على اعتقاد المقرى بان ابا الطيب عاش في اواخر ايام مملكة غرناطة (اواخر القرن التاسع الهجري) . بيد انه واضح من سياق القصيدة وذكر القواعد الاندلسية التي تبكيها وهي بلنسية ومرسية وشاطبة وجيان واشبيلية ، وهي التي سقطت كلها في يد النصارى بين سنة ٦٣٥هـ و ٦٥٠هـ ، ان الشاعر قد عاش في هذا العصر . ومن جهة اخرى فقد ذكر صاحب الذخيرة السنية صراحة انها نظمت حين نازل ابن الاحمر للنصارى سنة ٦٦٥هـ عن عدد كبير من القواعد الاندلسية . وقد توفي الرندي بعد هذه الاحداث بعشرين عاما في سنة ٦٨٤هـ ."

والمدقق فيما قاله الاستاذ عنان يرى ان المقرى برىء مما اتهمه به فوصف المقرى للرندي بانه[2] " خاتمة ادباء الاندلس " لا يلزم على الاطلاق ان يكون الموصوف بذلك خاتمة او آخرا ، فهذا الوصف يطلقونه في كل عصر على الفضلاء والمبرزين من الادباء والعلماء فيقولون خاتمة العلماء وبقية اولي الفضل ، وآخر قضاة العدل وغير ذلك ، ثم ان المقرى نقل هذا الوصف عن[3] ابن عبدالملك المراكشي ولم يبتدعه ابتداعا ، ومن ناحية اخرى فان عنان يرجع الضمير في كلمة (سقوطها) الواردة في نصه الى غرناطة ، وهذا

---

(١) نهاية الاندلس : ٥٠ .
(٢) ازهار الرياض : ١/٤٧ .
(٣) الذيل والتكملة : بقية السفر الرابع : ١٣٧ .

اعتساف منه لتأييد رأيه بما لم يقله المقرى اولا ، والضمير يرجع على كل ماذكر في النص وليس على غرناطة وحدها ثانيا .

اما عن امر الزيادات في هذه القصيدة فاننا نجد الشهاب الخفاجي الذى عاش من (٩٧٧ - ١٠٦٩ هـ) يترجم لمن يسميه بالسيد يحيى القرطبي[(١)] وماكان من وقعة الاعداء بالمسلمين واسر يحيى وارساله هذه القصيدة الى السلطان سليمان العثماني[(٢)] مستنجدا وناعيا حال الاندلس، وقد اورد الشهاب القصيدة مزيدا عليها واحدا وعشرين بيتا عما في نفح الطيب ولم يشر لنسبتها الى ابى البقاء الرندى ، والذى يبدو ان يحيى القرطبي هذا شهد السقوط النهائي للاندلس، وذهاب عاصمتها الاخيرة (غرناطة) وفتك النصارى بالمسلمين واجبارهم على التنصير، فاضاف هذه الزيادة التى ذكر فيها غرناطة وبسطه ومالقه وغيرها من مدن مملكة بني الاحمر، ثم وجه القصيدة الى السلطان سليمان راجيا مساعدته . ولعل يحيى القرطبي لم يقصد نسبة القصيدة الى نفسه ، لانه لامجال للفخر بذلك في تلك الظروف العصيبة ، وانما رأى بلاغة القصيدة وعمق تأثيرها في النفوس، بالاضافة الى ذكرها لعدد من القواعد الاندلسية الذاهبة ، فاكمل سلسلة هذه القواعد متحسرا عليها وعلى مافيها من العلماء والمعالم الاسلامية التى ازيلت ، ثم اضاف في آخرها عدة ابيات في الحث على الجهاد والترغيب فيه فرسم بذلك صورة متكاملة لما اصبحت عليه الاندلس ووضعها بين يدى الخليفة العثماني ليوقفه على الواقع المر .

وممن تعرض لرثاء الاندلس في هذه ـ اى القرن السابع الهجرى ـ حازم القرطاجني[(٣)]

---

(١) ريحانة الالباء: ١/٣٧٠ .

(٢) هو سليمان بن سليم خان العثماني ، ولي سنة ٩٢٦هـ، وتوفي ٩٧٤هـ وهو السلطان الحادى عشر من آل عثمان . الشذرات: ٨/٣٧٥ .

(٣) هو حازم بن محمد بن حسن بن خلف بن حازم الانصارى القرطاجني يكني ابا الحسن ، وهو من قرطاجنة الاندلس لا من قرطاجنة تونس. ولد سنة ٦٠٨هـ، تعلم على والده ثم على شيوخ مرسيه حتى غدا فقيها =

في مقصورته[1] التي مدح بها المستنصر بالله السلطان الحفصي في تونس ويستهلها بذكر ماكانت عليه الاندلس من القوة والمنعة بفضل الموحدين اسلاف الحفصيين رهط الممدوح . يقول[2] :

قادوا الى اندلس كتائبا — أمامها النصر العزيز قد قدى[3]
وصبحوا الاراك بجيش غطفى — آذيه اذ فنش لما ان غطا[4]
فلم يدع جهادهم للشرك من — دار ولم يترك لهم من مدرى[5]
ثم دعاهم ربهم فابتدروا — الى محل القرب منه والرضى

وبرحيل هؤلاء المجاهدين عن الدنيا تبدل الحال ، وقل النصير واصبحت الاندلس فريسة سهلة للاعداء .

واصبحت من بعدهم فريسة — لمن بغى ، وفرصة لمن بعا[6]
فانشأت ايدى الجياد فوقها — غيماكثيفا غير شفاف الغمى[7]

= مالكيا ، نحويا بصريا واديبا شاعرا ، ومن شيوخه ابو علي الشلوبين وروى عنه جماعة يقاربون الفا . رحل الى مراكش بعد سقوط قرطبة سنة ٦٣٣هـ ، ثم تركها الى تونس حيث المستنصر الحفصي قبلة الادباء والعلماء وظل في كنفه الى ان توفي سنة ٦٨٤هـ . ومن آثاره كتاب منهاج البلغاء وسراج الادباء ، ديوان شعر ، ورسائل في النحو وغيرها . انظر السيوطي ، بغية الوعاة (١ : ٤٩١) ، المكناسي درة الحجال (١ : ٢٥٤) ، منهاج البلغاء (ص ٥٣ - ٥٤) .

(١) المقصورات : من المطولات في الشعر العربي ، تكون على الروى المقصور وتكون في الغالب من بحر الرجز ، وتحتوى على عدة اغراض شعرية الى جانب غرضها الرئيسي . انظر مهدى علام ، حوليات كلية الاداب (عين شمس) مجلد ١ (ص ١٩) سنة ١٩٥١م .

(٢) حازم القرطاجني : قصائد ومقطعات (ص ٦٥) .

(٣) قدى : اسرع . تاج العروس (قدى) .

(٤) الاذى : الموج . المصدر نفسه (اذى) ، غطا : استطال وتمادى . المصدر السابق (غطا) .

(٥) مدرى : مايدرأ به عن النفس . الصحاح (درأ) .

(٦) بعا : اصاب مغنما . اللسان (بعا) .

(٧) الغمى : غمى كل شيء اعلاه ، والمراد انه لايرى من خلاله لكثافته .

قد طبق الافاق من اندلـــس ود ار في ارجائها د ور الرحـــى
فاشرق الشرق بما اشجى المـــلا وما اغص كل جـــو ومـــلا
ود مرت تد مير سحب فتنـــة وبارق من مطلع البغي بغـــي (١)
ومحقت قرطبـــة كمثـــل مـــا محق البـــد ر السرار ومحـــا (٢)
وصار للوحشة كـــل مـــنزل قد كان للانس بحمص يعتـــرى (٣)
واخترمت وسطى الثغور وثبـــة من كل ضار طالما رب الضـــرا (٤)
طوفان هيجاء اطا ف هيجـــه بها فلم يدع عـــرى الا عـــرا (٥)
وفتنة عمياء ســـال سيلهـــا ففض شمـــل المسلمين وعمـــى
فمن رد طاح جفاه فوقـــه وفعلت به المهـــاد قد جفـــا (٦)
فكم صدى فيها وهـــام مجتلـــى يشكو الصدى مابين هام في جثـــى (٧)

ان طوفان العدو المدمر قد انهال على مدن الاندلس الزاهرة امثال قرطبـــة واشبيلية وتد مير وغيرها ، وحولها الى انقاض وخرائب لايشاهد فيها الا الدماء والاشلاء الممزقة ، هذا المنظر الكئيب الباكي اثار حزن كل من رآه حـــتى الانهار والاودية .

---

(١) تد مير : من كور الاندلس، سميت باسم ملكها تد مير بن غندرس . الـــروض المعطار (تد مير) .
(٢) السرار : آخر ليلة او ليلتين في الشهروتكون شديدة الظلمة . الصحاح (سرر).
(٣) يعترى : يغشى . الصحاح (عرا) .
(٤) دب الضرا : اى مشى طريق المكر والخداع . المصدر السابق (ضرا) .
(٥) العرى : الساحات، عرا : اعترى . الصحاح (عرا) .
(٦) رد : قتيل ، جفاه : جفأه رماه وصرعه . التاج (جفأ) .
الفوق : خروج النفس عند الاحتضار . الصحاح (فوق) .
(٧) صدى : موضع السمع من الرأس . اللسان (صدى) ، الصدى : العطش.
الجثى : الحجارة المجموعة . الصحاح (جثا) .

فقد بكت انهارها بمد منع | هام من الوجد لهام ما ارتوى
فالنهر الابيض يبكي شجوه | بكل دمع مستفيض مارقيا (١)
وقد بكي النهر الكبير صنوه | اذ لم يطق يروى صدى هام زقا (٢)
وكاد شقر ان يغيض عند ما | غيظا بعيث الشقر في كل عرى (٣)
وكم بها من سلك لهو قد حوى | كرس فلك سمطه فيما حوى
قد ندبت امصاره انصاره | اذ لا اذاة من عدو تشتكى
فيالها من درر تخرمت | بالغر من در السلوك تفتدى
اضحت على ايدى العدى مقشورة | وارخص الاشراك منها ماغلا
واحتويت ذخائر الدين التي | قد طالما اعيا العدى أن تحتوى

انه تصوير جميل من الشاعر لعظم النكبة وشمولها ، حيث سرى التأثر الى الانهار فعبرت عن حزنها بفيض من الدمع المتدفق في مجاريها ، وكاد بعضها يغيض ماؤه وينضب ، لما اصابه من جراء زوال حواضر الملك التي يجرى من تحتها ، والتي كانت منارا للاسلام قبل ان يلفها ظلام الكفر ، وهذا اللون من بعث الحياة في الجمادات ، واضفاء صفات الاحياء عليها ، وجعلها تشعر وتحس بما حولها ، يعطي شعر الرثاء وبخاصة في الاندلس ـ ابعادا جمالية تشارك طبيعة الاندلس الجميلة في صنعها مع خيال الشاعر .

ثم ينتقل القرطاجني ليقف متأملا حال الظاعنين عن بلادهم نجاة بانفسهم قائلا :

قسمت الحاظي ودمعي عند ما | تقسمت نفسي النواحي والنوى
مابين ظعن سطرت جمالها | ود من جمالها قد امحى (٤)

---

(١) النهر الابيض : يجرى في الجنوب الشرقي من الاندلس.
(٢) النهر الكبير : هو نهر الوادى الكبير الواقع في شمال غرب الاندلس وتقع عليه قرطبة واشبيلية وغيرهما . الهامة : طائر خرافي كان العرب يعتقدون انه روح القتيل الذى يذهب دمه هدرا يظل يصيح حتى يدرك ثأره . اللسان (صدى) .
(٣) شقر : نهر بالاندلس منه اخذت مدينة شقر اسمها . الروض المعطار (شقر) ، الشقر : الخيل .
(٤) ظعن : جمع ظعينة وهو الهودج . الصحاح (ظعن) .

د ار سفي قـر الاعاصير علـــي | مر الاعاصير بها مقاقد سفـــي
ألووا بكل مغـــرم كأنمــــا | قد لويت اضلعـه علـى لــوى (١)
من كل ساهي الفكر مغشي على | فؤاده من كثرة الوجد غمـــي
تململوا فوق ذرى اكوارهـــم | كأنما باتوا على حـد المدى (٢)
قد وسم الحب جسوما منهـــم | بشمطة من المشيـب وجـــلا
اعدت جسوم العيس اجسام لهـم | قدكدن لا يبصرن من فرط الضوى
واعدت الانفس منها انفــــس | منهم فرقت من غـرام وهـــوى

ان الشاعر يحاول الغوص في نفوس اولئك المشردين ليحلل الاحاسيس والمشاعر الدقيقة التي تحويها تلك النفوس الحزينة، ومن ثم يعرضها علينا في صورة ادبية رائعة وان كان الاسراف في استخدام الصنعة البلاغية قد ذهـب بكثير من حسنها ؛ فالألم و القلق النفسي الذى تخفق به قلوب الظاعنيـن الحيارى قد وسم جسومهم بالضعف والانهاك الذى انتقل بدوره الى العيـس التي تحملهم فاضناها واشعل نيران الشوق والوجد في نفوسها فرقت بعـد غلظتها ، وهذه الومضات الشعرية الموحية التي تغني عن كثرة تفاصيل ماتعانيه النفوس تدل على مقدرة الشاعر وجودة ملكته وافتنانه في المعاني .

وبعد ذلك يتلمس الشاعر اسباب هذه النكبات فيستنتج ان ذلك بسبـب الظلم والطغيان الذى يمارسه الناس، فيعاقبهم الله جزاء ذلك ، ويضـرب الامثال على ذلك من الامم البائدة والاثار الشاهدة . يقول :

فاصغر الاشياء قد أثر فــي | اعظمها بالعون من رب العـلا
قد اهلك الاحبوش طير قد رمى | جيوشهم بمكــة بمـا رمـــي
وهد قدما هدهد بنبـــأ | ماكان هدهاد لبلقيس ابتـــنى (٣)

---

(١) اللوى : العلم او الراية . الصحاح (لوى) .
(٢) المدى : جمع مديه وهى السكين اوالشفرة . المصدرالسابق (مدى) .
(٣) هو الهدهاد بن شرحبيل بن غالب . احد ملوك اليمن . وبلقيس ابنته . انظر قصائد ومقطعات: ٦٤ .

وقد اعاد الفأر سد مأرب ... دكا كأن لم يبنه من قد بنى
والقت النمروذ عن كرسيه ... بعوضة عدت عليه اذ عدا[1]
وقلما مد المدى لمن غدا ... في الظلم والعدوان ممدود المدى
وكيف لا يخاف عقبى البغي من ... رأى عقاب الله فيمن قد بغى ؟

ثم يتوجه القرطاجني الى خليفته المستنصر بالله الحفصي داعيا اياه الى انقاذ الاندلس مهونا عليه ذلك الامر بعد ان اطنب في مدحه يقول :

ولو سما خليفة الله لها ... لافتكها بالسيف منهم وافتدى
ففي ضمان سعده من فتحها ... دين على طرف العوالي يقتضى
فقد اشادت السن الحال به ... حمي على استفتاحها حي على
أثاى العدى ماكان مرؤوبا بها ... وهو الذى يرجى به رأب الثأى[2]
يزجي اليها كل ريح زعزع ... عاتية عاصفة بمن عتا
تبكي الاعادى بعد طول ضحكها ... وتضحك الاضبع من بعد الضهى[3]

وبعد ، فلاريب ان القرطاجني شاعر كبير، وصاحب نفس طويل في الشعر مكنه من تأليف مقصورته التي بلغت الف بيت، ولعله كان يأمل ان تحرر الدولة الحفصية الاندلس وتعيد ماذهب منها الى حيز الاسلام وقد سعى لتقوية هذا الامل عن طريق مدح الحكام الحفصيين ، وعرض حال الاندلس من خلال ذلك . وهذا مانراه في مقصورته التي مرت بنا ، وفي قصائده الاخرى[4]، وهو بهذا متأثر بالمتنبي الذى يعتبره رأس شعراء العربية لما في طريقته من ابداع في الجمع بين الاسلوب الشعرى القائم على التخيل والاسلوب الخطابي القائم على الاقناع[5].

---

(١) النمروذ بن كنعان اول من لبس التاج من الملوك، وهو الذى حاج ابراهيم ـ عليه السلام ـ في ربه كما في سورة البقرة، الاية: ٢٥٨ .
(٢) الثأى : الخرم والفتق ، الصحاح (ثأى) .
(٣) الضهى :الضهيا : المرأة التي لاتلد ، والارض التي لا ماء فيها ولا نبات. اللسان (ضها) ولعله اراد هنا الجوع .
(٤) انظر القصيدة الصادية الطويلة في الديوان: ص٦٦ .
(٥) منهاج البلغاء وسراج الادباء: ٢٩٨ - ٣٠٠ .

اما مايلاحظ على رثائه للاندلس الوارد في المقصورة من هدوء العاطفة وضعف صوتها ، فهذا راجع الى طبيعة المقصورة القائمة على الصنعة البلاغية التي هي قوام نظرة حازم للشعر . فالشعر عند حازم ملكة وصناعة مكتسبة ، ولكن هذه الملكة (الطبع) بحاجة الى عناية تحقق نموها وتصقلها ، وذلك بالعلم باسرار الصناعة الشعرية ، ولايكون ذلك الا بالمعرفة التامة بعلم البلاغة الذي تندرج تحت تفاصيل كلياته ضروب التناسب والوضع ، وهذا العلم يحتاج الى طول دربة ومران ، فالمتنبي - وهو امام الشعر - لم يستقم شعره الا عن مزاولة الصناعة عشرين عاما ، ثم زاول بعد ذلك زمنا طويلا وقد توفي وهو يصيب فيها ويخطيء[1]. وقد جعل القرطاجني من المقصورة معرضا لثقافته البلاغية والنحوية ، فنراه يحشد فيها الوانا متعددة من المحسنات اللفظية والبديعية حتى بدت لوحة زخرفية لامعة ، كما نلاحظ وفرة المفردات وغرابتها في كثير من الاحيان ، والغوص وراءها وتتبعها .

اما قول الحبيب ابن الخوجة[2] ان القرطاجني لم يعان من الشعر الا المدح والغزل والوصف والزهد ، ولانجد له هجاء ولا رثاء ، فهذا لايعني انه لم يقل في رثاء الاندلس ، وطنه الذاهب قصائد مستقلة كاملة ، فربما كان ذلك ، لان شعر حازم - في الغالب - لم يجمعه ديوان . اما مايسمى بديوان حازم الذي حققه عثمان الكعاك فلاي مثل الاجزاء بسيطا جمعه من المصادر المختلفة بالاضافة الى مخطوط صغير اكتشفت بعده مخطوطات اخرى[3].

وللقرطاجني شعر في رثاء الاندلس وانتثار سلكها ، وهو جزء من قصيدة مدح ، يقول بعد ان وصف ايام انسه الماضية حين كانت الاندلس آمنة مطمئنة[4] :

---

(١) المصدر السابق: ص٦٨ .
(٢) انظر قصائد ومقطعات: ص٥٥ .
(٣) مقدمة منهاج البلغاء: ص٧٣ .
(٤) ديوان حازم القرطاجني: ص٤٦ - ٤٧ .

فاوحشت بعد ايناس وصار بها — صرف الحوادث طلابا بأوتار
كانت نوائب ادنى ماجنته نوى — ادنى جناياتها تهييج افكار
وعضُّ ظفر باسنان على زمن — قد عض او قرع اسنان باظفار
ابقى المنازل اصفارا وغادرها — من كان فيها ، شريدا حلف اسفار
كانوا كطير باوكار فصيرهم — زمانهم فوق طير ذات اكوار
عرفت من بعد انكار معاهدهم — فكدت انسى اصطباري بعد تذكاري
ابكي لمعرفة العهد القديم وما — انكرت من خطب دهر طارق طار
شيبت موارد انسى بعد ماخلصت — جمامها الزرق من شوب واكدار
كم اوجه للمنى غر تغمت بها — في ازمن مثلها غر واعصار
ثم انتحت ازمن بُهْمٌ مبدِّلة — حالا بحال واطوارا باطوار
ففرقت شمل احباب وشمل منى — والّفت شمل اعداء واشرار
ومذ تفرقت الامال ما اجتمعت — لي في دجى الليل أشفار باشفار
ولو تيقظ من اغفائه املي — ماواصل اليأس ايقاظي واسهاري

وبعد ذلك يأخذ الشاعر في مدح صاحبه الذي عقد عليه الامال في ايقاظ آماله قائلا :

وليس يوقظ آمالي سوى يقظ — ينمي لمجد ابى اليقظان عمار (١)
محمد بن سعيد خير ماسعدت — به المنى بين ايراد واصدار (٢)
السيد المَذْحِجي المكتسى حللا — من العلا جددا ليست باطمار
حاطت حجابته الدنيا بما ضربت — دون الحوادث من حجب واستار
ناهيك من جنة للدين واقية — وصارم في يد الاسلام بتار
وهضبة من هضاب الحلم راجحة — وروضة من رياض العلم معطار

(١) يقصد الصحابي عمار بن ياسر رضي الله عنه .
(٢) هو احد القادة في الدولة الحفصية بتونس .

سمت الى ابعد الغايات همته	فادركتها وليست ذات اقصار
فليس يرجو سوى اجر ونيل علا	وليس يحذر غير الاثم والعار

الذى يبدو أن هذه القصيدة قد قيلت بعد امد ليس بالقصير من رحيل الشاعر عن الاندلس لانه يتحدث بصيغة الماضى " كانت نوائب" ، " كانوا كطير " عرفت من بعد انكار معاهدهم" وغير ذلك مما هو واضح فى القصيدة فقصيدته هذه بمثابة ذكرى مؤلمة هزت من الشاعر جانب الندم و الاسف على الايام السعيدة التى قضاها فى ربوع تلك الديار حين كان الشمل مجتمعا والمورد عذبا . ونراه يطلق لذاكرته العنان فتسرح بعيدا شارحة ـ بالكلمات الشعرية ـ حالته من خلال المفارقة بين ماضيه المشرق وحاضره الذى تشتت فيه الامال و الاصحاب، مما اورثه سهرا دائما وهما ملازما كاد يفضى به الى اليأس لولا استجارته بذلك الممدوح محمد بن سعيد .

والابيات لاتخلو من عاطفة ومشاعر وجدانية ، ولكنها مشوبة بغلبة الطابع الفردى ، والمصلحة الشخصية عليها .

ومن قصائد المسار الاول ـ ايضا ـ قصيدة للشاعر ابن فرقد[1] القرشى يرثى فيها جزيرة الاندلس حينما شاهد ضياع اجزاء كبيرة منها . يقول[2] :

الامسعد منجز ذو فطن	يبكى بدمع معين هتن[3]
جزيرة اندلس حسرة	لاغالب من حقود الزمن
ويندب اطلالها آسفا	ويرثى من الشعر ماقد وهن

---

(١) هو ابراهيم بن خلف بن محمد بن عمر بن فرقد القرشى العامرى ، من اهل موره وهى بلدة تتبع طليطلة ، وتقع فى جنوبها الشرقى ولد ومات فى عهد الموحدين ، كان متفننا فى معارفه : محدثا راويه ، فقيها حافظا ، وشاعرا كاتبا . دون برنامجا فى ذكر شيوخه ، وله رجز مشهور فى الفرائض، وترسل منوع . الاحاطة :١/ ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٢) المصدر السابق : ص٣٦٦ .

(٣) المسعد : المعين . اللسان (سعد) .

ويبكي الايامى ويبكي اليتامى — ويحكي الحمام ذوات الشجن
ويشكو الى الله شكوى شج — ويدعوه في السر ثم العلن

الى ان يقول :

وكانت رباطا لاهل التقى — فعادت مناطا لاهل الوثن
وكانت معاذا لاهل التقى — فصارت ملاذا لمن لم يدن
وكانت شجى في حلوق العدا — فاضحى لهم مالها محتجن

هذا ماذكره ابن الخطيب من القصيدة، واشار الى انها طويلة غير اني لم اعثر على بقيتها فيما توفر لدى من المصادر الاندلسية، وقد علق على القصيدة بقوله [(١)] : "ولدى خلاف فيمن افرط في استحسانها، وهي عندي ليست بذات عاطفة متوهجة، فهو يسلك مسلك المقابلة بين حالين : حال حكمها ايام المسلمين، والان ايام اهل الوثن النصارى . واللون العام المسيطر عليها الحسرة والندبة" . والامر - كما يبدو من الابيات - على نحو ماذهب اليه ابن الخطيب فالشاعر يمعن في البكاء والتحسر، ولايكتفي ببكائه هو بل يبحث عن معين يذرف دمعه بسخاء لانه يعتقد ان دمعه لايفي بعظم المصاب، ايبكي لليتامى ام للايامى، ام لدولة الشعر والادب التي ذوت وتبدد شمل اهلها بعد ان اصبحت الاندلس - مصدر الهامهم - ملاذا لاهل الوثن، والابيات لاتخلو من عاطفة صادقة غير انها ساكنة يائسة لايصدر عنها انفعال غاضب يبحث عن مسببي النكبة منبها الناس لما هم عليه من الفساد وموجها سهام اللوم والتقريع اليهم .

اما قصائد المسار الثاني التي ترثي الاندلس بعد سقوط غرناطة - آخر المعاقل الاسلامية هناك فاول ماتطالعنا قصيدة الفقيه الصنهاجي المشهور بالدقون [(٢)]، وقدم للقصيدة بقوله :" انه لما غابت شمس الجزيرة الخضراء باخذ

---

(١) الاحاطة : ١/ ٣٦٧ .
(٢) هو ابو العباس احمد بن محمد بن يوسف الصنهاجي . خطيب جامع القرويين، اخذ عن اعلام من المشرق والمغرب، وكان اديبا نحويا وعالما بعلوم الفقه والرواية والحديث . وقد توفي بفاس سنة ٩٢١ هـ . انظر ابن القاضي : درة الحجال : ١/ ٩٢ ، جذوة الاقتباس : ١/ ١٣٢ ، محمد مخلوف، شجرة النور الزكية : ١/ ٢٧٦ .

الحمراء، قرعت باب الندبة، لما تقدم من الصحبة، فقلت ابياتا صدرت من قلب كئيب مبكية لكل لبيب اريب، وسميتها بالموعظة الغراء باخذ الحمراء. . . ."

يقول (١) :

امنت من عكس آمال واحوال ... وعشت مابين اعمام واخوال

ولا ابتليت بما في القلب من نكد ... فالجسم مشتغل من غير اشغال

وكيف لا وبقاع الدين خالية ... من ارض اندلس من اجل اهوال

عمت فغمت قلوب المسلمين فيا ... للمسلمين من اعداء وانكال

جاشت بها من جيوش الكفر ما درست ... بهم معالم اخيار واقيال (٢)

يبدأ الشاعر قصيدته بالدخول المباشر الى الموضوع، فيطلق زفرة حارة من قلب يشتغل بالوان من النكد والاحزان على ما ابتليت به ارض الاندلس من الاهوال والنكبات التى لم يعرف لها التاريخ مثيلا ، فالامر ليس ذهاب ارض وتشتت امة فحسب وانما هو زوال دين ساد قرونا ، وتحطم حضارة وسلطان ذو جذور راسخة .

اما اهلها الذين دارت عليهم الدائرة ومزقهم جيش الكفر فهم :

اهل الشجاعة اهل العلم اهل تقى ... اهل النفاسة فى قول وافعال

عنهم وفيهم احاديث النبي بدت ... وهم معاقل قول الله للتالى

رهبان ليل وفرسان النهار فمن ... يلمم بساحتهم يظفر بآمال

لا عيب فيهم سوى ان المضاف لهم ... يسلو عن اهل واوطان واموال

فهل ترى بعد هذا النفس سائلة ... وكيف تسأل عن وصف وعن حال

تالله لا زال مافي القلب من اسف ... ولو اكون حليف المنزل الخالي

او يفتح الله في نصر يمن به ... فالله باق يقي من كل محتال

---

(١) القصيدة فى ازهار الرياض ١: / ١٠٤ - ١٠٨ .

(٢) الاقيال : الملوك دون الملك الاعظم، والقيل من ملوك حمير. الصحاح (قول) .

ويواصل الشاعر مناحسراته وهو يتذكر اولئك القوم وماهم عليه من الصفات الحميدة والاخلاق الفاضلة ، ونلاحظ تركيزه على الجانب الديني فيهم فهم اهل التقى والعلم ، وفيهم احاديث النبي بدت وهم رهبان بالليل فرسان في النهار مع الكرم والشجاعة وسداد الرأى والفعل . وهذا بلا شك من تأثير ثقافة الشاعر الدينية فهو فقيه قبل كونه شاعرا .

ثم ينتقل بعد ذلك لوصف مشهد الاعداء الصليبيين بزعامة ملكهم فرناند و وماكان معهم من العدد وادوات الدمار وما الى ذلك :

قد رام اطفاء نور الله مجتهدا	وباذلا كل ماقد حاز من مال
سطا بجيش كموج البحر في عدد	نعم ، وفي عدد من رهط ابطال
مويدا باجتماع المصر يتبعه	شر الخلائق مسروزا باقبال
يسبى المسامع بالانفاط[1] مشبهة	وقع الصواعق في هد وزلزال
يبني ليهدم ما الاسلام شيده	والوصف يعجز من يدعي بقلقال[2]
فهو المقاتل في الابراج منتقل	الف النحوس وتغيير وترحال
فاستوطن المرج[3] لاينوى الرحيل ولا	يخشى المغيث بسهل او باجبال

وامام هذا العدو الجبار الذى يسعى جاهدا لاطفاء نور الله بما لديه من عدد وعديد ، ونار وحديد لم يكن للمسلمين جيش يقف امامه ، ولم تكن كلمتهم واحدة ، وانما تفرقت بهم السبل حسب المطامع والاهواء وامتلأت قلوبهم بالاضغان لبعضهم مما سهل استسلامهم :

---

(١) الانفاط : آلات تقذف اللهب والحجارة ويصحبها دوى كالرعد ، تهدم الاسوار وتحرق ماوقعت عليه . انظر عنان ، مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام : ص١٢٨ .

(٢) القلقال : الفصيح اللسن ، او كثير الاسفار . اللسان (قلل) .

(٣) هو مرج غرناطة ، الواقع في جنوبها الغربي ويجرى فيه بعض الانهار وهو من اخصب بقاع الارض تربة واكثرها اشجارا . الروض المعطار (اغرناطه) ، عنان ، نهاية الاندلس : ص٢٣٦ .

والمسلمون من الاضغان قد ملئت قلوبهم وابوا تسديد اخـــلال[1]
والحق مختلف والحمق مؤتلـــف والكل منصرف عن نصر ابطـــال
وهم لديه كطير وهو ينتفـــه والطير يرجو البقا مع كيد قتال
اذا تجرد من ريش يطـير بـــه اضحى يدافع عن روح با وصـال
سدوا مسالك ارزاق ومنفعـــة كدودة القز في نسج لسربـال
ثم استغاثوا : الافرسان عاديـة قال الصدى : لست ذا رمح ونبال
والصيف ضيعت ما اقلت من لـبن ففارق الجبح من تدخين نحال[2]
وارحل بنحلك نحو الغرب في كرم من قبل وضعك في قيد واغلال
فاستمكن الرعب في الاكباد واتفقت بعد اختلاف على تأمين ارذال

وهذه الابيات تعبر بصدق عن الواقع المؤلم الذى كانت تمر به مملكـــة غرناطة في جميع نواحيها فهي وثيقة تاريخية هامة تلخص تاريخ حقبة من الزمن ساد فيها النزاع والخلاف بين حكام بني الاحمر اصحاب غرناطة بسبـــب الاطماع والمصالح الشخصية التي طغت على الاهتمام بالصالح العام واتسعت شقة الخلاف في سنة ثمان وستين وثمانمائة ومابعدها ، وذلك حين توفـــي السلطان سعد بن محمد بن يوسف النصرى وآل الامر الى ولده ابى الحســن الذى اساء السياسة ومال الى الترف فنازعه اخوه محمد بن سعد المعـــروف بالزغل (اى الشجاع) وايده جزء كبير من المملكة التي كانت تنتحر ببطء مـــن جراء المعارك الطاحنة بين الفريقين ، وقد كان كل من المتنازعين لايجـــد غضاضة في التحالف مع النصارى اعداء دينه باذلا لهم شروطا سخية فـــي سبيل الحصول على المساعدة للوقوف في وجه اخيه ، وتجسد الصراع فـــي انقسام مملكة غرناطة الى قسمين متناحرين سنة اثنتين وتسعين وثمانمائـــة[3] حينئذ ادرك النصارى ان فرصتهم الذهبية قد لاحت ، فقابلوا فرقة المسلمين

---

(١) اخلال : جمع خلل وهي الثغرة ، او الفرجه بين الشيئين . الصحـــاح (خلل) .
(٢) الجبح : خلية النحل . اللسان (جبح) والنحال : القائم على امر النحل .
(٣) عنان ، نهاية الاندلس: ص٢١٤ .

باتحاد كبير وهو اتحاد مملكتي قشتاله وارجون تحت زعامة الملكية الكاثوليكيين (فرناند و وايسبيلا) . واخذا على الفور في التخطيط لاحتلال غرناطة آخر عاصمة اسلامية في الاندلس، فاتجها الى تقويض اطراف المملكة من الغرب كمدينة مالقه وماحولها من الحصون المنيعة التي كانت عقبة في طريق تقدمهم واستطاعوا بعد جهد جهيد وصمود شديد من اهلها ان يحتلوها وان يقطعوا بذلك كل اتصال بين الاندلس والمغرب . ثم توفي السلطان ابو الحسن وخلفه ولده ابو عبد الله الذي حاول مدافعة النصارى ، ولكنه وقع في اسرهم في احدى غزواته ولم يطلقوا سراحه الا بشروط قاسية منها تقديم الطاعة ودفع جزية كبيرة وغير ذلك[1] .

وظل الامر يضطرب والنصارى يبتلعون المناطق شيئا فشيئا ، وصرخات الاستغاثة تتعالى ، وتنادى المسلمين في الشرق والمغرب، ولكنها لم تلق صدى ولاجوابا ، وقد شرحنا ذلك في الفصل السابق ، وبعد ذلك تقدمت جيوش النصارى نحو مدينة غرناطة وضربت حولها حصارا شديدا ، الا انها كانت من الحصانة بمكان اضافة الى وجود اعداد هائلة من المدافعين وجلهم من الذين فروا الى غرناطة حين احتلت مدنهم ، واستمر الحصار زهاء سبعة اشهر حتى نضبت الموارد ، واخذ الخور والضيق يدب الى نفوس الناس وفي مقدمتهم سلطانهم ابو الحسن ، ومن جانب آخر اخذ النصارى يرسلون الوعود والشروط المغرية للقوم على التسليم و هي تتضمن حرية الدين والمال وحرية الانتقال وعدم دفع المغارم وغيرها كثير[2] .

ولم يلبث اهل غرناطة ان قبلوا ذلك واستسلموا ، فدخلها النصارى واظهروا حقدهم الدفين على الاسلام واهله فسرعان مارفعوا الصلبان وحولوا الجوامع الى كنائس وبدأوا باجبار المسلمين على التنصر او الرحيل ولم ينفذوا شيئا من الشروط التي قطعوها على انفسهم . والى هذا يشير الشاعر بقوله :

---

(١) المرجع السابق ، ص٢٠٣ .

(٢) انظر نفح الطيب: ٤/ ٥١ - ٥٢٥ .

واحتل غرناطة الغـراء قد عدمت — حب الحصيد ونصر اللـه والآل
كأنها الشمس في افق العلى كسفت — فهل على طلل ترمي بابطـال
وهل تعود ليال قد سلفن بهـا — ونحن لا نشتكي تنكيد ضـلال ؟
وهل يعود لها الدين الذي انست — به وقد ايست من فتح ابدال ؟[1]
فاصبحوا لا ترى الا مساكنهـم — كمثل عاد وماعاد باشكـال
فلا المساجد بالتوحيد عامـرة — اذ عمروها بناقـوس وتمثـال
ولا المنابر للوعـاظ بـارزة — للامر والنهي او تذكير آجـال
ولا المكاتب بالصبيـان آنسـة — تتلو القرآن باسحـار وآصـال
آه على الدين والدنيا ومانفعـت — آه اذا صدرت من قلب بطـال

وهنا نرى الشاعر يعود الى تذكر ماكانت عليه غرناطة قبل ذهابهـا فيطلق الاهات والزفرات التي لم تعد تغني شيئا بعد التحول الخطر فـي حياة المدينة ، فاهلها الصالحون تفرقوا ايدي سبأ ، ومساجدها غدت عامـرة بالتثليث بعد التوحيد ، والمنابر غدت محطا للنواقيس والتماثيل ومكاتب الصبيان التي كانت مراكز اشعاع اسلامي قد هجرت واسدل عليها ثوب بال من النسيان والطمس ، ومادام الحال هكذا ، وكان ماكان فان على المسلمين من اهـل المغرب اذ لم ينجدوا اخوانهم ايام الحصار ، عليهم ان يكرموهم الان عندمـا يفرون اليهم فنرى الشاعر يتوجه الى اهل بلده (فاس) حاضا اياهم على مواساة اولئك المشردين وحسن معاملتهم يقول :

فلنكرم الان من ينزل بمنزلنـا — فالدهر ذو دول فاسمع لامثـال
واذ ولا قدرة تدني المنى فلهـم — حق الجوار ولات وصف باهمـال
نلقاهم ولنا بشـر ومعـذرة — ورحمة ياحماة العـم والخـال
ولا نذد عن ورود الحوض وارده — ولا ندع قول ذي نصح واجمـال
اخوانكم رفعوا ايدي الضراعة مع — كسر القلوب فلا تقلوا باخمـال
وقل لوال تلطف في مغارمهـم — يلطف بك الله اذ تدعى لاحمال

(١) الاولياء الصالحين الذين يستنصر بهم ، وفي البيت دلالة على التواكـل وترك العمل مما ادى الى ضياع الاندلس .

ثم يتخذ الشاعر من الحالة التي آل اليها اولئك الناس بعد الامن والغنى ، يتخذ من ذلك سبيلا ليوجه الى قومه زواجر الوعظ ، ويأمرهم بتقوى الله - عز وجل - واخذ الحذر من العدو وبذل الجهد في جمع شمل المسلمين :

هذا النذير جهارا جاء ينذرنا ... والاذن في صمم عن قيل او قال
ونحن في غفلة عما يراد بنا ... نمشي على مهلة من طول امهال
يا اهل فاس واما في الغيرموعظة ... ان السعيد لموعوظ بامثال
فقل تعالوا الى نصح وتذكرة ... فالامر جد فلا تصحب لمكسال
كيف الحياة مع الحيات قد نفحت ... على السواحل او همت بارسال
ولا سبيل الى الترياق غير تقى ... والحزم في سعة من قبل اعجال
والاخذ بالجد في جمع القلوب على ... بذل النصيحة او ابراء اد خال
والزهد في هذه الدنيا وزخرفها ... والامر بالعرف مع تحسين مقوال
ولا نرم في امان الروم منزلة ... خوفا على الدين اوبعدا من انذال
فمن يبت في امان الكلب منتصبا ... لسخط مولي ، ولاعذر باثقال
واربا بنفسك من ارض تهان بها ... فعيشما كنت لاتخشى من اقلال
فالموت عندى خير من حياة فتى ... قد اكتسى بعد عز ثوب اذلال
والهجرة الان قد عادت كما سبقت ... فافهم تفاصيل اقوال واجمال(١)

---

(١) بعد سقوط غرناطة بسنوات قليلة بدأ النصارى سياسة تنصير المسلمين قهرا ومن ابى ذلك قتل او احرق ففرت الوف من المسلمين بدينها الى فاس وتلمسان ووهران ، فتسلط عليهم الاعراب في الطريق فقتلوا كثيرا منهم ونهبوا اموالهم ، فرجع بعضهم الى الاندلس ، وتقاعس الجميع عن الهجرة . انظر ازهار الرياض ١: / ٦٨ .
وهنا اصدر فقيه المغرب في القرن التاسع الهجرى ابو العباس احمد بن يحيى بن محمد التلمساني الونشريشي فتواه المسماه :" اسنى المتاجر في بيان من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ومايترتب عليه من العقوبات والزواجر" . وفيه يوجب الهجرة على الاندلسيين ، يقول فيه " . . . ولا يسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين استولى الطاغية - لعنه الله - على معاقلهم وبلادهم الا تصور العجز عنها بكل وجه =

واحتل بذهنك ولتسمع نصائح من ... قد طب من حب لم يوصف بمحتال[1]

ثم يختم قصيدته بتأريخ ذهاب غرناطة بقضاء الله وقدره الذى لاراد له، يقول :

فى صدر سبع على التسعين زائدة	شمس الجزيرة غابت بعد اكمال
وبلغ الكلب ماقد شاء من ارب	اذ لم يجد ذائدا عن ديننا الغالى
ليقضى الله امرا كان قدره	والامر لله فى قول وافعال
وقد وعظت ولو اسمعت لانتشرت	سحائب الدمع لم تقلع عن انزال
فليشتغل كل مسكين بمهجته	والله يحفظنا من كل مهوال

ان اهم ماتميزت به قصيدة هذا الفقيه الشاعر هو العاطفة الدينية الدفاقة، حيث كانت هي الخيط الرئيسي الذى ربط جميع اجزاء القصيدة فحزنه العميق، واصراره على هذا الحزن والبكاء حتى الموت لم يكن من اجل تراب الاندلس، وانمابسبب جلاء الاسلام - بنظامه وشريعته - عن تلك البقاع، وعندما يوصى بالعطف على المهاجرين والاحسان اليهم يعتبر ذلك واجبا اسلاميا توجبه الاخوة فى العقيدة اضافة الى حق الجوار المأمور به شرعا . كما اننا نحس فى القصيدة قوة النفس وعلو الهمة عند شاعرها، فهو رغم حزنه الشديد لم يتملكه الخور والجزع فيشتغل بالعويل والندب، وانما اتخذ من المحنة سبيلا، وشاهدا حيا يقرع بهاآذان مستمعيه من اهل فاس بزواجر الوعظ

= وحال، لا الوطن والمال فان ذلك كله ملغى في نظر الشرع. قال تعالى (ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى انفسهم قالوافيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالوا الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا . .) النساء: ٩٦ - ٩٧ . والظالمون انفسهم فى الاية هم التاركون للهجرة مع القدرة عليها . فلا تجد فى تحريم هذه الاقامة وهذه الموالاة الكفرانية مخالفا من اهل القبلة المتمسكين بالكتاب العزيز . فهوتحريم مقطوع به كتحريم الميتة ولحم الخنزيروقتل النفس، فمن جوز هذه الاقامة واستسهل حكمها فهو مارق من الدين ومفارق لجماعة المسلمين . انظر اسنى المتاجر: ص٢٦ - ٢٨ .

(١) معناه: صنعةحاذق لانسان يحبه، ويضرب فى التنوق فى الحاجةواحتمال التعب فيها . الميدانى، مجمع الامثال: ١/ ٣٩٧ .

وداعيا اياهم الى التقوى وجمع الشمل في مواجهة العدو واصلاح النفوس والبعد والحذر من تطلعات العدو والمتربص الذي يرمي الى اذلال المسلمين في دينهم وانفسهم غير اننا مع ذلك لانجد في القصيدة استصراخا او طلب نجدة بل اكتفى الشاعر بالحض على حسن معاملة المهاجرين ، والتلطف في اخذ المغارم منهم وما الى ذلك . ولعل جواب ذلك يكون بالنظر الى الحالة التي كانت عليها دولة بني مرين صاحبة اليد الطولى في انجاد الاندلس فيما سبق . فهي اليوم - في ظروف سقوط غرناطة - تمر بمرحلة ضعف وتفكك ، وظهور زعامات جديدة متمثلة ببني وطاس الذين تمكنوا فعلا من الاستيلاء على الحكم في فاس سنة ست وسبعين وثمانمائة[1] . ثم ان الشاعر قد نظم قصيدته في وقت متأخر عن هذا التاريخ ، فلم يكن حوله من يستصرخه .

واسلوب القصيدة سهل سلس ، والفاظها مألوفة ، ومعانيها خالية من التعقيد ، كما خلت من الصنعة البلاغية الا مايرد عفوا ، لاشتغال الشاعر بالحدث التاريخي الهائل ، لذا نجد القصيدة سجلا حافلا للحوادث التاريخية التي كانت تجري على ارض الاندلس . ولم ينس الشاعر استعمال الحكمة والمثل وبخاصة عند ما يعظ ، لان ذلك من خصائص اسلوب الوعظ والارشاد وذلك كقوله " الصيف ضيعت اللبن " ، "صنعة من طب لمن حب" وغير ذلك . وقد استفاد الشاعر - ايضا - من اقوال من سبقه من الشعراء ، فقوله :

كيف الحياة اذا الحيات قد نفخت ... على السواحل او همت بارسال

مأخوذ من قول الزاهد ابن العسال .

من جاور الشر لايأمن عواقبه ... كيف الحياة مع الحيات في سفط

---

(١) انظر السلاوي ، الاستقصاء : ٢/ ١٤٨ .

وبالجملة فالقصيدة من جيد مارثيت به الاندلس بعد غروب شمسها فهي على طولها لم تسئم القارئ لبراعة الشاعر في الانتقال من مجال الى مجال آخر، داخل اطار الرثاء، ولئن خلت بعض الشيء من الصور المتخيلة فانها كانت غنية بعواطفها واحاسيسها الانسانية.

ومن روائع مارثيت به دولة الاندلس الزائلة قصيدة بليغة طويلة لشاعر مجهول تتبع فيها سقوط قواعد مملكة بني الاحمر مدينة بعد اخرى، وقد بدأ بمدينة رندة[1] قائلا[2]:

احقا خبا من جو رندة نورها	وقد كسفت بعد الشموس بدورها
وقد اظلمت ارجاؤها وتزلزلت	منازلها ذات العلا وقصورها
احقا خليلي ان رندة اقفرت	وازعج عنها اهلها وعشيرها
وهدت مبانيها وثلت عروشها	ودارت على قطب التفرق دورها
وكانت عقابا لاينال مطارها	ومعقل عز، زاعم النسر صورها[3]
هوت رندة الغراء، ثم حصونها	وانظارها شنعاء، عز نظيرها

(١) مدينة اندلسية قديمة البناء، بها آثار كثيرة، وهي تقع على نهر ينسب اليها، ويأتيها الماء من قرية بشرقيها ومن جبل بغربيها، فيوافيها الماء الى داخلها فيكسبها خصوبة وجمالا. الروض المعطار (رنده) وقد كان سقوطها بيد النصارى في سنة ٨٩٠هـ حينما كان الاضطراب الشامل يسود جميع مابقي من الاندلس، وقد وجه النصارى القشتاليون حملة قوية الى المنطقة الغربية من مملكة غرناطة (ولاية مالقه) واستولوا على عدة حصون في منتصف الطريق بين مالقه ورنده، وبذلك تمكنوا من عزل رنده التي كانت حصن الاندلس من الغرب، فحاصروها وضربوها بالانفاط حتى هدموا اسوارها، فاضطر اهلها الى التسليم لصعوبة وصول المدد اليهم وبعدهم عن العاصمة (غرناطة)، وكان سقوط هذه المدينة ضربة شديدة للمسلمين حيث استولى القشتاليون على سائر القواعد والحصون الموجودة في تلك المنطقة بعد ذلك بسهولة.
انظر، عنان، نهاية الاندلس: ص٢٠٦.

(٢) الطاهر احمد مكي، دراسات اندلسية في الادب والتاريخ والفلسفة: ص٣٧٦. ومابعدها.

(٣) الصور: العصفور الاليف، يقال عصفور صوار الذي يجيب اذا دعي. الصحاح (صور).

وقد كن عقدا زين القطر نظمها فقد فتح الان البلاد نثيرها
وفرق شمل المؤمنين لهيبها وقطع من ارحامهم زمهريرها
تسلمها حزب الصليب وقادها وكانت شرودا لايقاد نفورها
وقد ذهبت اديانها ونفوسها وقد دفرت تحت السباء دثورها(١)
فباديها الاسلام حتى تقطعت مناسبها . واستأصل الحق زورها
فاصبحت الصلبان قد عبدت بها تماثيلها دون الاله وصورها
لقرع النواقيس اعتلى بمنارها كرائه اصوات يروع صريرها

الذي يبدو من هذه الابيات ان الشاعر كان ممن شهد الاحداث المؤلمة التي اودت بقواعد الاندلس، وعايشها عن قرب واطلاع، فهو يصدر عن عاطفة هدها المصاب الفاجع، فيصرخ في دهشة افقدته صوابه متسائلا عما يحدث وهل حقا حدث ماحدث، وكأنه يجهل ذلك . ولعل سبب ذهوله كان عدم توقعه لحدوث مثل هذه الكارثة لمدينة حصية منيعة كرندة، لذا نراه يكور استغرابه " احقا خبا من جو رندة نورها "، " احقا خليلي ان رندة اقفرت" . ويستعمل الالفاظ الفخمة ذات الصدى المجلجل :" وهدت مبانيها وثلت عروشها"، " هوت رندة الغراء . . ."، " وكانت عقابا لاينال مطارها . ." الخ . ولايلبث الشاعر ان يفيق من شروده ليرى الاسلام وقد هد ركنه وزحزح من مكانه ليقوم مكانه دين الصليب بتماثيله الشركية ونواقيسه ذات الاصوات الكريهة . ثم يسبح الشاعر في بحر من الالام والعذاب النفسي وهو يتذكر احبته اهل تلك المدينة وماحل بهم فيقول :

فياساكني تلك الديار كريمة سقى عهدكم مزن يصوب نميرها
احقا اخلائي القضاء ابادكم ودارت عليكم بالصروف دهورها
فقتل واسر لايفادى وفرقة لدى عرصات الحشريأتي سفيرها
ولوعة ثكل ليس يذهب روعها ولا تنقضي اشجانها وزفيرها

---

(١) السباء : الاحراق بالنار . الصحاح (سبأ) .

ونفس على هذا المصاب حزينـــة ... يذوب كما ذاب الرصاص صبورهــا
وقلب صريع ماج فيــه بــلاؤه ... سويداءه سوداء جسم ثبورهــا
سأبكي ومايجدي على الفائت البكا ... بعبرة حزن ليس يرقا عبورهــا
شآبيب دمع بالدماء مشوبـــة ... يساجل قطر الغاديات درورهــا
عويلا يوافي المشرقين بريحــه ... وثكلا باقمار قد اطفئ نورهــا
فواحسرتا كم من مساجد حولـت ... وكانت الى البيت الحرام شطورهــا
وواأسفا كم من صوامع اوحشـت ... وقد كان معتاد الاذان يزورهــا
فمحرابها يشكو لمنبرها الجـوى ... وآياتها تشكو الفراق وسورهــا
وكم من لسان كان فيها مرتـل ... وحفل بختم الذكر تمضي شهورهــا

ان الشاعر لابد ان يكون قد عاش في مدينة رندة شطرا من حياتــه لذا فان ذكرى تلك المدينة واهلها تثير اشجانه واحزانه، فتنطلق شآبيب الدمع من عينيه ممزوجة بالزفرات الحارة المنبعثة من قلبه الصريع . اننــا نحس فعلا لوعة الثكل التي يعانيها الشاعر وبخاصة عندما يأخذ في تفصيل ماحدث لاحبابه اهل رندة جميعا رجالا ونساء، واطفالا . . . يقول :

وكم طفلة حسناء فيها مصونـــة ... اذا سفرت يسبي العقول سفورهــا
تميل كغصن البان مالت به الصبا ... وقد زانها ديباجها وحريرهــا
فاضحت بايدي الكافرين رهينـة ... وقد هتكت بالرغم منها ستورهــا
وقد لطمت ـ واحر قلبي ـ خدودها ... وقد اسبلت ـ وادمع عيني ـ شعورها
وان تستغث بالله والدين لاتغث ... وان تستجر ذا رحمة لايجيرهــا
وقد حيل مابين الشقيق وبينهـا ... واسلمها آباؤها وعشيرهــا
وكم من عجوز يحرم الماء ظمؤهــا ... على الذل يطوى لبثها ومسيرهــا
وشيخ على الاسلام شابت شيوبــه ... يمزق من بعد الوقار قتيرهــا (١)
وكم فيهم من مهجة ذات ضجـــة ... تود لو انضمت عليها قبورهــا

---

(١) القتير : الشيب . الصحاح (قتر) .

لها روعة من وقعة البين ، دائم — اساها ، وعين لايكف هديرها
وكم من صغير حيز من حجر امه — فاكبادها حراه لفح هجيرها
وكم من صغير بدل الدهر دينه — وهل يتبع الشيطان الاصغيرها
كروب واحزان يلين لها الصفا — عواقبها محذورة وشرورها

وهو هنا يرسم لنا صورة ذات ظلال سوداء متشعبة عمادها الحركة وصدق الوصف الذى يلفح الوجوه بحرارته رغم مرور مئات السنين عليه ، وهذه الحرارة والانفعال الصادق هى التى اكسبت المعانى والصور الرثائية روحا وطرافة ، وان كانت معاده قد قالها شعراء رثاءالمدن من ذى قبل ونتيجة لهذه المآسي المؤلمة نرى الشاعر يتمنى ان لم يكن ولد فضلا عن تمنيه الموت ولكن رغم ذلك لايزال عنده بصيص من امل شاحب لم يقوعلى الوقوفبعد :

فياليت امى لم تلدنى وليتنى — بليت ولم يلفح فؤادى حرورها
وماخير عيش يعذب الموت دونه — ويغبط قل الاهل فيه كثيرها
فياليت شعرى بعد ماصح موتها — ايرجى على رغم العداة نشورها ؟
ويامله الاسلام هل لك عودة — لارجائها يشفى الصدورصدورها ؟
وهل تسمع الاذان صوت الاذان فى — معالمها تعلو بذاك عقيرها
ويالعزاء المؤمنين لفاقة — على الرغم ، اغنى من لديها فقيرها
لاندلس ارتجت لها وتضعضعت — وحق لديها محوها ودثورها
منازلها مصدورة وبطاحها — مدائنها موتورة وثغورها
تهائمها مفجوعة ونجودها — واحجارها مصدوعة وثغورها
وقد لبست ثوب الحداد ومزقت — ملابس حسن كان يزهو حبورها
فاحياؤها تبدى الاسى وجمادها — يكاد لفرط الحزن يبدو ضميرها
فلوان ذا الف من البين هالك — لذابت رواسيها وغاضت بحورها
على فرقه الدين الذى جاءها به — بشير الانام المصطفى ونذيرها

ان الاندلس كلها في مأتم كبير لفقد هذه المدينة العظيمة، وانطفاء نور الاسلام الذي ماكان يسطع من جنباتها ، فالمدن والثغور والاندلسية قد لبست ثوب الحداد ، والتهائم والنجود تتفجع، والحجارة تتصدع والرواسي الشامخات تكاد تذوب وتندك ، والانهار يغيض ماؤها .

هذه اللوحة الحية للجماد ابدعها الشاعر منسجمة مع نفسه المنفعلة بالحزن والتي لاترى حولها الا باكيا موتورا ، وهذا يزيد من اهمية المدينة المرثية وشدة تأثير سقوطها .

ثم ينتقل الشاعر الى رثاء قاعدة اخرى من قواعد الاسلام في غرب الاندلس هي مدينة مالقة(1) وماتبعها :

فمالقة الحسناء ثكلى اسيفة	قد استفرغت ذبحا وقتلا حجورها(2)
وجزت نواصيها وشلت يمينها	وبدل بالويل المبين سرورها
وقد كانت الغربية الجنن التي	تقيها فاضحى جنة الحرب سورها
وبلش قطت رجلها بيمينها	ومن سريان الداء بان فطورها(3)

---

(1) تقدم التعريف بهذه المدينة في الفصل السابق . وكان سقوطها بيد النصارى سنة ٨٩٢هـ وذلك انه بعد سقوط رندة اصبح القشتاليون يهددونها من الغرب، واستغلوا فرصة الحرب المحتدمة بين ابي عبد الله وعمه المعروف بالزغل ووجهوا حملة قوية الى بلش مالقة (وهي منطقة حصينة تقع شرقي مالقة) وحاول الزغل انجادها ولكنه فشل فسقطت بلش في السنة المذكورة ، واستمر النصارى في زحفهم فاحتلوا حصن تمارش، وحصن مونتميور حتى اشرفوا على ثغرمالقة من كل صوب ، فضربوا حولها حصارا شديدا من البر والبحر، ودافع اهلها دفاعا مريرا لمدة ثلاثة اشهر، ولم ينجدها الزغل خوفا من غدر ابن اخيه ، وتركها لمصيرها وهو يذوب حسرة والما فاستسلمت في النهاية ودخلها النصارى دخول الفاتحين فنهبوا واحرقوا وسبوا النساء والاطفال وفرضوا على اهل المدينة شروطا قاسية . انظر نهاية الاندلس (ص٢١٧) وتصف الرواية ذلك بقولها " وكان مصابهم مصابا عظيما تحزن له القلوب، وتذهل له النفوس، وتبكي لمصابهم العيون". مجهول ، اخبار العصر(ص٢٧ - ٢٨) .

(2) الحجور: النواحي والارجاء . اللسان (حجر) .

(3) الفطور: مفردها الفطر وهو الشق . اللسان (فطر) .

وبالله ان جئت المنكب[1] فاعتبر — فقد خف ناديها وجف نضيرها
وسكرها قد بدل اليوم علقما — لها رجة ، نار الهيام تثيرها
وعن على الاقليم فابك ربوعها — بسحب يضاهى المعصرات غزيرها
وودع بها وفد النعيم فانها — لها ادمع فيض الدموع يميرها[2]

ولعلنا نلاحظ هنا مقدرة الشاعر على التفنن في جلب الاوصاف الحية لما اصيبت به المدينة الثكلي ، فكأنه يرثي لحال امرأة حسناء فقدت بنيها فجزت شعرها اسفا ، ولازمها حزن فظيع افقدها الحركة . اما المنكب فامرها يدعو الى الاعتبار مما اصابها من التدمير والهلاك على الرغم من منعتها وقوة حصونها وتلك ارادة الله النافذة لا محالة . ثم يأتي دور مدينة المرية[3] مسقط رأس الشاعر فيرثيها بقوله :

وما انس لا انس المرية انها — قتيلة اوجال ازيل عذارها[4]
فلقد احرق الثكل الصابين اصبحت — تأجج من حر الوجيف بحورها
فيا اصدقائي ودعوها كريمة — او استودعوها من اليه امورها
منازل آبائي الكرام ومنشئ — واول اوطان غذاني خيرها
واقروا عليها من سلامي تحية — تجددها آصالها وبكورها

---

(١) المنكب : مدينة حسنة متوسطة الحجم ، وهي مرسى الاندلس ، وتشتهر بحصنها المنيع الذي لا يرام ومنها الى غرناطة اربعون ميلا ، وبها خرج عبد الرحمن الداخل عند دخوله الاندلس سنة ١٣٨ هـ . الروض المعطار ـ المنكب . وقد سقط هذا الثغر الحصين في يد النصارى سنة ٨٩٥ هـ وذلك بعد ان سقطت مالقة وجميع ماحولها من الحصون وانقطع بذلك المدد البحري عن الاندلس ، قرر فرناند و نزع مابقى فى ايدى المسلمين من المناطق وهي تنحصر في (ثغر المرية والمنكب) حيث فرت اليهما جموع كثيرة من اهل مالقة وغيرها ، فسار فرناند و الى المنكب بعد سنة من الاعداد وحاصرها ثلاثة اشهر حتى اضعفها فاستسلمت على شروط كثيرة ، ووعود مغرية للقادة والامراء فيها . انظر نهاية الاندلس : ص ٢٢٤ .

(٢) يميرها : يغذيها . اللسان (مير) .

(٣) اما المرية فهي ثغر حصين يقوم على جبلين بينهما خندق . وقد تقدم التعريف بها في الفصل الثاني ، وقد سقطت في نفس السنة التي سقطت فيها المنكب حيث لم يبق الا هي امام العدو فحاصرها ، ودكها حتى استسلمت على شروط كثيرة خادعة .

(٤) في كلمة (عذارها) جاءت الالف قبل الروى ، وهي المرة الوحيدة بين تعاقب الياء والواو .

وهنا نرى الشاعر وقد ودع مدينته الوداع الاخير بعد ان فقد كل امل في رجوعها الى حيز الاسلام ، ثم ذهب - في اسف شديد - يبحث عن الاسباب التي ادت الى هذه الطامة فيجدها في اضاعة حقوق الله ، والاسراف في المعاصي . يقول :

اضعنا حقوق الرب حتى اضاعنا	وفضت عرى الاسلام الايسيرها
وملتنا لم نعرف الدهر عرفها	من النكر فانظر كيف كان نكيرها
بما قد كسبنا نالنا ما انالنا	كذا السيرة السوأى لدى من يسيرها
بشقوتنا الخذلان صاحب جمعنا	وبؤنا باحوال ذميم حضورها
بعصياننا استولى علينا عدونا	وعاثت بنا اسد العدا ونمورها

ومن جراء هذا العصيان ، والتفريط في جنب الله فقد عوقبوا بالخذلان فلم يقيض الله لهم ناصرا وسلط عليهم عدوا كاسرا يصفه الشاعر بقوله :

نعم سلبوا اوطاننا ونفوسنا	واموالنا فيئا ابيحت وفورها
علوها بلا مهر وماغمزت لهم	قناة ولا غارت عليهم ذكورها
وقد عوت الافرنج من كل شاهق	علينا فوفت للصليب نذورها
وقد كشرت ذؤبانها وكلابها	وقد كسرت عقبانها ونسورها
وجاءت الى استئصال شأفة ديننا	جيوش كموج البحر هبت دبورها
علامات اخذ مالنا قبل بها	جنايات اخذ قد جناها مشيرها

ثم يختم الشاعر سلسلة الاسى برثاء واسطة عقد الاندلس ، وعاصمة آخر مملكة اسلامية فيها وهي غرناطة . يقول :

ألا ولتقف ركب الاسى بمعالم	قد ارتج باديها وضج حضورها
بدار العلى حيث الصفات كأنها	من الخلد والمأوى غدت تستطيرها[1]

(١) المأوى : يقصد جنة المأوى اخذا من الاية (عندها جنة المأوى) سورة النجم : ١٥ ، تستطيرها : اى تطيرها اليها . الصحاح (طير) .

محل قرار الملك غرناطة التي　　هي الحضرة العليا زهتها زهورها

فما في العراقين العتيقين مثلها　　ولا في بلاد الله طرا نظيرها (١)

ترى للاسى اعلامها وهي خشع　　ومنبرها مستعبر وسريرها

ومأمومها ساهي الحجي وامامها　　وزائرها في مأتم ومزورها

لها حال نفس قد اصيبت فؤادها　　وبتت لها اليمنى وحم ثبورها

فانفسها في الصعق دون افاقة　　كنفس كليم الله اذ دك طورها (٢)

وقد ذعرت تلك البنيات حولها　　فهن بواكي الاعين الرمد مورها (٣)

لقد كان لغرناطة ـ في نفوس المسلمين عامة ـ مكانة عظيمة ، ولكونها هي الجانب الوحيد الذي بقي صوت الاسلام مسموعا فيه ، ولكن من المحال ان تصمد تلك المدينة وحدها وسط خضم زاخر من وحوش الصليبيين الحاقدين ، وبخاصة بعد ان جردوها من جميع الحصون والارباض التي من الممكن ان تشكل خط دفاع اول عنها ، ولذا فقد جاءت النتيجة الحتمية لهذا المسلسل الدامي وسقطت غرناطة سنة سبع وتسعين وثمانمائة . فكان لذلك رنة حزن دوت في ارجاء العالم الاسلامي الذي لم يفعل شيئا اكثر من ذلك . ولعلنا نلاحظ خفوت صوت الموسيقي الشعرية ، لمناسبة موقف الذل والبؤس الذي جلل اعلام غرناطة الشوامخ ،كما استعمل الشاعر الالفاظ الدالة على الضعف والانكسار كقوله :" ترى للاسى اعلامها وهي خشع ... ومنبرها مستعبر وسريرها" . وقوله :" ومأمومها ساهي الحجي وامامها ...." " وقد ذعرت تلك البنيات حولها ....." الخ .

---

(١) المقصود عراق العرب وعراق العجم .

(٢) يشير الى قوله تعالى (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب ارني انظر اليك .قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا . .الاية) سورة الاعراف : ١٤٣ .

(٣) مار الدمع : سال وجرى . اللسان (مور) .

وفي معرض حديثه عن حال غرناطة يعرج الشاعر على ذكر بعض المناطق التي سقطت قبل غرناطة بزمن يسير فيقول :

وقد رجفت وادي الاش[1] فبقاعها	سكارى وما استاكت بخمر ثغورها
وبسطة ذات البسط ماشعرت لما	دهاها ، واني يستقيم شعورها
على عظم بلواها وطول وبالها	وماكابدت من ذا المصاب نحورها

ثم يختم الشاعر قصيدته بصرخة استنفار يوجهها الى المسلمين لعل وعسى .... :

معاشر اهل الدين هبوا لصعقة	وصاعقة واري الجسوم ظهورها
اصابت منار الدين فانهد ركنه	وزعزع من اكنافه مستطيرها
ودبت افاعيها الى كل مؤمن	وعض باكباد التقاة عقورها
انادي لها عجم الرجال وعربها	نداء سراة القفر اذ ضل غيرها
واستنفر الادني فالادني فريضة	على زمر الاسلام جلت اجورها
الا واستعدوا للجهاد عزائما	يلوح على ليل الوغى مستنيرها
باسد على جرد من الخيل سبق	يدع الاعادي سبقها وزئيرها
بانفس صدق موقنات بانها	الى الله من تحت السيوف مصيرها

---

(١) الملاحظ هنا ان الشاعر لم يراع الترتيب الزمني ، فان بسطه سقطت قبل وادي اش بعدة اشهر واود هنا ان اسير حسب نسق الحوادث فاتحدث عن بسطة وسقوطها ثم عن وادي آش . فبسطة مدينة حصينة ذات اسوار تتبع لمنطقة جيان ، وهي متوسطة المقدار وكثيرة السكان ، وذات خصوبة عالية . انظر الروض المعطار (بسطة) . ولماكانت هذه المدينة من امنع ولايات غرناطة الشرقية ، فقد سار اليها فرناندو سنة ٨٩٥ هـ وحاصرها بشدة ، ولكنها صمدت وقاوم اهلها مقاومة الابطال بقيادة القائد (يحيى النيار) ولما طال الحصار وفتك بالناس الجوع والمرض ، جنحوا الى المفاوضة وبذل لهم فرناندو كعادته من الشروط والوعود ما حملهم على التسليم ومغادرة المدينة نحو وادي آش . وبهذا يكون فرناندو قد بسط سلطانه على قواعد =

وضرب كأن الهام تحت ظلالهـــا	حثالة نور الورد ذر ذرورهـــا
وطعن يرى الخطي في مهج العدا	كاقلام ذات الخط خطت سطورها
يمين هدى ان تتقوا الله تنصـروا	وتحظوا بآمال يشوق غريرهـــا
فلايخذل الرب المهيمن امـــة	تدين بدين الحق وهو نصيرهـا
وان انتم لم تفعلوا فترقبـــوا	بوادر سخط ليس يرجى فتورهـا
وايام ذل واهتضام وفــرقـــة	يطاول آناء الزمـان قصيرهـا

ولعل الشاعر يشير في اول هذه الابيات الى بداية المحاولة الآثمـة التي قام بها الاسبان لتنصير المسلمين وذلك نحو سنة خمس وتسعمائـــة حينما استعملت الكنيسة الكاثوليكية كل وسائل الضغط على فرناندو وايسبيلا ليشرعا في نقض شروط تسليم غرناطة التي منها حرية العقيدة وممارســة الشعائر ـ ولينفذا سياسة التنصير التي اعدتها الكنيسة بحجة ان بقـــاء المسلمين على اسلامهم وسط المجتمع النصراني يشكل خطرا على امنـــه وبالفعل استجاب الملكان لذلك واصدرا قرارا بتنصير المسلمين قسراواستدعي الكردينال خمنيس رأس الكنيسة الاسبانية الى غرناطة لينفذ المهمة (١) .

ولهذا نرى الشاعر يستنجد باهل الدين من المسلمين ليقفوا فـــي مواجهة الصاعقة التي هدت ركن الدين ، وسعت لاستئصال جذوره بكـــل الطرق .

اما قوله : الا واستعدوا للجهاد عزائما . . . الى آخر الابيات فلعله يشير بذلك الى الثورة التي حاولت بعض الاحياء الاسلامية القيام بهـــا كحي البيازين (حي غرناطة الشعبي الواقع في شمالها الشرقي) وذلك ردا

= الاندلس الشرقية كلها ولم يبق خارج طاعته سوى وادي آش مدينـــة الزغل الذي رأى عبث المقاومة ، فسار الى معسكر فرناندو وقدم الطاعة والخضوع وعقد معه معاهدة سرية فيها المنح والامتيازات الخاصـــة به بعد تسليم المدينة ، وتم التسليم في اواخر سنة ٨٩٥هـ ودخلهـــا النصارى وغادرها الزغل الى المغرب . انظرنهاية الاندلس :ص٢٢٧ .

(١) انظرنهاية الاندلس : ص٣١٥ .

على قرار التنصير الذى اتخذ من هذا الحى مركزا للمنصرين ، وحول المسجد الجامع فيه الى كنيسة ، كما قامت ثورة اخرى فى منطقة جبلية وعرة بجوار منطقة رندة فالحقوا بالحملة النصرانية التى جاءت لقمعهم هزيمة شديدة ، اضطرت ملكى اسبانيا الى استعمال اللين مع الثائرين حتى هاجروا الى المغرب (١) والشاعر ما ان رأى قبسا بسيطا من الجهاد يحاول الاشتعال حتى اخذه الحماس وراح يحرض على اخلاص النية لله وتجريد السيوف والرماح فى وجه العدو الكافر ويحذر من التقاعس الذى يجلب سخط الله ، ويدعو الى تحكم العدو فى مصير المسلمين واغراقهم فى ذل لا نهاية له ، وهذا ما حصل فعلا فى الاندلس بعد ان اخمد فيها صوت الجهاد الى الابد . ولعلنا نلاحظ ان القصيدة وقفت عند هذه الواقعة فى الاشارة الى الحوادث التاريخية ولم تتجاوزها ، مما له دلالة على انها آخر ما ادركه الشاعر عند نظمه قصيدته ، وهنا يمكننا ان نستنتج ان القصيدة قيلت فى سنة اربع وتسعمائة او خمس وتسعمائة .

ويبدو ان الشاعر قد يئس من نصرة البشر ، فتوجه الى الله بهذا الدعاء الخاشع :

اله الورى ، ندعوك ياخير مرتجى	لكالحة هز الصليب سرورها
وشقت جيوب المؤمنين واسخنت	عيونهم والكفر ظل قريرها
وليس لها ياكاشف الكرب ملجأ	اذا لم يكن منك التلاقى ظهيرها
اغث دعوات المستغيثين انهم	ببابك موقوفو الحشاشات بورها
وارسل على هذا العدو رزية	يروح ويغدو بالبوار مبيرها

وبعد ، فالقصيدة من اروع ماقيل فى رثاء الاندلس ، فقد اضفى عليها صاحبها من ذوب نفسه التى يمتزج فيها انفعال الحزن والالم بانفعال

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢٥ .

الغضب والحماسة ، فنراه قد حلق في عالم شعري هو في جانب منه كهف مظلم تتمزق فيه نفس الشاعر وهو يشاهد مسقط رأسه ، ومرتع شبابه وقواعد الاسلام العظيمة تهوى في جحيم الصليبية الحاقدة ، فيبكي بكاء الثكلى ويندب كالنائحة . فيسري منه هذا الشعور ليشمل المدن والحجارة والانهار والجبال . . . فتنخرط كلها في موكب حزين مضطرب . وهذه الطبيعة الحية ذات الوجدان والشعور التي تبرز في هذه القصيدة وغيرها من الادب الاندلسي كانت المرتكز التي قامت عليه النظرية الرومانتيكية في الشعر عند الغربيين فيما بعد .

اما الجانب الاخر من العالم الشعري الذي عاش فيه الشاعر فتتخلله ومضات مضيئة تنعش نفس الشاعر بعض الشيء ، فيمد بصره بعيدا ، وتدور في نفسه آمال كبيرة ، فيندفع ليغذيها بحض الناس على التقوى وطاعة الله واصلاح النفوس بحملها على الجهاد في سبيل الله الذي هو الطريق الوحيد للعزة الابدية .

اما اسلوب الشاعر فهو رصين محكم ، مشرق العبارة قويها ، ولعلنا نستشف من هذا ان القصيدة قد قيلت بعد سقوط غرناطة بزمن يسير قبل ان تفعل السياسة النصرانية فعلها في محاربة اللغة العربية ومسخها ، كما حدث بذلك فيما بعد ايام الموريسيكيين : المضطهدين والشاعر - كما يتضح من القصيدة - ذو نفس طويل وشاعرية فذة ، وطبع ابتعد به عن الجرى وراء الصنعة البلاغية ، كما نلاحظ التأثر بقصيدة ابي البقاء الرندي في رثاء الاندلس ، فقول شاعرنا المجهول :

فواحسرتا كم من مساجد حولت	وكانت الى البيت الحرام شطورها
ووأسفا كم من صوامع اوحشت	وقد كان معتاد الاذان يزورها
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى	وآياتها تشكو الفراق وسورها

مستوحى من قول ابي البقاء :

حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهن الا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة ... حتى المنابر ترثي وهي عيدان

وقول الشاعر :

وكم من طفلة حسناء فيها مصونة ... اذا اسفرت يسبي العقول سفورها
تميل كغصن البان مالت به الصبا ... وقد زانها ديباجها وحريرها
فاضحت بايدي الكافرين رهينة ... وقد هتكت بالرغم منها ستورها

مستوحى من قول الرندي :

وطفلة مثل حسن الشمس اذ طلعت ... كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة ... والعين باكية والقلب حيران

اما بالنسبة للشاعر فلم يتحقق احد من الباحثين من شخصيته على وجه اليقين ، يقول الاستاذ عبد الرحمن الحجي الذي نشر القصيدة[1] : "قصيدة بليغة من الادب الاندلسي الرائع ، تصف احسن وصف المأساة الاندلسية لم نعثر على قائلها ، وقد طبعها لاول مرة الدكتور صوالح محمد بالجزائر سنة ١٩١٤م مع ترجمة فرنسية وبعض التعليقات ، وذكر فيها انها من جملة قصائد بعثت الى السلطان بايزيد العثماني بقصد الاستغاثة . وقد عرضتها على المؤرخ المغربي الكبير محمد بن علي الدكالي السلوي فذكر لي ان صاحبها كما يفهم من القصيدة من مدينة المرية ولعله ابو جعفر بن خاتمة[2]

---

(١) مجلة الرسالة ، العدد : ١٣١ ، السنة الرابعة مج ١ ، ١٣٥٤هـ / ١٩٣٦م .

(٢) هو ابو جعفر احمد بن علي بن خاتمة الانصاري الاندلسي . من اهل المرية . شاعر كاتب مترسل ، وفقيه مصنف ، جلس الى الشيوخ حتى اتيح له التدريس في جامع المرية فدرس علم العربية وغيره . قال فيه صديقه ابن الخطيب " هو حسنة من حسنات الاندلس ، وطبقة في النظم والنثر" وقد كان يعد من وجوه العصر الثامن وادبائه المعدودين . توفي سنة ٧٧٠هـ وله كتاب مزية المرية وهو مفقود ، وكتاب " ايراد اللآل من انشاد الضوال" . انظر الاحاطة : ١/ ١١٤ ، الكتيبة الكامنة : ص ٢٣٩ - ٢٤٥ ، نثير الجمان : ص ١٧٥ .

ولعل شكيب ارسلان[١] اطلع على هذا الكلام فاورد جزءا من القصيدة ونسبها ايضا لابن خاتمة ، وذكر انه نظمها سنة اربع وتسعمائة او بعدها بقليل . ولكن الواقع التاريخي يثبت بطلان هذه النسبة لان ابن خاتمة المذكور توفي سنة سبعين وسبعمائة اي قبل سقوط المدن المذكورة في القصيدة بنحو قرن وربع القرن ، كما ان ابن خاتمة لم يكن شاعرا مغمورا فقد طبقت شهرته الاندلس في زمانه ، فهو يقارن بلسان الدين بن الخطيب واضرابه اضف الى ذلك ان ديوان شعره قد وصلنا بخط يده وهي النسخة التي صنعها سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة وهي تخلو من ذكر القصيدة تماما[٢].

اما ماقيل من انها وجهت الى السلطان العثماني . فليس في القصيدة اي اشارات تدل على ذلك ، وقد عرضنا في فصل سابق للقصيدة الطويلة التي ارسلها الموريسيكيون للسلطان بايزيد العثماني . واخيرا فمن غير المتوقع ان نعثر على شخصية قائل هذه القصيدة التي قيلت في تلك السنوات العجاف ، وبخاصة انها تتعرض للعدو المسيطر .

---

(١) انظر الحلل السندسية : ٣/٥٤٨ - ٥٤٩ .

(٢) حقق الديوان الدكتور رضوان الداية ، وطبع في دمشق سنة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م .

البـــاب الثالـــث

دراسة تفصيلية لشعر رثاء الدول والأمصار

الفصل الأول
رثاء الدول والأمصار بين التأثر والتأثير

قبل ان اتحدث عن تفاصيل رثاء الدول والامصار في الشعر العربي اود في هذا الفصل ان اتناول بالبحث نشأة هذا الشعر، فقد دارت تساؤلات كثيرة بين الباحثين في الشعر العربي، مشرقية واندلسية حول المهد الاول الذي ولد فيه شعر رثاء الدول والامصار الذي اشتهر في الاندلس خاصة بصورة كبيرة، فهل هو غرض شعري ابتدعه الاندلسيون ؟ او انه كان معروفا في المشرق، وتناوله شعراء الاندلس على سبيل المحاكاة والتقليد عندما حلت ببلادهم النكبات ؟ وقد تضاربت الردود والاجوبة حول هذا الموضوع فذهب بعضها الى أن الأدب الأندلسي بجملته لم يأت بجديد، ولم تكن له الشخصية المميزة، بل هو تقليد لادباء المشرق ودوران في فلكهم وضمن آفاقهم، ومن اصحاب هذا الرأي الدكتور شوقي ضيف الذي يقول [1] :

" ونحن لا نبالغ اذا قلنا بان شخصية الاندلس في الادب العربي ليست من القوة كما ينبغي .... فقد كانت الكتلة الاندلسية تنساق نحو التقليد المشرقي بكل مافيه، وحتى شعر الطبيعة عندهم لم يأتوا فيه بجديد سوى الكثرة . اما بعد ذلك فصورته كله بما فيها من افكار واخيلة واساليب هي الصورة المشرقية .... وما أراني أبعد إذا قلت أن الأندلس كانت تستمد نهضتها وحياتها من بغداد شأنها في ذلك شأن الاقاليم الاخرى" .

ولا يخلو هذا القول - في نظري - من المبالغة والمغالاة، فبالرغم من أن الادب المشرقي ظل انموذجا يحتذى عبر عصور الأندلس الأدبية - على تفاوت في الاحتذاء بين الفترات الزمنية - برغم ذلك فان للأدب الأندلسي شخصية متميزة وطابعا خاصا، . ولا ندري

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي: ص٤١٢ .

ماذا نسمي ابتكارهم لفن الموشحات، وافتنانهم في اختراع الصور النابضة من شعر الطبيعة حتي كاد هذا اللون يكون وقفا عليهم لجودته وكثرشعرائه وماهو بالصورة الساذجة التي يشير اليها الدكتور شوقي ضيف، فالشاعر الاندلسي امتزج بطبيعة بلاده الساحرة حتي نراه لاينفك عن ذكرها واستعمال صفات اجزائها في اغراض لاتمت الى الطبيعة بسبب كالمدح والرثاء كقول ابن خفاجة في المدح [١] :

لذكرك ماعبَّ [٢] الخليج يصفق	وباسمك ماغنى الحمام المطوق
ومن اجلك اهتز القضيب على النقا	واشرق نوار الربى يتفتق

وكقوله ايضا في الرثاء البعيد كل البعد عن وصف الطبيعة وموحياتها :

في كل ناد منك روض ثناء	وبكل خد فيك جدول ماء
ولكل شخص هزة الغصن الندى	غِبَّ البكاء، ورنة المكاء [٣]
يامطلع الانوار . . ان بمقلتي	اسفا عليك، كمنشأ الانواء

كما لاننسى ايضا بروز الاندلسيين الى حد كبير في مجال رثاء الدول والمدن وتفردهم في ابتداع شعر الاستصراخ والاستغاثة حتي غدا فنا قائما بذاته انطبع بطابعهم، ولعل الدكتور شوقي ضيف يريد من الادب الاندلسي ان يتميز باغراضه واساليبه تميزا كاملا عن ادب المشرق بحيث يبدو ادبا آخر له مقوماته ومجالاته الخاصة . وهذا امر عسير، ومن غير المتوقع حدوثه، وذلك لان الاندلس كانت جزءا من الدولة الاسلامية في كثير من الفترات، واهل تلك الجزيرة ماهم في غالبيتهم وبخاصة اهل الشعر والادب ـ الاجزءا من القبائل العربية التي دخلت ايام الفتح او في

---

(١) ديوان ابن خفاجة : ص ١٨ .
(٢) العب : شرب الماء وتتابع جرعه . القاموس المحيط (عب) .
(٣) غب البكاء : البكاء الشديد الذى يكون بعد شوق وانقطاع، المكاء : طائر له صوت رنان . الصحاح (مكا) .

زمن الامويين ، وتجمعهم بأهل المشرق وحدة الاصل ، ووحدة العقيدة واللغة . اضف الى ذلك ان هؤلاء الشعراء والادباء الذين ذاع صيتهم في الاندلس قد تتلمذوا على مؤلفات المشارقة وتثقفوا بها ؛ فلا عجب ان يسيطر الطابع المشرقي على آثارهم ومؤلفاتهم الادبية وغيرها ، فهم في الواقع كانوا يستقون من منبعين احدهما مشرقي والاخر ينبع من داخل جزيرة الاندلس.

ولعل ادباء الاندلس وجدوا انفسهم مدفوعين الى ورود مناهل الادب المشرقي لان ماحولهم من بلاد اوروبا آنذاك لم يكن فيها من العلم والادب مايدفع الاندلسيين الى اخذه والاستغناء به عن ادب المشرق .

وذهب فريق آخر من الباحثين الى القول بان رثاء الدول والامصار فن اندلسي المنشأ لم يظهر في المشرق الا في فترات متأخرة ؛ وماوجد منه يوصف بالضعف والتكلف . يقول احمد امين[1] : " لقد رأينا مدنا في المشرق تتساقط تساقط اوراق الشجر ، تستوجب الرثاء والبكاء ؛ كما سقطت بغداد في يد التتار ، وازالوا كل مافيها من مظاهر مدنية وحضارة ؛ وفعل التتار فيها مالايقل عما فعله الاسبانيون في الاندلس ، وغزا هولاكو وتيمورلنك ونحوهما الشام ، واسقطوها بلدا بلدا ، فما رأينا عاطفة قوية ، ولارثاء صارخا ، ولاادبا رقيقا ، ولاتاريخا مسجلا ، كالذي رأيناه في الاندلس ، فان قلنا ان هذه الناحية في التاريخ الاندلسي اقوى واشد لم نبعد عن الصواب" .

ويعلق الدكتور محمد رجب البيومي على هذا الكلام بقوله[2] : " وعبارة استاذنا الكبير - رحمه الله - على شيء من التناقض اولا واخيرا ، اذ ان قوله فان قلنا ان هذه الناحية في التاريخ الاندلسي اقوى واشد لم نبعد عن الصواب ، قد يبدو متعارضا مع قوله فما رأينا رثاء صارخا ، ولاادبا رقيقا ولاتاريخا مسجلا . . لان القول الاخير يعترف بوجود هذا اللون على نحو اقل

---

(١) ظهر الاسلام : ٣ /٢٨٧ .
(٢) الادب الاندلسي بين التأثر والتأثير ، ص ٢١١ .

من لون الاندلس، والقول الاول يكاد يحكم بعدمه .. مع ان المتصفح لكتب الادب والتاريخ يرى رثاء المدن ذائعا في كل محنة تجد . ولم يتعرض امثال الطبرى وابن الاثير والمسعودى لمحنة ما الا رووا عنها في كتب التاريخ ـ فضلا عن كتب الادب الخالص ـ نماذج رائعة فيها الرثاء الصارخ والادب الرقيق والتاريخ المسجل" .

ويذهب بطرس البستاني الى ان العاطفة الوطنية ضعيفة في شعر بكاء المدن في المشرق حتى لانكاد نلمح لها خيالا الا في النادر، واشار الى ان الفرق واسع بين شعراء الاندلس وشعراء العباسيين من حيث حب الوطن والتعلق به.(١)

ويشارك الدكتور محمد مجيد السعيد هذا الفريق ، فيشير الى ان بكاء الدول والمدن الزائلة ولد بالاندلس بفعل الكوارث التي عاشتها ، والمحن التي قاستها ، فقيلت القصائد لتخليد مآثرها ، وبرزت المشاعر الوطنية التي تدعو الى الجهاد ، والوقوف في وجه الاطماع والتوسع في حين تأخر ظهور مثل هذا الفن في المشرق حتى سقوط بغداد ، اما قبل ذلك فالشعر المشرقي يكاد يخلو تماما من امثال هذا اللون سوى ماقيل في الاستعبار والاستذكار، وايوان كسرى .(٢)

والناظر في هذه الاراء يجد انها تكاد تجمع على سبق الاندلس في هذا المضمار، وتكاد تنكر ظهور مثل هذا الشعر قبل سقوط بغداد سنة ست وخمسين وستمائة على يد المغول . والواقع ان الزعم بتأخر شعر الرثاء كل هذه الفترة قد يكون مجانبا للصواب، وفيه اجحاف شديد بحق شعراء المشرق . اذ اننا نجد قصائد رائعة في رثاء بغداد ايام فتنة الامين والمأمون في اواخر القرن الثاني الهجرى ، كقصيدة ابي يعقوب الخريمي الطويلة

---

(١) ادباء العرب في الاندلس وعصر الانبعاث: ص٩٧ .
(٢) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس: ص٣٠٨ .

التي صورت المأساة اصدق تصوير بعيدا عن الصخب والتكلف، فصاحبها شاعر مطبوع شعر بهزة عظيمة عند ما رأى مدينته العظمى تصبح اطلالا وخرائب، فاطلق هذه الزفرات الحارة . ولكن لا ادرى لماذا ادارت كتب الادب ظهرها لهذه القصيدة، حتى كادت تنسى بالرغم من جودتها ، فلم يوردها كاملة الا الطبرى في تاريخه (١) . ولعل ذلك راجع لخمول ذكر صاحبها بسبب بعده عن دواوين الخلفاء والرؤساء وعدم مدحه لهم تعففا عن التكسب بالشعر .

او ربما كانت الدولة تدفع الناس لنسيانها رأبا للصدع ولأما للجرح بين بني العباس، وقصيدة هذه حالها في المشرق من الصعب ان نفترض انها وصلت الى الاندلس، ولكن لا يجوز لنا اغفالها فهي - ولا ريب - رائدة في مجالها . وكذلك قصيدة ابن الرومي في رثاء مدينة البصرة حينما دمرها الزنج في منتصف القرن الثالث الهجرى فقد بكاها بحرارة وصدق ، ووثب خياله فيها وثبات جميلة معبرة لم يسبق اليها ، وذلك حين صور مشهد المحشر الرهيب يوم القيامة وقد وقف معاصرو نكبة البصرة خاشعين من الذل ، والجبار - عز وجل - يقرعهم ويبكتهم :

ياعبادى اما غضبتم لوجهي	ذى الجلال العظيم والاكرام؟
اخذلتم اخوانكم، وقعدتم	عنهم - ويحكم - قعود اللئام؟
كيف لم تعطفوا على اخوات	في حبال العبيد من آل حام؟
لم تغاروا لغيرتي ، فتركتم	حرماتي لمن احل حرامي
ان من لم يغر على حرماتي	غير كفء لقاصرات الخيام

او حينما يصور عتاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - لهم في ذلك الموقف العصيب :

---

(١) اورد ابن قتيبة ابياتا منها في الشعر والشعراء ٢/٨٥٥ ، وجاء الجاحظ بابيات منها اقل في كتابه الحيوان : ٦/٢٢٥ ، ٧/٢٠

امتي . اين كنتم اذ دعتني حرة من كرائم الاقوام
صرخت"يامحمداه" فهلا قام فيها رعاة حق مقامي
لم اجبها اذ كنت ميتا فلولا كان حي اجابها عظامي

انها صور بديعة مؤثرة تدفع سامعها الى العمل الايجابي ، فيهب للجهاد في سبيل الله والدفاع عن حرماته ، لينجو بذلك من الخزي والعذاب ، وهذا مايسعى اليه الشاعر .

واكاد اذهب الى ابعد من هذا كله ، الى العصر الجاهلي حيث البكاء على الأطلال والدمن الذي يدل على العاطفة الصادقة لدى العربي نحو منازله وصحرائه ، فكيف يكون حال هذا الشاعر البدوي لو كان يعيش في مدينة ، والمت بها نكبات الدهر ، لاشك انه سيتدفق كالسيل باكيا وراثيا في قصائد رنانة ، وقد قدمنا في الفصل الخاص برثاء الممالك في الجاهلية نماذج لهذا الشعر .

اما قول القائلين بان العاطفة الوطنية في شعر المشارقة ضعيفة ولاتكاد تلمح فهو ليس على اطلاقه ، لان لدينا من القصائد ذات العاطفة الصادقة والمشبوبة مايضاهي رثاء الاندلسيين ان لم يفق الكثير من قصائده فبالاضافة الى قصيدتي الخريمي وابن الرومي نجد الشعر الذي قيل في رثاء بيت المقدس عند ما سقط بيد الصليبيين في اواخر القرن الخامس الهجري وبخاصة قصيدة ابي المظفر الابيوردي التي يصف فيها مالاقته المدينة المقدسة من الاهوال العظام باسلوبه المثير الذي ابكى عيون سامعيه دما وصور الحدث تصويرا اصاب الناس بالذهول والدهشة تمهيدا لحثهم على نصرة اخوانهم . ونراه قد الم بطرف من صور ابن الرومي ومعانيه حينما يتخيل النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد رأى تقاعس الامة عن الجهاد والدفاع عن حرمات الله التي انتهكها الصليبيون وعملوا بالمدينة المقدسة واهلها اعمالا :

يكاد لهن المستجن بطيبة ينادي باعلى الصوت يا آل هاشم
اري امتي لا يشعرون الى العدى رماحهم والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفا من الردى ولا يحسبون العار ضربة لازم
فليتهم اذ لم يذودوا حمية عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم

فعاطفته الاسلامية متأججة ثائرة، تنادى المسلمين عربا وعجما للدفاع عن الوطن الاسلامى مهما بعدت اصقاعه .

وهناك ـ ايضا ـ الشاعر الفقيه عمارة اليمني الذى ظل يرثي الخلافة الفاطمية بمصر بشعر يفيض بالصدق وحرارة المشاعر، فقد كان هذا الشاعر محبا لاولئك القوم بالرغم من كونه سنيا وهم شيعة، وقد ملك عليه هذا الحب وجدانه، حتى كانت قصور الفاطميين هي مبعث وجده واشجانه بعد ان اقفرت من اهلها، حتى اورده ذلك موارد الهلاك، بعد ان لم يطق رؤية الايوبيين في تلك الربوع فذهب يدبر الخطط ضدهم حتى ظفروا به فقتلوه .

وبعد فلعل في هذه الامثلة والمناقشات مايثبت وجود شعر رثاء الدول والامصار في المشرق قبل سقوط بغداد بقرون عدة، كما ان فيها مايرد القول بضعف العاطفة الوطنية عند الشعراء المشارقة.

اما ماقيل في رثاء بغداد والشام عندما دمرتا على يد التتار، فلا يخلو ايضا من صدق العاطفة فقد هز النبأ الهائل ـ سقوط الخلافة الاسلامية وتدمير عاصمتها بغداد ـ نفوس جميع المسلمين وادمت قلوبهم تلك الصور البشعة من القتل والحرق والسحق الهمجي لكل شيء، فانبرى الشعراء يبكون البلاد والعباد، ولكن شاب قصائدهم الاسراف في الصنعة البلاغية كالجناس والطباق والمقابلة، والتضمين الى غير ذلك . فهذا الشيخ شمس الدين الكوفي يفتتح احدى مراثيه بقوله :

ان لم تقرح ادمعي اجفانـــي ... من بعد بعدكم فما اجفانـــي

انسان عيني مذ تناءت داركـــم ... ماراقه نظر الـــى انســـان

مالي وللايام شتت شملهــــا ... حالي وخلانـــي بلا خـــلان

فهذه الابيات وغيرها يشم منها رائحة التكلف فتبدو العاطفة ضعيفـــة شاحبة وسط هذا الجناس المتلاحم . ولعل السبب في ذلك اسلوب العصـر الذى انحدر فيه الفهم العام لمدلول الشعر عند النقاد والشعراء ، فحكـــم بالجودة للقصائد التي تحوى قدرا كبيرا من المحسنات اللفظية والبديعيـــة وتظهر مقدرة قائلها علي الزخرفة واستعمال الوان ثقافته في شعره . ومـــن الجدير بالذكر ان الذين برزوا في رثاء بغداد والشام لم يكونوا شعـــــراء منقطعين للشعر وانما هم بين واعظ ، ومؤرخ ، كابن العديم ، وطبيب كبهـــاء الدين الغزولي .

ولعل الذى حمل النقاد علي وصف مراثي المشارقة لمدنهم بضعـــف العاطفة هو نظرهم باعجاب الي عواطف الشعراء الاندلسيين نحو بلادهـــم فالاندلسيون - بحق - من شعرهم يتعلم حب الوطن ، فهو ممتزج بدمائهـــم وارواحهم ، والاندلس تظل قبلة شاعرها اني ذهب ومهما اغترب ، وحنينه اليهـا يبقى مشتعلا مرتلا في قصائد شجية تبقى انموذجا شامخا علي مر الايـــــام ولاعجب في ذلك ، فطبيعة وطنهم الساحرة ذات فضل كبير عليهم فـــــي شحذ قرائحهم واكسابها الخيال الجميل ، والامر الثاني يكمن في وقـــوع الاندلسيين وسط نصراني يعمل جاهدا لسحق الامة الاسلامية المسلمة وطردها من تلك البقعة ، الامر الذى ولد عنـــــد الاندلسيين شعورا قويا بانهم يملكون علقا نفيسا تتطلع اليه عيون الطامعـين فازدادت العاطفة الوطنية في نفوسهم تأججا ، فما تسقط مدينة الا رأيـــت الشعراء يسارعون في بكائها وتسجيل مآثرها مع الدعوة لرأب الصدع والحـــث علي الوحدة ، والتوجه الى اخوانهم المسلمين يناشدونهم النصرة لاحساسهم بان طمع العدو لن يتوقف عند مدينة او سلسلة من المدن .

وفي نظري ان البحث عن سابق ولاحق ، ومؤثر ومتأثر بين المشرق والاندلس في فن رثاء الدول والامصار امر يحتاج الى اعادة نظر ، وربما حدث شيء من ذلك بين شعراء القطر الواحد ، كما هو الحال عند الاندلسيين في احتذاء قصيدة ابي البقاء الرندي لشهرتها الكبيرة .

والذي يدفعني الى انكار التأثر والتأثير على نطاق واسع هو ان هذا الفن يختلف عن باقي الفنون والاغراض الشعرية التي يمكن ان نطبق عليها حكم التأثر والتأثير . اذ ان الصادق منه يقوم على جيشان العاطفة والانفعالات الداخلية عند الشاعر ، وهذه العاطفة تكمن بسكون في نفس كل شاعر - على تفاوت في رهافة الاحساس وعمقه - فاذا ماحدثت النكبة ، واصيب الوطن اشتعلت نيران هذه العاطفة ، فتفجرت ينابيعها الثره . فمثل هذا الشعر اذن لابد ان يكون مبثوثا في كل ادب ، ماوجد الشعراء ، ووجدت النكبات التي تحرك وجدانهم ، وهذان الامران لايخلو منهما زمان من الازمنة على مدى الدهر كله . اما تكرر معاني الرثاء وتشابهها في كثير من القصائد ، والذي قد يحمل الباحث على القول بالاتباع فان سببه هو تكرر المأساة نفسها ، فماذا عسى ان يقول الشاعر الذي يشاهد مدينته او دولته التي عاش في ظلها ، تستباح وتدمر من قبل الاعداء ، لاشك انه سيبكي للدمار والخراب الذي صبغ المدينة ، ويرثي لحال القتلى والاسرى ، ويصور مصارع الضعفاء من الاطفال والنساء والشيوخ بحيث يؤثر في السامع ويستدر عطفه وعبرته ، وتشابه هذا الواقع المؤلم في كل مدينة تسقط لايكون مبررا لاهماله او تجنبه من قبل الشاعر اللاحق بحجة انه قيل من قبل . على ان الجدة والطرافة لدى الشاعر الملهم تبرز في صوره واخيلته والوانه .

وحاصل القول في هذه القضية ان رثاء الدول والمدن مبثوث في الشعر العربي ككل في المشرق والاندلس ، ولكنه اشتهر بالاندلس حتى اقترن ذكره بادبها لما يلي :

اولا : تتابع الاحداث المأساوية . فقد ظلت الحروب مشتعلة بالاندلس على مدى خمسة قرون تقريبا ، يتخللها فترات سلام مؤقت مادام المسلمون هم المسيطرين ولا تلبث الحرب ان تعود جذعة عندما يجد النصارى من انفسهم قوة تمكنهم من الهجوم على المسلمين .

وقد كانت الحروب تصطبغ بالصبغة الدينية الخالصة ، فهي تطاحن من اجل البقاء بين عقيدتين اسلامية ، ونصرانية . لذلك نجد المعاني الاسلامية هي اهم مايتفجع عليها الشاعر ويتأسف ، كالمساجد التي سرعان ماتحولت الى كنائس تنصب على محاريبها الصلبان المعدة لهذه الغاية فور السقوط ، وكالمدارس ومعاهد العلم التي تهدمت وماالى ذلك .

وهذا الامر لم يوجد في شعر المشرق بهذه الصورة الا حينما سقط بيت المقدس وفعل الصليبيون به تلك الافاعيل المعهودة عنهم ، اما التتار فهم جيش هلكة وتدمير ، وليس لديهم عقيدة ينشرونها ، فشعراء المشرق تعرضوا لذكر التدمير فقط من غير ذكر للتغيير . وذكر مصير الاسلام والتفجع عليه ، مع كثرة المدن العظمى الساقطة اكسبت شعر الشاعر الاندلسي لونا خاصا من التأثير في نفوس قارئيه وسامعيه على مر الازمان .

ثانيا : ان معظم المؤرخين الاندلسيين الذين اوردوا لنا الاشعار التي قيلت في رثاء الاندلس هم ادباء وشعراء في الوقت نفسه ، فكان ان مزجوا الحوادث التاريخية بالادب مزجا يشعر القارئ بتفاعلهم مع الاحداث التي اوفوها حقها من التحليل الدقيق كفعل ابن بسام صاحب " الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة" ، وابن سعيد صاحب "المغرب في حلى المغرب" ، ولسان الدين ابن الخطيب صاحب " الاحاطة في اخبار غرناطة" . . . وغيرهم كثير وكثير .

ونحن هنا لاننكر دور مؤرخي المشرق في ايراد الاشعار اثناء سرد الحوادث ، فكثير من شعر رثاء المدن والدول في المشرق جاء في كتب التاريخ كتاريخ الطبرى ، وتاريخ المسعودي مروج الذهب ، والكامل في التاريخ لابن الاثير وغير ذلك . ولكن طريقة المؤرخين الاندلسيين كانت اشهر في ابراز الشعر والاهتمام به .

الفصل الثاني
دراسة شكل قصيدة الرثاء

من الصعوبة بمكان ان يضع الباحث خصائص ومميزات لاى غرض من اغراض الشعر العربي ينفرد بها ولايشاركه غيره فيها ، وذلك لطبيعة هذا الشعر الذى تغلب عليه الغنائية، وتتداخل اغراضه وتتفرع عن بعضها ، فالرثاء مثلا يرجع الى المديح لانه مدح الاموات، وكذلك الغزل والوصف . . . الخ(١)

وفي شعر رثاء الدول والامصار تزداد المشكلة تعقيدا لان هذا الشعر لايمثل وحدة متكاملة يمكن دراستها من خلال تسلسل القصائد والاساليب والظروف المتشابهة . فنحن بإزاء حشد من القصائد التي قيلت في رثاء المدن والدول الساقطة والمدمرة على مدى قرون طويلة ومتباعدة ، اضف الى ذلك انه لايوجد شعراء مكثرون في هذا الفن ، نستطيع بتتبع شعرهم وتحليله تكوين فكرة متبلورة عن سمات هذا اللون الشعرى ، فاكثر الذين وردت اشعارهم في هذا البحث لم يزيدوا على ثلاث قصائد او نحوها في المناسبة الواحدة . فلابد ـ والحالة هذه ـ من تناول كل قصيدة على حدة وقد فعلت هذا في جميع القصائد التي مرت بنا . ولكن اريد هنا ان اشير بشيء من التفصيل الى الظواهر البارزة التي تشترك فيها معظم القصائد التى بين ايدينا من ناحية الشكل والمضمون .

اما من حيث الشكل فيشمل الحديث المباحث التالية :

---

(١) يقول ابن رشيق القيرواني :" الشعر كله نوعان : مدح وهجاء ، فالى المدح يرجع الرثاء والافتخار والتشبيب، وماتعلق بذلك من محمود الوصف، كصفات الطلول والاثار ، والتشبيهات الحسان ، وكذلك تحسين الاخلاق كالامثال والحكم والمواعظ. . . والهجاء ضد ذلك كله . ." . العمدة ١/ ١٢١ .

المبحث الاول : مقدمات القصائد

تنوعت المقدمات في شعر رثاء الدول والامصار تبعا لمقدرة الشاعر ودرجة تأثره بالحدث، ومن اشهر هذه الانواع :

(١) المقدمة الطللية :

وهي مقدمة تقليدية فرضت سيطرتها على الشعر من ايام الجاهليين وظل سلطانها مستمراعبر العصور الادبية، فتجد الشاعر يقف على مدينة زاهرة اصيبت بالدمار واستبيح اهلها ، يأخذ في مناجاة الاطلال ومناشدتها عن الاحباب ويستوقف الصاحب والرفيق ، ويدعو بالسقيا وما الي ذلك. كقول ابن ابي هاشم في رثاء دولة بني طولون :

يامنزلا لبني طولون قد دثرا ... سقاك صوب الغوادى القطر والمطرا
بالله عندك علم من احبتنا ... ام هل سمعت لهم من بعدنا خبرا

وقول ابن منقذ في شيزر :

حيا ربوعك من ربا ومنازل ... سارى الغمام بكل هام هامل
وستقك يادارالهوى بعد النوى ... وطفاء تسفح بالهتون الهاطل
ابكيك ام ابكي زماني فيك ام ... اهليك امشرخ الشباب الراحل

وقول شمس الدين الكوفي في رثاء بغداد عندما دمرها المغول وقضى على الخلافة الاسلامية فيها :

ولقد قصدت الدار بعد رحيلكم ... ووقفت فيها وقفة الحيران
وسألتها لكن بغير تكلم ... فتكلمت لكن بغير لسان

وفي قصيدته الاخرى يضمن مقدمته اشطرا كاملة من شعر الاطلال حين يقول :

قف في ديار الظاعنين ونادها (يادار ماصنعت بك الايام)
اعرضت عنك لانهم قد اعرضوا (لم يبق فيّ بشاشة تستام)

وهذا ابن شهيد الاندلسي، شاعر الاندلس المطبوع، عاش في بيئة لاتمت الى الصحراء واطلالها بصلة، وعندما اراد رثاء قرطبة، حاضرة اوربا كلها في ذلك الوقت، لم يجد مناصا من البدء بذكر الطلول مراعاة لتقاليد الشعر التي حرم ابن قتيبة(1) على الشعراء المتأخرين الخروج عنها .

يقول ابن شهيد :

مافي الطلول من الاحبة مخبر فمن الذي عن حالها نستخبر؟
لاتسألن سوى الفراق فانه ينبيك عنهم انجدوا ام اغوروا

ويقول ابن لبّون في رثاء امارته الغاربة :

خليلي عوجابي على مسقط اللوى لعل رسوم الدار لم تتغيرا
فاسأل عن ليل تولى بانسنا واندب اياما تقضت واعسرا

اما السهيلي فيسائل قريته المحتلة قائلا :

---

(1) يقول ابن قتيبة بعد ذكر بنية القصيدة على ذكر الديار والدمن ثم النسيب فوصف الرحلة والتعب حتى الوصول الى الغرض وهو المدح .. يقول : " وليس لمتأخر الشعراء ان يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الاقسام، فيقف على منزل عامر، او يبكي عند مشيد البنيان لان المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافي . . . " .
انظر الشعروالشعراء ١/ ٧٤ - ٧٦ .

يادار ابن البيض والآرام ... ام ابن جيران على كرام؟
راب المحب من المنازل انه ... حيى فلم يرجع اليه سلام

ولعل هؤلاء الشعراء وغيرهم كانوا يرون في المقدمة الطللية مظهرا من مظاهر الاصالة التي يجب المحافظة عليها ، ولذلك نجد في مابين ايدينا من اشعار الرثاء - وبخاصة في الاندلس - اسماء بعض الاماكن والمناطق في جزيرة العرب تتكرر كثيرا لا لذاتها وانما لانها اصبحت رموزا يقترن ذكرها بالشوق والوجد والحنين الباكي ، وهذا الامر ابتدأه الشعراء القدماء في حنينهم الى مغانيهم ثم شاع في الشعر العربي كله واصبح رمزا ، ومن تلك الرموز كلمة نجد واللوى ، والمشقر ، وثبير ، وجبل الريان وغيرها .

يقول ابن عميرة الاندلسي في رثاء بلنسية :

ويندب عهدا بالمشقر فاللوى ... واين اللوى منه واين المشقر ؟

ويقول ايضا :

يحن الى نجد ، وهيهات حرمت ... صروف الليالي ان يعود الى نجد
فياجبل الريان لارى بعدما ... عدت غير الايام عن ذلك الورد

ونحن هنا لانعيب على الشعراء وقوفهم التقليدي بالاطلال ، بقدر مانبين ان الشاعر المغلق اذا تصدى لموضوع الرثاء ، لاينبغي له ان يكبت نفسه ويفقدها قيمتها بالجرى وراء غيره في الشكل او الموضوع ، لان ذلك لايسمح للعواطف - التي هي عماد هذا الشعر - ان تنطلق معبرة عن نفسها في انسياب طبيعي يريح نفس الشاعر المشحونة بالالام ، ويبلغ من السامعين ، او القارئين درجة عالية من التأثير .

(٢) مقدمة الحزن والشكوى :

وفي هذه المقدمات يمهد الشعراء لقصائدهم الرثائية بشدة وقع الحدث على انفسهم حيث اورثهم الالم والنكد والسهر . . . . الخ . وهذا النوع كثير جدا في شعر رثاء الدول والامصار، ومنه قول العبلى في رثاء الدولة الاموية :

تقول امامة لما رأت	نشوزى عن المضجع الانفس
وقلة نومي على مضجعي	لدى هجعة الاعين النعس
ابى ماعراك؟ فقلت الهموم	عرون اباك فلا تبلسي
عرون اباك فحبسنه	من الذل في شر ماحبسي

وقول ابن الرومي في رثاء البصرة :

ذاد عن مقلتي لذيذ المنام	شغلها عنه بالدموع السجام
اى نوم من بعد ماحل بالبصـ	ـرة ماحل من هنات عظام
اى نوم من بعد ما انتهك الزنـ	ـج جهارا محارم الاسلام

اما الابيوردى فنجده يمزج الدمع بالدم حزنا على خراب بيت المقدس ووقوعه بيد الصليبيين :

مزجنا دماء بالدموع السواجم	فلم يبق منا عرضة للمراجم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه	اذا الحرب شبت نارها بالصوارم

ويشاركه - ايضا - في الموضوع نفسه شهاب الدين بن المجاور بقوله :

اعيني لاترقى من العبرات	صلى في البكاء الاصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفىء فيضها	توقد ما في القلب من جمرات
وياقلب اسعر نار وجدك كلما	خبت بادكار يبعث الحسرات
ويافم بح بالشجو منك لعله	يروّح ما القى من الكربات

ويتخذ علاء الدين الاوتارى من السهاد مؤنسا له يلازمه فى شدته بعد ان جفاه الرقاد على اثر نكبة دمشق ، يقول :

لك علم بما جرى ياسهادى — من جفوني على افتقاد رقادى

لم اجد عند شدتي مؤنسا لي — غير سهدى ملازما لسوادى

وحبيب العين الرقاد جفاها — مذ رآها حليفة الانكاد

ويذرف ابو المطرف بن عميرة الاندلسي الدمع مدرارا ، ويغرق في بحر زخار من الاحزان ويغرق معه غيره وذلك في مقدمة رثائه لبلنسية :

مابال دمعك لاينى مدراره — ام مالقلبك لايقر قراره

اللوعة بين الضلوع لظاعن — سارت ركائبه وشطت داره

ام للزمان اتى بخطب فادح — من مثل حادثة خلت اعصاره

بحر من الاحزان عب عبابه — وارتج مابين الحشا زخاره

في كل قلب منه وجد عنده — اسف طويل ليس تخبوا ناره

ويقول الدقون في مطلع رثائه للاندلس :

امنت من عكس آمال واحوال — وعشت مابين اعمام واخوال

ولا ابتليت بما في القلب من نكد — فالجسم مشتغل من غير اشغال

وكيف لا وبقاع الدين خالية — من ارض اندلس من اجل اهوال

وهذه المقدمات اكثر مناسبة لاشعار الرثاء من المقدمات الطللية لانها ذات اتصال مباشر بنفس الشاعر واكثر ملائمة للارتباط بالموضوع الاصلى حيث لايظهر اثر الانتقال واضحا في القصيدة .

(٣) مقدمة شكوى الدهر، وذكر الحكمة والعبرة :

وفي هذه المقدمات يذكر الشعراء تقلب الدهر وتلونه، وفتكه بالامم العظيمة، الامر الذى يوجب التيقظ واخذ العبرة.

يقول عثمان القرشي في رثاء دولة بني امية :

من يأمن الدهر ممساه ومصبحه	في كل يوم له من معشر جزر
بعد ابن مروان اودى بعد مقدرة	دانت لهيبتها الامصار الكور
ثم الوليد فسل عنه منازله	بالشام والشام معسول له خضر
وفي سليمان آيات وموعظة	وفي هشام لاهل العقل معتبر

ويقول الخريمي في رثاء بغداد :

قالوا : ولم يلعب الزمان ببغـ	داد وتعثر بها عواثرها
اذ هي مثل العروس باطنها	مشوق للفتى وظاهرها
فلم يزل والزمان ذو غير	يقدح في ملكها اصاغرها

اما عمارة اليمني فيشكو الدهر شكوى العاجز لانه يرى ضرباته القاصمة التي لاينجو منها من وجهت اليه . يقول في رثاء الدولة الفاطمية :

رميت يادهر كف المجد بالشلل	وجيده بعد حسن الحَلْي بالعطل
سعيت في منهج الدهر العثور فان	قدرت من عثرات الدهر فاستقل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل	سقيت، مهلا اما تمشى على مهل

وفي رثاء حلب يقول ابن العديم :

هو الدهر ماتبنيه كفاك يهدم	وان رمت انصافا لديه فتظلم
اباد ملوك الفرس جمعا وقيصرا	واصمت لدى فرسانها منه اسهم
وافنى بني ايوب مع كثر جمعهم	ومامنهم الامليك معظم
وملك بني العباس زال ولم يدع	لهم اثرا من بعدهم وهم هم

وعلى هذا النمط من تعداد الاقوام الذين اناخ عليهم الدهر منذ غابر الزمان ، قصيدة ابن عبدون الشهيرة في رثاء امارة بني الافطس والتي مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالاثر — فما البكاء على الاشباح والصور
انهاك انهاك لا الوك موعظة — عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب وان ابدى مسالمة — والبيض والسود مثل البيض والسمر

ثم يأخذ في ذكر الاشخاص المشهورين الذين مضوا في التاريخ من لدن الفرس واليونان الى ان يصل الى بني الافطس وانقضاء دولتهم بالاندلس في القرن الخامس الهجري .

اما البحتري فيكشف عن علاقة العداء المستحكمة بين الدهر وذوي الشأن ، فهو مولع بتحطيمهم وا تعاسهم ، يقول :

صنت نفسي عما يدنس نفسي — وترفعت عن جدا كل جبس
وتماسكت حين زعزعني الدهـ — ـر التماسا منه لتعسي ونكسي
وكأن الزمان اصبح محمو — لا هواه مع الاخس الاخس

وممن سلك سبيل الحكمة في مقدمة رثائه الحصري القيرواني في رثاء القيروان حيث يقول :

موت الكرام حياة في مواطنهم — فان هم اغتربوا ماتوا وماماتوا

وهو يعبر عن تجربة صادقة ، فقد اضطر الى التشرد بعد خراب بلده وجاز الى الاندلس مادحا متكسبا . وتكثر مقدمات شكوى الدهر وفعلته بالاقوام في الشعر الجاهلي ، كقول عدي بن زيد العبادي :

ايها الشامت المعير بالدهـ — ـر أأنت المبرأ الموفور
ام لديك العهد الوثيق من الـ — ـايام ام انت جاهل مغرور

اين كسرى كسرى الملوك ابو سـا ... سان ام اين قبله سابـور
وبنو الاصفر الكرام ملوك الـر ... وم لم يبق منهم مذكـور

وهذا النوع من المقدمات يكسب القصيدة شيئا من الرزانة والوقار اذ ان الشاعر فيها يبدى تجلدا ويكظم الهه، وحزنه عندما يتأسى بذكر حوادث الدهر الرهيبة فى مختلف العصور .

(٤) مقدمة تقوم على التذكير بحتمية الموت :

يسلك الشاعر هذا السبيل فى مقدمته عندما يكون الحادث هائـلا فيأخذ الشاعر الاسي والاسف حتى يذهل لفترة،ثم يتذكر نهاية كل حـي فيبدأ بذكره . يقول ابن الذئبة في رثاء دولة حمير :

لعمرك ماللفتى من مفـر ... مع الموت يلحقه والكـبر
لعمرك ماللفتى صحـرة ... لعمرك ما ان له مـن وزر
ابعد قبائل من حمـير ... اتوا ذا صباح بذات العبر
بالف الوف وحـرابـة ... كمثل السماء قبيل المطـر

ويقول ابن اللبانة في رثاء امارة بني عباد في الاندلس :

لكن شيء من الاشياء ميقـات ... وللمنى من منائيهن غايـات
والدهر في صفة الحرباء منغمس ... ألوان حالاته فيهااستحـالات

ويقول ابو البقاء لرندى مفتتحا نونيته الشهيرة في رثاءالاندلس :

لكل شيء اذا ماتم نقصـان ... فلايغر بطيب العيش انسـان
هي الامور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته ازمـان
وهذه الدار لاتبقي على احـد ... ولايدوم على حال لها شـان

ولتأكيد حتمية الموت نرى بعض الشعراء يطلق لفظ الموت على المدينة المدمرة حين لاترجي عودتها ثانية . يقول السميسر فى رثاء الزهراء :

وقفت بالزهراء مستعبرا | معتبرا اندب اشتاتا
فقلت يازهرا الا فارجعي | قالت وهل يرجع من ماتا ؟
فلم ازل ابكي وابكي بها | هيهات يغني الدمع هيهاتا
كأنما آثار من قد مضى | نوادب يندبن امواتا

ويقول ابن المعتز فى رثاء سامراء :

قد اقفرت سر من را | ومالشيء دوام
فالنقض يحمل منها | كأنه آجام
ماتت كما مات فيل | تسل منه العظام

والمجهول فى رنده :

فياليت شعرى بعد ماصح موتها | ايرجي على رغم العداة نشورها
ويااملة الاسلام هل لك عودة | لارجائها يشفي الصدور ورودها

هذه هي انواع المقدمات التي برزت فيما جمعته من شعر رثاء الدول والامصار، وهناك قصائد كثيرة اعتمد قائلوها الدخول المباشر فى الموضوع، وهي من اصدق القصائد عاطفة تحس فيها حرارة الانفعال كلما قرأتها ، ومن امثلتها قول بعضهم فى رثاء القدس :

احل الكفر بالاسلام ضيما | يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع، وحمى مباح | وسيف قاطع، ودم صبيب

وقول ابن العسال فى رثاء بربشتر :

ولقد رمانا المشركون بأسهم ... لم تخط لكن شأنها الاصماء
هتكوا بخيلهم قصور حريمها ... لم يبق لا جبل ولا بطحاء
كم موضع غنموه لم يرحم به ... طفل ولا شيخ ولا عذراء

او قول الشاعر المجهول في رثاء الاندلس عند ما غربت شمسها :

احقا خبا من جو رندة نورها ... وقد كسفت بعد الشموس بدورها
وقد اظلمت ارجاؤها وتزلزلت ... منازلها ذات العلا وقصورها
تسلمها حزب الصليب وقادها ... وكانت شرودا لا يقاد نفورها

وغير هذا كثير . . . كقصائد ابن الابار في بلنسية ، ورثاء اشبيلية وغير ذلك .

المبحث الثاني : الالفـــاظ

الكلمة عنصر رئيسي من عناصر البناء الشعرى ، بل هي ركن ركين لكـل عمل ادبي . ومن هنا جاء الاحتفاء بها عند الادباء والنقاد . فالشاعـــر يحرص دائما على توفير الالفاظ التي تنسجم تمام الانسجام مع معانيه ، ولكنـــه لا يوفق في جميع الحالات . ذلك لانه ملتزم بلغة لابد له من الوقوف عنـــد قواعدها وحدودها ، وهذا الامر لا يبيح له ان يخترع اللفظ الذى يريـــده او يشتقه في كل حال . كما انه مرتبط باوزان وقواف تتطلب نوعا خاصا مـــن المعالجة . عندئذ لابد ان يعول الشاعر على معجمه اللغوى لانتخـــاب الالفاظ التي تناسب غرضه ، ثم يجتهد في توفير جو من الالفة والالتئام بـــين هذه الالفاظ بحيث يسمح لها ان تشع اكبر قدر من المعاني الكلية المتداخلة بالاضافة الى شحنة من الصور والظلال والايقاعات الموحية التي تتناســـق مع الجو الشعورى الذى يريد ان يرسمه . وبهذا يستطيع الشاعر المبدع ان ينتج من الكلمات العادية قطعا سحرية يعطيها من روحه قوة وحيوية حـــتى يجعلها تتسع لمشاعره وعواطفه واحاسيسه التي يريد نقلها الى السامعـــين . فالكلمات لها في ذاتها دلالات معينة ، فقد يكون للكلمة الواحدة من الفضل والمزية فى موقع من مواقع الكلام ما ليس للكلمة نفسها فى موقع آخر ، والكلمة هـــى الكلمة ، والجرس هو الجرس ، والحروف هي الحروف (١) . فالكلمات اذن ليســـت مجرد رموز للافكار والمعاني وانما هي كائنات حية يجرى فيها الشاعر عملـــه فهي اشبه ما تكون بالالوان عند الرسامين ، على طبيعة اختيارها وتناسقهـــا يتوقف النجاح او الاخفاق .

وفي شعر رثاء الدول والامصار ـ الذى بين ايدينا ـ نلاحظ تركـــيز الشعراء على الالفاظ الموحية ذات الدلالة الشعورية ، والمعاني المكثفـــة

(١) انظر: عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الاعجاز: ٣٢ - ٣٥ .

المتشابكة ليستطيعوا تفريغ همومهم واحزانهم ونقلها الى السامعين اولتأكيد معنى من المعاني الرثائية وبلورته بصورة بعيدة عن الجفاف .

يقول الخريمي في رثاء بغداد :

قفراء خلاء تعوى الكلاب بها	ينكر منها الرسوم زائرها
واصبح البؤس مايفارقها	الفا لها والسرور هاجرها

فاختياره الموفق للالفاظ المتقاربة اشاع جوا من الشعور بالوحشة يجعل السامع يقف واجما مفكرا في العظمة المحطمة، فهو ازاء طلل حزين مقفر اضحى مأوى للكلاب بعد ان كان قبل مدة قصيرة سريرا للملك . فالقفر والخلاء يكملان بعضهما في اعطاء معنى الخلو من كل انس بحيث يتصور السامع انه واقف ببيداء موعبة، وليزيد الرعب قوة جعل الكلاب تعوى بها والعواء غير النباح الطبيعي ، ولايفعله الكلب الاعند خوفه او المه، ثم جاء بالطباق بين البؤس الملازم والسرور المفارق ليعمق معنى الوحشة بمزيد من السكون والصمت الرهيب .

اننا نلاحظ سيلا من المعاني يقفز الى الاذهان من جراء تناسق الاصوات، ونلاحظ هذا ـ ايضا ـ جليا في رثاء البحترى للقصر الجعفرى حيث يقول :

ولم ار مثل القصر اذ ريع سربه	واذ ذعرت اطلاؤه وجآذره
واذ صيح فيه بالرحيل فهتكت	على عجل استاره وستائره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة	بشاشتها والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا اليه بهاءها	وبهجتها والعيش غض مكاسره

وفي وقوفه على ايوان كسرى كذلك :

فكأن الجرماز من عدم الانـ	ـس واخلاله بنية رمس
لو تراه علمت ان الليالي	جعلت فيه مأتما بعد عرس

وهو ينبيك عن عجائب قــوم   لا يشاب البيان فيهم بلبــس
يتضني من الكآبـة اذ يبــ   ـدو لعيني مصبح او ممســي
مزعجا بالفراق عن انس الــف   عز او مرهقا بتطليق عــرس

ففي الابيات الاولى نجد ان الصورةالتي برزت من خلال تشابك العلاقات بين الالفاظ وانسجامها قد انطبعت في ذهن السامع او القارىء بشكل حركة مضطربة مرتجفة تزيد من سرعة دقات القلب .

وقد تمكن البحتري من رسم هذه الصورة باستخدامه لمعجم الالفــاظ البدوى الصحراوى ، فالسرب والاطلاء والجآذر ريعت وذعرت ، والقصر هنــا بيت من الشَّعَر يصاح فيه بالرحيل على سمت اهل البادية . وكلمتــا الروع والذعر تحمل معاني نفسية كبيرة للخوف والحيرة والتحفز ، فهذا الموقـف يشبه العقدة في القصة ثم تنحل هذه العقدة في البيت الثاني بالعبــارة النابضة (صيح بالرحيل) اذ ان الرحيل هو الذى يعقب الحيرة والتحفــز وبخاصة بالنسبة للاطلاء والجآذر التي لا حول لها ولاقوة .

ولفظ (صيح) بجرسه الرنان اعطى صورة نشطة للسرعة المصحوبــة بالضجيج والاضطراب وهتك الاستار والستائر ، ولو استعمل جملة (نودى) مثلا بدل صيح لما ناسبت عبارة (على عجل) التي في الشطر الثاني لما فيها من البطء اضافة الى عدم الانسجام الصوتي .

وبعد ان يغدو القصر خاويا خربا تهدأ الحركة ، فيأتي مجال الالفاظ العذبة الرقيقة لبيان ماكان يحويه ذلك القصر ايام سودده من العظائــم كبشاشة الخلافة ، وزهرة الملك ، وبهاء الدنيا كلها . . .

والملاحظ ان هذه الالفاظ توحي - ايضا - بالهدوء والدعة ، فالطلاقــة والبشاشة ، البهاء ، والعيش الغض . . . وذلك لتظهر المفارقة المحزنــة من خلال حالة الرعب والاضطراب الراهنة وحالة الامن والرفاه السابقة .

ومثل هذا التناسق الصوتي الجميل نجده - ايضا - في الابيات السينية حيث صنع البحتري من الالفاظ العادية المألوفة صورة ناطقة للايوان ، وهــذه

هي مهمة الشاعر العبقري ان يفجر ماهو مألوف لينتج منه جديدا ، وبذلك تجتمع له الاصالة والطرافة . فالايوان ضخم عظيم الصنعة ينبيء بعظمة الباني ، غير انه موحش ناطق بصمت المقابر . والشاعر هنا يحاول تجسيم هذا الصمت الكئيب من طريق الالفاظ الموحية بمعاني البؤس ، فيأتي بالطباق بين العرس والمأتم ، حيث تفتح هاتان اللفظتان للسامع آفاقا يتطلع من خلالها الى الانقلاب المريع الذى حصل للايوان فصبغه بكآبة المفارق للاحباب او النادم على تطليق عرسه . ولما كانت هذه الكآبة مستمرة استمرار الايام ومتجددة على الدوام جاء بالطباق الاخر " مصبّح او ممسّى " كما نلاحظ ان الشاعر استعمل كلمات : الفراق ، الازعاج ، الارهاق التي هي من خواص الاحياء ليلون الصورة بما يزيدها تأثيرا في النفوس .

واحيانا تأتي الفاظ الشاعر مشبعة بالدلالة النفسية ، وذلك عندما يكون هو نفسه قد غرق في لجة الحدث الفاجع ، حيث يتسرب شعوره الداخلي الى الفاظ قصيدته ، كقول ابن الرومي في وصف ماحل باهل البصرة على يد الزنج :

ووجوه قد رملتها دماء	بابي تلكم الوجوه الدوامي
وطئت بالهوان والذل قسرا	بعد طول التبجيل والاعظام
فتراها تسفي الرياح عليها	جاريات بهبوة وقتام
خاشعات كأنها باكيات	باديات الثغور لا لابتسام

ان اختياره للوجوه ـ تلك الاجزاء العزيزة لبني الانسان ـ له دلالته النفسية لان الوجوه هي المواضع التي تظهر عليها مختلف الانفعالات ، والتي جاء الشاعر بطرف منها هاهنا . ومن ثم ينفذ ابن الرومي من خلال وصف الوجوه الى تكوين صورة عامة للاذلال والقهر .

فتلك الوجوه التي كانت موضعا للتبجيل والاعظام لطختها الدماء وامتزجت بها الرمال ، ووطئت بالهوان ، وكلمة وطئت جاءت متمكنة في موضعها فاشعت بكل مايخطر على البال من معاني الذل والارغام ، كمانها

ذات دلالة نفسية لدى الشاعر والمستمع، فهي قطعة من نفس الشاعر ومهما حاولت ان تستبدل بها كلمة اخرى فلن تجد ، واذا وجدت فلن يكون الوقع متماثلا . والمستمع او القارئ يدرك بذوقه وحسه مرامي هذه الكلمة ومدى تأثيرها ولكنه لا يمكن ان يفرغ كل ما احاط به من معانيها اذا اراد التعبير عن احساسه بواسطة الكلمات . وكذلك بالنسبة لكلمة خاشعات وانسجامها مع باكيات وباديات فانها نبضة الم من قلب الشاعر الذى احس بالذلة والخسف نتيجة لتمثله تلك التجربة المريرة .

ويقول المجهول في رثاء طليطلة :

لقد خضعت رقاب كن غلبا	وزال عتوها ومضى النفور
وهان على عزيز القوم ذل	وسامح في الحريم فتى غيور
اديلت قاصرات الطرف كانت	مصونات مساكنها القصور
وكان بناءو بالقينات اولى	لو انضمت على الكل القبور
لقد سخنت بحالتهن عين	وكيف يصح مغلوب قرير

وهنا ـ ايضا ـ يريد الشاعر ان يبرز مقدار الذى الذى لحق بالناس من جراء سقوط مدينتهم بيد الكفار، فجاء بلفظ الخضوع الذى يحمل معنى الانحناء، والطاعة واسنده الى الرقاب التي كانت مشرئبة بالعز نافرة من الضيم فتقبلته وسلمت له امرها على الرغم من مقتها له ، وهنا تكمن دلالة كلمة الخضوع اذ ان اكراه الانسان على مالا يحب او مالا يطيق هو ابشع انواع الذل والقهر والتحطيم النفسي . . . وهكذا تستمر الابيات مصورة تهدم القمم الشامخة . فعزيز القوم يستمرئ الذل ، والفتى الكريم الغيور يغضي على انتهاك المحارم . ولا تخفى الدلالة النفسية لهذه الالفاظ، فهي تشف عن الالام والهموم العظيمة التي تتلجلج في نفس الشاعر والتي لا يتردد معها في تمني الموت ليهرب من جحيم شقائها .

وفي رثاء الاندلس بعد استكمال سقوطها يقول المجهول الاخر :

منازلها مصدورة وبطاحها — مدائنها موتورة وثغورها
تهائمها مفجوعة ونجودها — واحجارها مصدوعة وشغورها
وقد لبست ثوب الحداد ومزقت — ملابس حسن كان يزهو حبورها
فاحياؤها تبدى الاسى وجمادها — يكاد لفرط الحزن يبيد ضميرها
فلو ان ذا الف من البين هالك — لذابت رواسيها وغاضت بحورها

وفي القصيدة نفسها يقول :

ترى للاسى اعلامها وهي خشع — ومنبرها مستعبد وسريرها
ومأمومها ساهي الحجى وامامها — وزائرها في مأتم ومزورها
لها حال نفس قد اصيب فؤادها — وبتت لها اليمنى وحم ثبورها
فانفسها في الصعق دون افاقة — كنفس كليم الله اذ دك طورها
وقد رجفت وادى الاشي فبقاعها — سكارى وما استاكت بخمرثغورها

ان المتأمل لهذه الابيات يدرك ان قائلها قد التصق ببلاده التصاقا شديدا ، فقلبه متصدع لهوانها ، ونفسه منكسرة لذلها وضياعها ، ونلمس اثر ذلك جليا في تعاطفه مع الكلمات التي استعملها ، فقد جاءت رقيقة مفعمة برنين الاسى ، ومتشابكة الوشائج يجرى من خلالها سيل من المشاعروالمعاني فهذا الجرس الحزين للسجع الذى ينساب سليقة في البيتين الاولين يسمعنا زفرات المنازل والبطاح المصدورة ، وعويل المدن والثغور الموتورة والحجارة المصدوعة . والطباق الحاصل من لبس ثوب الحداد وخلع الملابس الزاهية وتمزيقها يجعل السامع يتيه في آفاق بعيدة من التفكير ليتصور المعاني التي رافقت هذا التحول الخطير الذى كادت ـ لروعته ـ تغيض البحار وتخر الجبال هدا . ثم نرى لسان الشاعر الحانية تمر على الصوامت فتبعث فيها الحياة ، ولكن بدون صخب ولا ضجيج :

ترى للاسى اعلامها وهي خشـــع ومنبرها مستعبد وسريرهـــا
ومأمومها ساهي الحجى وامامهـــا وزائرها في مأتم ومزورهـــا

انه الخشوع والخضوع الذى يلف الاعلام الشامخة والمنبر المنيف ثـــم المأتم الحزين الذى يلف الجميع في شرود مستعبر ، فكلمة خشع اثارت فـــي الذهن معنى الوجوم والاستغراق في التفكير لاخذ العبرة والعظة .

ويقول اسامة بـن منقذ في رثاء قومه حينما اهلكتهم الزلازل :

ذهبوا ذهاب الامس مامن مخبر عنهم ، وزالوا كالظلال الزائـل
وبقيت بعدهم حليف كآبـــــة مستورة بتجمـــل وتحامـــل
سعدوا براحتهم وها انا بعدهم في شقوة تضني وهـم داخـل

فاستعماله لعبارة (ذهاب الامس) ومناسبتها لزوال الظـــلال اعطت المعنى الذى يريده قوة وزخما حيويا . يقف السامع معه على صـــورة الاضمحلال التام الذى لاترجى بعده عودة ، ولذا حق لنفس الشاعـــر ان تحالف الكآبة والهم المستمر الذى يحاول اخفاءه بالصبر والتحمل . وجـــاءت كلمة (مستورة) حسنة الموقع لمناسبتها للذهاب واليأس حيث لا فائدة مـــن الاعلان والبوح .

ومن الالفاظ ذات الدلالة النفسية ـ ايضا ـ قول الغزولي في رثـــاء دمشـــق :

لهفي على وادى دمشق ولطفـــه وتبدل الغـــزلان بالثـــيران
وشكا الحريق فؤادها لمـــا رأت نور المنازل ابدلت بدخـــان
كانت معاصم نهرها فضيـــــة والان صرن كذائب العقيـــان
ماذاك الاتركهم ولجت بهـــــا فتخضبت منها باحمر قـــان
كزهت جداولها حوافر خيلهــــم فتسابقت هربا كخيل رهـــان

انه يريد ان يبين فظاعة الاعمال التي ارتكبها جنود التتار بحق المدينة واهلها فاظهر ذلك عن طريق تأثر الوادي والنهر والمنازل .... ففؤاد المدينة يشكو من حرارة اللهب ومرارة الدخان وماهذه الشكوى الا صدى لشكوى فؤاد الشاعر المشتعل الما وحزنا ، وهذه الجداول التي اشمأزت من حوافر خيل المغول ثم ولت هاربة بسرعة ، ماهي الاصورة للكراهية والخوف الكامنين في نفس الشاعر ونفوس الناس .

ويعبر ابن شرف القيرواني عن شعوره بالوحشة من ديار القيروان المقفرة بقوله :

كأن الديار الخاليات عرائس	كواسد قد ازرت بهن الضرائر
اذا اقبل الليل البهيم تمكنت	بها وحشة منها القلوب نوافر
ويمتد عمر الصوت فيها وربما	تجود مرارا بالكلام المقابر

فقد شبه الديار الزاهرة بعد تجردها من كل مظاهر الزينة والجمال بالعرائس اللواتي تهدم جمالهن لتبذلهن ولا همالهن الزينة بسبب كيد الضرائر لهن ، وكلمة العرائس هنا شفت عما كانت عليه ديار القيروان من الجمال والحضارة قبل خرابها . اما الان فالصورة صورة الصمت الموحش الذي يزداد وحشة عندما يوافي الليل بظلامه ، وفي وسط هذه الوحشة التي تروع اللب والقلب ليس هناك مايمكن ان يؤنس الا الكلام ، فاقفل الشاعر هذا الباب بعبارة (يمتد عمر الصوت) حيث لاصدى ولاجواب وبذلك تستكمل الوحشة حتى تفوق وحشة المقابر .

اما الحصري القيرواني فيأتي بصورة جديدة لشعوره بالوحشة بعد خراب القيروان ايضا ، يقول :

ما ان سجا الليل الازادني شجنا	فاتبعت زفراتي فيه انات
ولا تنفست انفا في الرياض ضحى	الابدت حسراتي المستكنات

وكم دعيت لبستان فجدد لـــي وجدا وان كان في معناه سلوات
ولو تراه اذا غنت بلابلـــــه اشكو البلابل لو تغني الشكايات
اني لا ظمأ والانهـــار جاريـــة حولي واضحي ودون الشمس دوحات

انه هنا لايقف وسط ديار خالية، ولا اطلال صامتة، وانما يتجول وسط الرياض والحدائق النضرة بين خرير الانهار وشدو البلابل، فهل استمتــع بشيء من ذلك ؟ كلا لقد اثارت تلك المناظر اشجانه، فراح يمضغ آلامـــه ويطلق زفراته، وقد ادى تجانس الالفاظ وتلاؤمها دوره في تجميل الصـــورة وتناسقها، فالليل هو كهف الاحزان والهموم - كما هو معروف عند الشعراء- فقد اطلق فيه الحصري زفراته واناته، ولكن هذا الشجن هل ينقضـــي مع انقضاء الليل؟ لا انه مستمر متجدد، ولذلك جاء بوقت الضحى - الــذي هو وقت النشاط والسرور - وفي الرياض ايضا، ومع ذلك زاد الزفرات حسـرات وشكايات .

ومن الصور الجديدة في الرثاء استخدام عناصر الطبيعة واستغـــلال صفاتها وخصائصها، كقول ابن اللبانة في رثاء المعتمد بن عباد عنـــد سقوط امارته :

بكاك الحيا والريح شقت جيوبها عليك وناح الرعد باسمك معلما
ومزق ثوب البرق واكتست الضحى حدادا وقامت انجم الجو افحما
وحار ابنك الاصباح وجدا فما اهتدى وغار اخوك البحر غيضا فما طمي

لقد صنع الشاعر من الاشياء المحسوسة المألوفة لكل الناس - كالريـــح البرق، المطر، النجوم . . . . صورة بديعة جعلت الكون كله في مأتم لانقضاء ملك ابن عباد، فكيف تم له ذلك؟

والجواب انه احسن اختيار الكلمات التي تثير اصواتا متناسقةمتجانســة ووفر لها مجالا ملائما بمقدرته الشعرية وذكائه . فالريح تشق الجيوب، وشق الجيب لابد ان يرافقه نواح فجعل الرعد ينوح معلما باسم المرثي . واستعمال

صوت الرعد في النواح امر ابتدعه الشاعر ليوافق الشق ، والا فقعقعة الرعد تقترن عند الشعراء بالصواعق ، وتستخدم في مجال الحرب والقوة وما الى ذلك . ثم يستمر في اكمال صورة المأتم عن طريق سلب الخواص الايجابية للاشياء المستخدمة ، فالبرق يتمزق ثوبه الزاهي فيظلم ، والضحى المشرق والنجوم المشعة تفقد كل قدرة على الاشعاع . . . . والاصباح لا يهدى السارين لما به من الوجد . . . . وهكذا .

ومثل هذه الصور المتعددة بالقصيدة الواحدة ، والالفاظ الشعرية الموحية بالمعاني المكثفة تكثر في شعر الاندلسيين بصفة خاصة وتستأثر بكبير عنايتهم مما جعل المستشرق غارسيه غوس يقول عنهم[1] : " . . . . وعاشوا اعمارهم مكبلين بقيود القوالب الشكلية الجامدة ، ومن ثم لم يستطيعوا ان يدخلوا على الشعر من التغيير الاشياء تمس المعاني مثلهم في ذلك مثل اترابهم من المشارقة ، فحاولوا ان يعطوا هذه المعاني صورا جديدة عن طريق تقطيرها في انابيب بلاغية ، واوغلوا في ذلك حتى استخرجوا منها تلك الزخارف الشعرية التي تشبه ان تكون قصورا حمراء لفظية . . . . ولم يكن هذا الشعر الاندلسي مترعا بالاخيلة فحسب ، بل كان مثقلا بها حمل منها فوق مايطيق ، بل بلغ من حشد المعاني فيه ان استعصى معظمه على الحفظ والبقاء وكاد يعسر على الفهم الكامل " .

ونحن لا ننكر اهتمام شعراء الاندلس باللفظة الشعرية ، وكثرة الصور عندهم الى حد ما ، ولكن ذلك لم يكن الى الدرجة التي يصعب معها فهم القصائد وحفظها ، فالسهولة والوضوح يسمان الشعر الاندلسي ويغلبان عليه ، ونادرا ماتجد فيه مضامين فلسفية تحتاج الى كد ذهن . على ان هذا لا يعني السطحية بحال . ولعل الذى دفع غومس الى رأيه ذاك هو طبيعة الشعر العربي - ومنه الاندلسي - الذى يهتم باستقلال البيت ووحدته ومن هنا كثرت الصور والمعاني وتجاورت في غير اندماج كامل .

---

(١) الشعر الاندلسي : ص ٢٥ .

ويقول ابن اللبانة ـ ايضا ـ في بني عباد :

تبكي السماء بدمع رائح غادى	على البهاليل من ابناء عباد
على الجبال التي هدت قواعدها	وكانت الارض منهم ذات اوتاد
وكعبة كانت الامال تعمرها	فاليوم لا عاكف فيها ولا باد
ياضيف اقفر بيت المكرمات فخذ	في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد
ويامؤمل واديهم ليسكنه	خف القطين وجف الزرع بالوادى
ضلت سبيل الندى يابن السبيل فسر	لغير قصد فمايهديك من هادى

وفي صورته هنا شبه كبير من سابقتها ، فهي صورة المجد الزائل والمآثر العظيمة التي افتقدت بزوال بني عباد من دنيا الناس . وقد جاء المطلع مناسبا للمقام لما فيه من الفخامة وقوة الجرس . فالسماء تبكي بدمع مدرار لا ينقطع . وقد تعمد الشاعر جعل السماء تبكي وتذرف الدمع ولم يجعلها تسح الوابل وتسقي الاثار ، وذلك لمناسبة لفظة البهاليل المجلجلة بالهالة العظيمة ، ثم يضيف الى البهاليل لفظة اخرى تزيدها قوة وهي لفظة الجبال .

ومن الجدير بالذكر ان وصف الميت بانه جبل قديم في الشعر العربي وبخاصة في شعر النساء لشعورهن بالضعف والحاجة الى الحماية.(1) ولكن ابن اللبانة لم يكتف بالسير على طريق السابقين ، وانما جاء بصورة جديدة اوسع واشمل في المعنى ، وذلك لحسن الموقع الذى اختاره لكلمة الجبال ومناسبته لما بعده . فاذا كان الشاعر القديم يصف مرثيه بالجبل لعلاقته الشخصية به فان شاعرنا جعل بني عباد جبالا حقيقية تثبت الارض وتمنعها ان تميد ، ولهذا جاء بعبارة (هدت قواعدها) لتوحي بعظم الخطب وشموله

---

(1) كقول فاطمة بنت الاحجم في رثاء زوجها :

قد كنت لي جبلا الوذ بظله ... فتركتني اضحى باجرد ضاح

انظر عبد البديع صقر ، شاعرات العرب : ص٢٩٦ .

لجميع الناس فذوو الامال لم يعد لهم امل يرجون تحققه ، والضيوف وابناء السبيل تفرقت بهم السبل ، واوحشتهم المنازل .

ولعلنا نلاحظ الفرق بين هذه الصورة والصورة التي رسمها ابن حمديس الصقلي باستخدام لفظ الجبال في رثاء ابن عباد ايضا ، يقول :

ولما رحلتم بالندى في اكفكم　　　وقلقل رضوى منكم وثبير

رفعت لساني بالقيامة قد اتت　　　الا فانظروا هذى الجبال تسير

فالالفاظ هنا اقل اشعاعا وايحاء بمعاني النكبة ، واين قول ابن حمديس (قلقل) ، و(هذى الجبال تسير) من قول ابن اللبانة (على الجبال التي هدت قواعدها ....) ان كلمة (قلقل) لاتعطي معنى العنف والسحق الذى يستحقه موقف مثل هذا قامت فيه القيامة ، وعبارة (هذى الجبال تسير) لم تكن متمكنة في موقعها لان الشاعر جاء بها مضطرا ليكمل معنى الشطر الاول ، اذ لابد للقيامة من شاهد هو سير الجبال .

واما قول ابي بكر بن عبد الصمد في الموضوع نفسه :

يا ايها القمر المنير اهكذا　　　يمحى ضياء النير الوقاد

ماكان ظني قبل موتك ان ازر　　　قبرا يضم شوامخ الاطواد

فقد استعمل لفظ الاطواد بدل الجبال لما فيه من معنى العلو والفخامة ليناسب الشموخ الذى ازدرده قبر ضيق ، الامر الذى لم يخطر على بال الشاعر لغرابته . ولعل المنعم للنظر في البيتين يجد تناسبا دقيقا وخفيا في معنى الرفعة والعلو جاء من قوله " القمر المنير" الذى فيه معنى العلو والضياء ، وذهاب نور القمر ناسب ضم القبر للاطواد الشوامخ .

وهو هنا يذكر القبر لان البيتين من قصيدة قيلت بعد موت ابن عباد اما قصائد ابن اللبانة وابن حمديس فقيلت عندما استولى المرابطون على الاندلس كلها ، وساقوا بني عباد وغيرهم اسارى الى المغرب .

واذا ما انتقلنا الى شعر الاستغاثة والاستصراخ نجد الشعراء يستعملون نوعين من الالفاظ : نوع تغلب عليه الفخامة وقوة الجرس عندما يكون الموقف يتطلب بث الحماس والنخوة في نفس المستغاث به ، واشعاره بقدرته على النجدة ، ونوع آخر طابعه الرقة والسلاسة ، عندما يقف الشاعر موقف الملهوف المستجدي للغوث من طريق تعداد الفواجع والمصائب النازلة ببلاده وقومه .

ومن النوع الاول قول ابن عياش :

اقيموا الى العلياء عوج الرواحل	وقودوا الى الهيجاء جرد الصواهل
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر	وشدوا على الاعداء شدة صائل
فما العز الا ظهر اجرد سابح	تموت الصبا في شدة المتواصل
وابيض مأثور كأن فرنده	على الماء محبوك وليس بسائل
بجيش يظل الطير في حجراته	وتحجب عنه الشمس سحب القساطل
ويطلع ليل النقع فيه كواكبا	من البيض او من مرهفات المناصل
ويضحي به بحر الدماء مفجرا	باسمر عسال وابيض ناصل

فالسجع والتصريع في مطلع القصيدة مع افعال الامر : اقيموا ، قودوا ، قوموا ، شدوا . . . . ذات الاحرف الشديدة اشاعت حالة من الشعور بالقوة تجذب المخاطب جذبا وتدفعه الى الشد على الاعداء . وتستمر الموسيقى قوية والالفاظ فخمة ، للمحافظة على الحالة نفسها فيأتي الشاعر بلفظ (العز) الذي يشتمل على معان كثيرة ، ويجعله متمثلا في الحرب والجهاد . ويرسم من الالفاظ الحربية صورة متحركة نشطة لذلك العز ، فالاجرد السابح يطير مسابقا الريح ، والفرند المحبوك ، والابيض الناصل والاسمر العسال تلمع في ليل من القتام وتهوي مفجرة بحور الدماء .

ويقول ابن حمديس في حث قومه على حرب الاعداء :

زبانية خلقوا للحروب ... يشبون نيرانها بالوقود
مساعرهم مرهفات بنين ... لهد الجماجم من عهد هود
هم المخرجون خبايا الجسوم ... اذا ضربوا بخبايا الغمود
تخط حوافر من جرد هم ... محاريب مبثوثة في الصعيد
تخر رؤوس العدى في الوغى ... لها مسجدا ياله من سجود

والشاعر هنا لايستعمل اسلوب الحث المباشر كسابقه، وانما يلجأ الى اذكاء مشاعرهم والهابها عن طريق الوصف الموحي بالقوة، والخبرة والشجاعة، فهم زبانية حروب . وهذه اللفظة تحمل معنى الامتزاج ولهذا جاء بعدها بعبارة " خلقوا للحروب" التي يتبادر الى الذهن عند سماعها طائفة من معاني الاعتياد والممارسة وعدم الرهبة . . . الخ ولمناسبة كونهم زبانية جاء بلفظ مساعر، وجعلهن مرهفات تهد الجماجم لترتبط بلفظ الحروب، ولتكتمل صورة الممارسة والخبرة الحربية جاء بمظهر من مظاهر قوة الفرسان تلك هي الخيل الجرد التي تحفر الصعيد بحوافرها على شكل محاريب تسجد فيها رؤوس الاعداء . ولفظة محاريب اعطت لحوافر خيلهم صفة الصلابة والقوة التي تناسب الجو العام للابيات.

ومن النوع الثاني سينية ابن الابار في الاستنجاد بالاميرالحفصي ومنها:

ادرك بخيلك خيل الله اندلسا ... ان السبيل الى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ماالتمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاش مماتعانيه حشاشتها ... فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
ياللجزيرة اضحى اهلها جزرا ... للحادثات وامسى جدها تعسا
صل حبلها ايها المولى الرحيم فما ... ابقى المراس لها حبلا ولامرسا
واحي ماطمست منهاالعداة كما ... احييت من دعوة المهدى ماطمسا
هذى رسائلها تدعوك من كثب ... وانت افضل مرجو لمن يئسا

فالشاعر هنا يقف فزعا مرعوبا امام الامير الحفصي ، ويحاول ان يثير عاطفته بالمثير المناسب، فلم يجد افضل من البداية بشرح الحالة الراهنة التي تستدعي علاجا فوريا ، فقال : (ادرك بخيلك) ، ثم جعل هذه الخيل هي خيل الله ليعطيها صفة الاستعداد للدفاع عن ارض المسلمين اينما كانت ، ويتبع ذلك بقوله : (هب لها من عزيز النصر) ولفظ هب يوحي بقدرة الامير على منح النصر بسهولة . ثم تخفت الموسيقى بعد ذلك وتسرق الالفاظ لتناسب الجال الذى يحلق فيه الشاعر فنجد الكلمات : حاشى حشاشتها ، البلوى ، جزرا للحادثات . . . حيث نقف من خلال اشعاعاتها على المعاني الجزئية الكثيرة التي تتدافع لتكون صورة البلاء الشامل المستمر الذى لاينجلي الابنجدة الامير ، فيقول الشاعر فى استعطاف وخضوع (صل حبلها ايها المولى الرحيم) والوصل فيه معني المودة و العطف ، ولا يكون الا من قادر على ضعيف فناسب ان يخاطبه بلفظ المولى الرحيم .

واما لسان الدين بن الخطيب فيسلك مع المستغاث به سبيل المدح حين يقول :

قصدناك يا خير الملوك على النوى	لتنصفنا فما جنى عبدك الدهر
كففنا بك الايام عن غلوائها	وقد رابنا منها التعسف والكبر
ولما اتينا البحر يرهب موجه	ذكرنا نداك الغمر فاحتقر البحر
ووصفك يهدى المدح قصد ثوابه	اذا ضل في اوصاف من دونك الشعر

فالابيات كلها مدح ، ولعل ابن الخطيب وجد ان المدح هو الطريق الامثل لهز اريحية ذلك الملك ، فجعله صورة متكاملة للعظمة ، فلعزته القى الدهر بالقياد ، وهذه صورة جديدة للدهر ، ففيما مر بنا من شعر رأينا الدهر هو المتسلط الذى يدك عروش جبابرة الملوك ، اما هنا فهو عبد يقتص منه سيده انصافا لعن ظلمهم ، وقد مهد الشاعر لهذه الصورة بانتقاء الفاظ الشطر الاول ، فقوله (قصدناك ، على النوى) يدل على اصطفائه

لذلك الملك من بين ملوك الدنيا على الرغم من بعده ، ثم يستمر في بسط الاوصاف التي ليست في مقدور البشر كقوله : (كففنا بك الايام . . . .) ، (ذكرنا نداك الغمر فاحتقر البحر . . .) (ووصفك يهدى المدح . . .) وهو يريد من ذلك افراد هذا الملك بصفات لا يستطيع احد بلوغها ، ومن ثم فلا قوة تقف في طريقه ، فهو اذن خير منجد للمستغيثين وذلك هو مطلب الشاعر .

المبحث الثالث : الاوزان والقوافي

الموسيقى الشعرية عصب حيوي في بناء اسلوب القصيدة العربية، وتلاحم اجزائه، فهي تمتزج بالالفاظ امتزاجا يصعب معه الفصل بينهما، ومن حقهما ان يدرسا معا، ولكنا فصلنا بينهما هنا لامر تقتضيه الدراسة التفصيلية فحسب . والدارس للشعر العربي يدرك قيمة الجرس الناتج عن وقع اللفظة في الاذن وكيف يزيد موسيقى القصيدة جمالا وقوة. ومن هنا جاءت عناية الشعراء ببعض المحسنات البديعية كالجناس والمقابلة ورد العجز على الصدر اكثر من غيرها ،وذلك لما فيها من رنة موسيقية ذات تأثير حسن وبخاصة اذا جاءت عفوية . فما الجناس الا تفنن في طرق ترديد الاصوات في الكلام حتى يكون له نغم موسيقى تستلذه الاسماع، اما المقابلة فلها دورها في شد اواصر التناسق الموسيقى حينما تعمل على توازن كل لفظ مع اللفظ المقابل له في العبارة التالية . وكذلك في رد العجز على الصدر الذي يقوم على ترديد كلمة او كلمات بعينها في صدر البيت وعجزه . فانه بالاضافة الى اظهار العناية بالكلمة المكررة لفظا ومعنى يزيد من رنة الاوزان . كقول ابن الابار :

صل حبلها ايها المولى الرحيم فما   أبقى المراس لها حبلا ولا مرسا

فترديد كلمة (حبل) في الشطرين زاد نغمة البيت، ومهد للقافية (مرسا) التي هي بمعنى الحبل ايضا .

وقول ابن شهيد :

ما في الطلول من الاحبة مخبر   فمن الذى عن حالها نستخبر

وغير ذلك كثير . واحيانا يستعين الشاعر بتكرار بعض الحروف ، أو الكلمات التي تكسب البيت لونا من الموسيقى تستريح له النفس وتقبل عليه

كتكرر حرف السين في شطر بيت البحتري ـ مثلا . " صنت نفسي عما يدنس نفسي . . . . " فانه رغم كثرة وروده قد حسن موسيقى الشطر لكونه وقع في مواضع موفقة منه من غير تعمد من الشاعر اوان النظم .

وفي الغالب يتحقق نجاح الشاعر عندما يوفق لبحر يلائم معانيه والفاظه، لانه قد حصل بذلك تكامل بين اجزاء القصيدة الرئيسية. فالى اى مدى تحقق هذا التكامل في شعر رثاء الدول والامصار ؟ انه من الاستعراض الشامل لاوزان القصائد والمقطوعات الرثائية التي وردت في هذا البحث، تبين ان اكثر البحور التي ركبها شعراء المراثي كانت من ذات الاوزان الطويلة، والتفاعيل الكثيرة كالبحر الطويل[١] والبسيط[٢] وغيرهما ، فقد جاءت على البحر الطويل اربع وعشرون قصيدة، وعلى السبيط ثلاث وعشرون ، وهذان البحران من دائرة عروضية واحدة[٣] .

ويليهما في نسبة الشيوع البحر الكامل[٤]، والوافر[٥]، فعلى الكامل جاءت ثماني عشرة قصيدة وعلى الوافر سبع قصائد ، وهما ايضا من دائرة عروضية واحدة . ثم بعد ذلك تتفرق القصائد على عدد من البحور كالخفيف[٦] والمتقارب[٧] والرجز[٨] والسريع[٩] . . . بنسب متفاوتة ولكنها اقل عددا مما تقدم

---

(١) وزن البحر الطويل :
فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن   فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

(٢) وزن البحر البسيط :
مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن   مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد : ٣/١٦٣ ، عبد العزيز عتيق ، علم العروض والقافية : ٢٦

(٤) وزنه : متفاعلن متفاعلن متفاعلن   متفاعلن متفاعلن متفاعلن

(٥) وزنه : مفاعلتن مفاعلتن فعولن   مفاعلتن مفاعلتن فعولن

(٦) وزنه : فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن   فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن
وجاءت عليه تسع قصائد .

(٧) وزنه : فعولن فعولن فعولن فعولن   فعولن فعولن فعولن فعولن
وجاءت عليه اربع قصائد .

(٨) وزنه : مستفعلن مستفعلن مستفعلن   مستفعلن مستفعلن مستفعلن
وعليه خمس قصائد .

(٩) وزنه : مستفعلن مستفعلن فاعلن   مستفعلن مستفعلن فاعلن
وعليه ثلاث قصائد .

ولم تستخدم مجزوءات البحور الا على نطاق ضيق جدا حيث جاءت عليها مقطوعتان فقط الاولى من مجزوء[1] الرمل ، والثانية من مجزوء[2] البسيط .

وامام هذه الظاهرة لابد ان نتساءل ، هل يمكن ان توجد علاقة بين انفعالات الشاعر النفسية ووزن قصيدته ؟

ان نظرة فاحصة للحالة التي يكون فيها الشاعر تكشف عن وجود مثل هذه العلاقة ، فالشاعر الذي يشهد مدينته وهي تتحطم وتنهار على ايدى الاعداء ، تتحطم في نفسه كل الامال ، وتسود الحياة في عينيه ، ويصبح عيشه في دوامة مضطربة من الهم والحزن والالم . ولهذا فهو بحاجة الى وزن طويل يتسع لما في صدره من انات و زفرات يود اطلاقها ليشفي نفسه من احراقها فيأتي شعره من البحر الطويل او البسيط الذي يمكنه مع انشادها التأوه واعادة النفس بعد كل بيت او في وسطه . كقول المعتمد بن عباد من الطويل :

غريب بارض المغربين اسير سيبكي عليه منبر وسرير

اننا نتصوره هنا وقد جلس مكتئبا ينظر في حاله ، فاذا هو غريب اسير وتمتد به الذكرى فيرى منبره وسريره يبكيانه في صفار يائس . وهنا لابد ان تكون حالته هذه ، وذكراه تلك قد ولدتا في نفسه سلسلة طويلة من الهموم والاحزان لايحتملها البحر الطويل ، ومن هنا جاء نجاح القصيدة وقوة تأثيرها .

وقوله ايضا من البحر نفسه :

بكيت الى سرب القطا اذ مررن بي سوارح لاسجن يعوق ولاكبل

---

(١) وزنه : فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

(٢) وزنه : مستفعلن فاعلن مستفعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن

فهو يبكي من هول سجنه وقيده عند ما اثار شجنه سرب من القطا طليق يمرح في الفضاء الرحب . فالمفارقة الكبيرة الحاصلة من الموقفين شحنت نفسه بآلام محرقة قذفها في البحر الطويل ايضا .

واما الوراق عند ما يقول :

من ذا اصابك يابغداد بالعين   الم تكوني زمانا قرة العين

فهو في حالة ذهول وتعجب مصحوبين بالاحزان السوداء لما اصاب بغداد من الخراب بعد ان كانت "قرة العين" زمنا طويلا ، وعبارة قرة العين تحمل معاني كثيرة عند تدقيق النظر فيها . ولهذا اجاء البحر البسيط لتحمل عليه هذه المعاني بكل ماتثيره من انفعالات هادئة .

ويزيد الدكتور ابراهيم انيس الامر تفصيلا بقوله[(١)]: " .... اننا نستطيع ونحن مطمئنون ان نقرر ان الشاعر في حالة اليأس والجزع يتخير عادة وزنا طويلا كثير المقاطع يصب فيه من اشجانه ماينفس عنه حزنه وجزعه ، فاذا قيل الشعر وقت المصيبة والهلع تأثر بالانفعال النفسي ، وتطلب بحرا قصيرا يتلاءم وسرعة التنفس وازدياد النبضات القلبية ، ومثل هذا الرثاء الذي ينظم ساعة الهلع والفزع لايكون عادة الا في صورة مقطوعة قصيرة لاتكاد تزيد ابياتها عن عشرة . اما تلك المراثي الطويلة فاغلب الظن انها نظمت بعد ان هدأت ثورة الفزع ، واستكانت النفوس باليأس والهم المستمر" .

ثم يشير الى ان الانفعال النفسي الحاد الذي يصاحب الشعر الداعي الى شن حرب لايمكن الشاعر من الاسترسال واطالة القصيدة[(٢)].

واول مايلفت النظر في كلام الدكتور انيس انه يقرر ان الشاعر في حالة اليأس والجزع يتخير عادة وزنا طويلا كثير المقاطع .... الخ فهل الشاعر هو الذي يختار البحر قبل ان ينظم ؟ ثم يختار المعاني والالفاظ المناسبة

---

(١) موسيقى الشعر : ١٧٨ .
(٢) المرجع نفسه : ١٧٩ .

اختيارا ؟ في نظرى ان هذا الاختيار هو عمل المتكلفين من الشعراء، اما الشعراء المطبوعون ذوو التجربة الصادقة فان الانفعال يقذف مايجيش في صدورهم على السنتهم بشكل كلام موزون على احد بحور الشعر . وللشاعر بعد ذلك ان ينقح ويصحح ويستبدل بالالفاظ غيرها كما يشاء اما البحر فيبقى وزنه كما ولد .

وقوله بان الاوزان الطويلة تناسب النفس الهادئة اليائسة ينطبق على كثير من قصائد الرثاء التي نحن بصددها واما مايقرره بان الشعر الذى يتأثر بالانفعال النفسي يتطلب بحرا قصيرا ، وان النظم حينئذ لايكون الاعلى شكل مقطوعة قصيرة فهذا لم ينطبق تماما على المواقف الشعرية الانفعالية في القصائد التى وقفنا عليها . فهذا ابن اللبانة شاعر المعتمد بن عباد المنقطع اليه ، يشهد عن كثب سقوط دولة سيده الذى احبه حبا جما ويبلغ الانفعال عنده ذروته وهو يقف مع الواقفين على شاطئ النهر ينظر بعين منكسرة الى ملكه الذى القى في السفينة اسيرا مكبلا ، وفي ذلك قال قصيدته التى مطلعها :

تبكي السماء بدمع رائح غادى — على البهاليل من ابناء عباد

وهي من البحر البسيط ذى التفعيلات الثمان ، وقد نيفت على الخمسين بيتا ، وكذلك قصيدة ابن الابار السينية التى قالها امام الامير الحفصي والرعب ملء جوانحه وفرائصه ترعد من هول ماتعانيه مدينته بلنسية على يد الصليبيين ومع ذلك جاءت القصيدة من بحر البسيط وقد بلغت اكثر من سبعين بيتا ومطلعها :

ادرك بخيلك خيل الله اندلسا — ان السبيل الى منجاتها درسا

وقصيدة لسان الدين بن الخطيب التى انشدها مستنجدا باهل المغرب عندما اشتد الحصار النصراني لما تبقى من الاندلس في اواخرايامها والتى بدأها بقوله :

اخواننا لاتنسوا الفضل والعطفا　　　فقد كاد نور الله بالكفر ان يطفا

وهي من بحر الطويل وابياتها تزيد على الثلاثين ، وكان ابن الخطيب في ذلك الوقت وزير الاندلس المشار اليه ، وممن تمسه النكبة مسا مباشـــرا وقصيدة ابن الابار وابن الخطيب ـ كما هو ملاحظ ـ فيها دعوة ملحة لشـــن الحرب على الاعداء ، ومع ذلك اصطبغتا بطول النفس والامتداد . ولعـــل سبب ذلك ان النفس حينما تنفعل تجيش بمعان وصور كثيرة تتدافع متدفقـــة لتمد الشاعر بقوة الاستمرار والاندفاع ، ولربما نظم الشاعر قصيدة طويلـــة قبل ان يهدأ ذلك الجيشان وينضب فيضه .

وكأني بالدكتور انيس قد احس بعدم شمول قواعده المتقدمة فعقب على عباراته السابقة بقوله [1] :

" ويحسن بعد كل هذا الانفرض قواعد معينة يلتزمها الشاعر في تخير وزن من الاوزان تحت تأثير عاطفة خاصة ، وعلى ناقد الادب ان يبحث هـــذا بحثا مستقلا في كل قصيدة . . . . " .

على انه من الانصاف ان نشير هنا الى المقطوعتين اللتين سبق ذكرهما فقد انطبقت عليهما تقريبا قاعدة الدكتور انيس من حيث الوزن وعدد الابيات . فالاولى للوراق الشاعر البغدادي الذي شهد بغداد وهي تحترق في فتنـــة الامين والمأمون ، ورأى الناس يقتلون بعشوائية همجية فيقف صارخا في رمـــاة المنجنيق بانفعال عنيف :

يارماة المنجنيـــق　　　كلكم غير شفيـــق

ماتبالون صديقـــا　　　كان اوغير صديـق

ويلكم تدرون ماتـر　　　مون مرار الطريـــق

---

(١) المرجع نفسه : ٢٨٠ .

والمقطوعة لم تتجاوز ثلاثة ابيات وهي من مجزوء الرمل ، ونحس فيها فعلا حدة التعنيف الذى تزداد معه ضربات القلب .

والمقطوعة الثانية لفتى من فتيان بغداد - ايضا - هاله ان يرى سفلة الناس واوباشهم يملكون زمام الامور ، فيفرضون الضرائب ويهجمون على البيوت الآمنة لسلب كل مايقع تحت ايديهم من مال ومتاع، وكان احد زعماء تلك الفئة يعرف بالهرش وجامع الضرائب يعرف بزريح وفيهما وفي اعمالهما التي ارغمت الناس على الهرب من اوطانهم متعللين بشتى الاعذار يقول شاعرنا :

اظهروا الحج وماينوونه	بل من الهرش يريد ون الهرب
كم اناس اصبحوا في غبطة	وكل الهرش عليهم بالعطب
كل من راد زريح بيته	لقى الذل ، ووافاه الحرب

وهي ايضا ثلاثة ابيات، ومن مجزوء البسط . ولاشك ان الشاعر يصدر عن انفعال قوى وحقيقي ،اذ انه واحد من اولئك الناس الذين حل بهم البلاء واجبروا على دفع المغارم دون ذنب او جريرة .

اما بالنسبة للقوافي فليس ثمة نظام معين في استخدامها ، فقد استعملت معظم حروف الهجاء غير انه من الملاحظ اكثار الشعراء من استخدام القافية المكسورة، مع تعدد احرف الروى ، كالقاف والراء والسين والنون . . . الخ وقد بلغ عدد القصائد ذات الروى المكسور سبعا واربعين قصيدة ويلي ذلك الروى المصحوب بالف الاطلاق حيث استعمل خمس عشرة مرة.اما الروى المضموم فاستخدم مايقرب من اربع وعشرين مرة، وابتعد الشعراء عن القوافي الساكنة الا قليلا ، لانها توحي بالجفاف والصمت الذى لايوافق حال الشاعر المتفجع .

---

(١) بلغ عدد القوافي الساكنة اربع قواف .

ولعل تفضيل الشعراء للكسر راجع الى الانكسار الذى اصاب انفسهم من جراء الحوادث التي عاشوها وتمثلوها ، لان الكسرة عندما تأخذ امتداد حرف الروى تلطفه وتجعله مستساغا ، ولو كان في طبيعته شيء من الثقل كحرف القاف مثلا[1] . اضف الى ذلك ان الصوت الناتج من اشباع الكسرة فيه معنى الانين والتفجع الذى يلائم موضوع الرثاء .

اما الف الاطلاق فانها تعين الشاعر على مد صوته صارخا مستغيثا او باكيا منفعلا يحاول تعميم مايشعر به من حزن والم على جميع من يسمعه .

---

(١) كقول الشاعر :

بكيت دما على بغداد لما ... فقدت غضارة العيش الانيق

المبحث الرابع : الاقتباس والتضمين

يكثر شعراء رثاء الدول والامصار من الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، كما يهتمون بتضمين الابيات الشعرية والحوادث التاريخية وتبرز هذه الالوان في شعر الاندلسيين بروزا يفوق شعر المشرق بكثير وذلك راجع لسببين فيما اعتقد :

اولهما : ان قرب الاندلس من العدو، واستمرار الجهاد فيها ساعد على بروز الناحية الدينية في شعرهم، فطفق الشعراء يحضون على الجهاد ويؤلفون القلوب، ويحذرون من التفريط في بلاد الاسلام، مستمدين ذلك من آيات القرآن واحاديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- .

وثانيهما : ان اسلوب الشعر الاندلسي او الادب الاندلسي بعامة كان يقوم على كثرة الاقتباس والتضمين ، والغوص في التراث التاريخي الاسلامي وغير الاسلامي للاستفادة من احداثه الحقيقية والخيالية حينما يناسب مجال القول . كما كان الاحتفاء بالابيات الشعرية المشرقية والقصائد الذائعة احد مقومات ذلك الاسلوب، ومن هنا كثرت المعارضات الشعرية، واشتهر تخميس القصائد المشهورة وشرحها وما الى ذلك . وقد كان النقاد الاندلسيون يحكمون بالجودة والسبق للاعمال الادبية التي تحفل بالشيء الكثير من تلك الالوان لانها تكشف عن ابعاد ثقافة الاديب في مجالات متعددة، وكأن النظرة هنالك كانت للاديب لا للادب نفسه. وخير مايمثل ذلك قصيدتا ابن عبدون وابي البقاء الرندى ورسالتا ابن زيدون الجدية والهزيلة . فاذا كان هذا هو حال الادب بصفة عامة، فما بالك بالشاعر الذى يرثى بلاده المقهورة الغاربة، ويبكي امته المتشردة الهالكة او يقف امام الملوك والسلاطين طالبا عونهم ونجدتهم . لاشك انه سينثر كل مافي كنانته من ثقافة اسلامية وتاريخية وشعرية ليظفر بالتأثير المنشود ، واى تأثير هو اشد من تأثير القرآن الكريم على النفوس المسلمة، ولهذا نجد الشاعر الاندلسي يستعمل التعبير القرآني ، ويستوحي معانيه على وجوه مختلفة :

ففى حالة الاعتبار من تقلب الدهر يقول الشاعر الدقون :

فلنكرم الان من ينزل بمنزلنا — فالدهر ذو دول فاسمع لامثال
والزهد في هذه الدنيا وزخرفها — والامر بالعرف مع تحسين مقوال

فهو هنا يخاطب اهل مدينة فاس، بعد ان وصل اليها الاندلسيون لاجئين ، حين تم سقوط الاندلس، داعيا اياهم الى الاحسان لهؤلاء المشردين ، فلا يجد افضل من التذكير بمصائب الايام التي لا يؤمن جانبها وهو بذلك يستوحي قوله تعالى [1] :

(ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لايحب الظالمين) .

وقوله تعالى [2] :

(وتلك الامثال نضربها للناس ومايعقلها الا العالمون) .

واما البيت الثاني الذي يدعو فيه لالانة الجانب والسماحة، وطيب الكلام فمأخذو من قوله تعالى [3] :

(خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين) .

وعندما يعتبر الشاعر ايضا بفناء الاشياء العظيمة يلجأ الى القرآن الذى فيه خبر من قبله ، فيجد بغيته .

يقول حازم القرطاجني :

قد اهلك الاحبوش طير قد رمى — جيوشهم بمكة بما رمى
وهد قدما هدهد بنبأ — ماكان هدهاد لبلقيس ابتنى

وهو هنا يشير الى قدرة الله المطلقة على فعل مايشاء، فهو سبحانه

---

(١) سورة آل عمران ، الاية : ١٤٠
(٢) سورة العنكبوت، الاية : ٤٣
(٣) سورة الاعراف، الاية : ١٩٩

يسلط على الجبابرة المتغطرسين عذابا مهلكا بواسطة اضعف جنده كقصة ابرهة الحبشي الذى اراد غزو الكعبة معتزا بجيشه وقوته فرماه الله بطير تقذفه بحجارة صغيرة حتى تمزق ذلك الجيش وباء بالخسران .

يقول تعالى[1] : (الم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل . الم يجعل كيدهم في تضليل . وارسل عليهم طيرا ابابيل ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول) .

وفي البيت الثاني يشير الى قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس، وكيف استطاع الهدهد - بامر الله - ان يكون سببا في تدمير مملكة بلقيس على ضخامتها وعظم بنائها[2].

واحيانا يحاول الشاعر طرد اليأس من نفسه ونفوس السامعين ، ويأخذ في بث شيء من الامل في النصر والرجوع الى الوطن الذى اخرج منه فيجد في الايات الطريق الذى يجب اتباعه لمن اراد تحقيق ذلك. يقول الشاعر المجهول :

يمين هدى ان تتقوا الله تنصروا	وتحظوا بامال يشوق غريرها
فلايخذل الرب المهيمن امة	تدين بدين الحق وهونصيرها

فقوله مستوحى من قوله تعالى[3] : (يا ايها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم) . ومن قوله تعالى[4] : (ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) .

ويقول لسان الدين ابن الخطيب :

رويدك بعد العسر يسران ابشرى	بانجاز وعد الله قد ذهب العسر

---

(١) سورة الفيل .
(٢) انظر سورة النمل : الايات : ٢٠ - ٤٤
(٣) سورة محمد ، الاية : ٧
(٤) سورة النحل ، الاية : ١٢٨

وهو مستمد من قوله تعالى[1] : (فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا) واحتذاء لقول عمر ـ رضى الله عنه ـ[2] : " . . . . انه لن يغلب عسر يسرين " .

ويحاول الحصرى القيروانى من خلال رثائه للقيروان ان يدافع يأسه ببيان تغير احوال الدنيا ، فليس بمحال اذن ان ترجع بلده القيروان الى عهدها السابق من العز والحضارة ، يقول :

ولم يزل قابض الدنيا وباسطها   فيما يشاء له محو واثبات

وهو يستضيء بقول الله تعالى[3] : (يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده ام الكتاب) .

ويستمد الشعراء ـ ايضا ـ من القرآن الكريم معانى مؤثرة عندما يصفون ماحل بالناس من حولهم من بلاء وحينما يصفون خراب المدن وافعال الاعداء بها ، يقول الخريمي عن اهل بغداد :

كأنما اصبحت بساحتهم   عاد ومستهم صراصرها

فاى صورة للاهلاك الشامل ابلغ من تصوير القرآن لمصرع عاد الذى يحتذيه الشاعر هنا . يقول تعالى[4] : (واما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية ايام حسوما فترى القدم فيها صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية) .

ويقول ابن شرف القيروانى فى وصف حالة اهل القيروان وما لاقوه من العذاب الحسى والنفسى :

---

(١) سورة الانشراح ، الاية : ٥ ، ٦

(٢) الامام مالك ، الموطأ ، كتاب الجهاد : ٢ / ٤٤٦ .

(٣) سورة الرعد ، الاية : ٢٩

(٤) سورة الحاقه ، الاية : ٦ ـ ٨

بعد يوم كأنما حشر الخلـ ... ق حفاة به عوارى رجلى
ولهم زحمة هنالك تحكى ... زحمة الحشر والصحائف تتلى
وعجيج وضجة كضجيج الـ ... خلق يبكون والسرائر تبلى

وهو يستمد في وصفه هذا من وصف القرآن الكريم والحديث الشريف لاهوال يوم القيامة حيث الموقف الرهيب في المحشر وتطاير صحف الاعمال وغير ذلك . يقول تعالى[١] : (يوم تبلى السرائر) . ويقول - ايضا[٢] - : (واذا الصحف نشرت) ويقول الرسول - صلى الله عليه وسلم[٣] - :" يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا[٤] . . . . الحديث" .

وفي وصف الاعداء وغدرهم يقول ابن رشيق القيرواني :

نقضوا العهود المبرمات واخفروا ... ذمم الاله ولم يفوا بضمان

فالغدر ونقض العهد واخفار الذمم من صفات الكافرين التي بينها القرآن الكريم بقوله[٥] : (كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا[٦] ولا ذمة يرضونكم بافواههم وتأبى قلوبهم واكثرهم فاسقون) . وبقوله تعالى[٧] : (ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون) .

ويقول ابن العسال :

جاسوا خلال ديارهم فلهم بها ... في كل يوم غارة شعواء

---

(١) سورة الطارق ، الاية : ٩
(٢) سورة التكوير ، الاية : ١٠
(٣) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق : ٨/٩٢ .
(٤) غرلا : غير مختونين . اللسان (غرل) .
(٥) سورة التوبة ، الاية : ٨
(٦) الال : العهد والقرابة . الصحاح (ألل) .
(٧) سورة الانفال ، الاية : ٥٥ - ٥٦

وعبارة "جاسوا خلال ديارهم" هي عبارة قرآنية وردت في قوله تعالى[١] (فاذا جاء وعد اولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا اولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا) .

وهي تحمل معنى شاملا للقهر والتدمير لا يتأتى لغيرها .

ويقول الشاعر الاندلسي المجهول في وصف حالة المدن الاندلسية التي استباحها العدو :

فانفسها في الصعق دون افاقة كنفس كليم الله اذ دك طورها

فهو يستأنس هنا بقصة سيدنا موسى - عليه السلام - حينما ذهب لميقات ربه والتي اوردها القرآن الكريم يقول تعالى[٢] : (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب ارني انظر اليك قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما افاق قال سبحانك تبت اليك وانا اول المؤمنين) .

وكلمة الصعق توحي بعظم الخطب وجلال الموقف الذي لا تحتمله النفس، واذا كان موسى - عليه السلام - قد افاق من صعقته فان الشاعر جعل لتلك المدن المنكوبة انفسا لا تفيق ابدا .

اما شاعر طليطلة المجهول - ايضا - فيقول في وصف الهزيمة النفسية والخور الذي اصاب الناس :

ونلقى واحدا ويفر جمع كما عن قانص فرت حمير

وهو ينظر في هذا الى قوله تعالى في وصف الكافرين[٣] : (فما لهم عن التذكرة معرضين . كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة[٤]) .

---

(١) سورة الاسراء، الاية : ٥
(٢) سورة الاعراف، الاية : ١٤٣
(٣) سورة المدثر، الاية : ٥١
(٤) القسورة : الاسد ، او الماهر من الصيادين . الصحاح (قسر) .

وفي مواقف الاستغاثة والحث على الجهاد يبرز عند الشعراء الاهتمام بسور القتال كسورة التوبة وسورة محمد - عليه الصلاة والسلام - حيث فيهما التفاصيل الكثيرة عن الجهاد واحكامه مما يتيح المجال للشاعر ليبدئ في تلك المعاني ويعيد اذ هو في موقف يحتاج معه الى كل مؤثر يمس القلوب ويثير المشاعر . يقول ابن سهل الاندلسي :

ان الاله قد اشترى ارواحكم بيعوا ، ويهنكم ثواب المشترى

والبيت فيه حض شديد على الاقدام ، والموت في سبيل الله طلبا لما اعده - تعالى - من التكريم للشهيد في جنات النعيم . يقول سبحانه[1]: (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن اوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) .

ويقول ابن الابار للامير الحفصي :

طهر بلادك منهم انهم نجس ولا طهارة مالم تغسل النجسا

والبيت يشتمل على التعبير القرآني الذى يصف المشركين بانهم نجس بكل ماتحمله هذه الكلمة من معاني النجاسة الحسية والمعنوية . يقول تعالى[2]: (يا ايها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم) . والشاعر عندما يصف الاعداء بانهم نجس يبعث في نفس الامير حماسة قوية للاسراع في ازالة هذا النجس الذى ماخالط شيئا الا افسده .

اما شاعر طليطلة فيدعو بالحاح الى الحرب ونبذ السلم لان الحرب وحدها هى الكفيلة برد الحقوق الى اصحابها . يقول :

---

(١) سورة التوبة ، الاية : ١١١
(٢) سورة التوبة ، الاية : ٢٨

ولا تجنح الى سلم وحارب   عسى ان يجبر العظم الكسير

والبيت مستمد من قوله تعالى[١]: (فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الاعلون والله معكم ولن يتركم[٢] اعمالكم) . ونلاحظ ان الاية التي يعتضد بها الشاعر تؤيد موقفه اشد التأييد فهي تسمى الدعوة الى السلم في الوقت الذي يحتاج الى الشدة مهانة، والشاعر كان في موقف ليس له علاج الا الحرب فقد سقطت طليطلة ومسخ النصارى كل معالمها الاسلامية واتخذوها عاصمة فأي سلم يمكن ان يعيد تلك المدينة الى حيز الاسلام ؟؟

ويخاطب ابن المرابط سلطانه مذكرا له بان يتزود بالاعمال الصالحة في هذه الحياة لانه مقبل على سفر طويل يحتاج الى زاد وافر . يقول :

اوما علمت بانه لابد من   زاد لكل مسافر فتزود
سفر عليك طويل ايامه   لم تستعد لطوله فاستعدد

وهو متأثر بقوله تعالى[٣]: (وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون ياأولي الالباب) .

ثم يبين من اين يكتسب هذا الزاد بقوله :

هذا الجهاد رئيس اعمال التقى   خذ منه زادك لارتحالك تسعد
فالجار كان به يوصي المصطفى   جبريل حقا في الصحيح المسند

والبيت الاول مستمد من حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي يرويه معاذ بن جبل رضي الله عنه - ومنه[٤]: (. . . قال الا اخبرك برأس الامر كله وعموده وذروة سنامه ؟ قلت بلى يارسول الله، قال : رأس الامر

---

(١) سورة محمد ، الاية : ٣٥
(٢) يتركم : ينقصكم . الصحاح (وتر) .
(٣) سورة البقرة، الاية : ١٩٧
(٤) الجامع الصحيح ، كتاب الايمان : ١٢/٥ ، احمد بن حنبل ، المسند : ٢٣١/٥ .

الاسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد . . . . الحديث) .رواه الترمذى وقال حسن صحيح . وذروة سنامه اعلى شيء فيه ومن هنا قال الشاعر عنه : رئيس اعمال التقى .

اما البيت الثاني فمستلهم من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما - قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] : (مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت انه سيورثه) .

ولقد استغل الشاعر مجاورة الاندلسيين لاهل المغرب الاقوياء فاخذ يضرب على هذا الوتر الحساس من خلال ايراد الاثار النبوية، والايات القرآنية التي تبين عظم حقوق الجار ووجوب نصرته .

ثم يبين مصير المجاهدين في سبيل الله ، وهو الافضاء الى احدى الحسنيين : الشهادة او النصر . يقول :

وارضوا باحدى الحسنيين واقرضوا حسنا تفوزوا بالحسان الخرد

وبيته مستمد من قوله تعالى[2] : (قل هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين . . . . الاية) . ومن قوله تعالى[3] : (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له اضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط واليه ترجعون) .

ويقول ابن المرحل حاضا اهل المغرب على نصرة الاندلس :

فاسترحمتكم فارحموها انه لايرحم الرحمن من لايرحم

فالشاعر يستعطف القلوب ويسترحمها فلايجد ابلغ من حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى التأثير على النفوس التي ترجو رحمةربها والحديث : عن اسامة بن زيد قال ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم[4] :

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب الادب : ٨/٩ .
(٢) سورة التوبة ، الاية : ٥٢
(٣) سورة البقرة ، الاية : ٢٤٥
(٤) صحيح البخارى ، كتاب الجنائز : ٧١/٢ .

(انمايرحم الله من عباده الرحماء) . ومن حديث ابي هريرة[(1)] : (. . . . . من لايرحم لايرحم) .

وبعد الاسترحام تشتد عاطفة الشاعر فيحاول دفعهم الى القتال دفعا بصيغة الامر فيقول :

حدوا السلاح انفروا وسارعوا   الى الذى من ربكم وعدتم

وهو في هذا ينظر الى قوله تعالى[(2)] : (انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا باموالكم وانفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) . وقوله[(3)] : (وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض اعدت للمتقين) .

وعند ما تستجاب دعوة الشاعر من قبل المستنجد به ، وتتحرك الجيوش الجرارة صوب الاندلس ، يقول مهددا النصارى المتغطرسين :

اليوم يدرى كل شيطان بها   ان قد رمتهم بالشعاع الانجم

فهو وعيد شديد للنصارى ، وتفخيم لقوة المسلمين التي شبهها بالشهب المحرقة حيث لاقبل لاحد بمقاومتها ، وهو بهذا يغترف من معين القرآن الكريم ، اذ يقول - عز وجل - على لسان الجن[(4)] : (وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الان يجد له شهابا رصدا) .

واما بالنسبة للحوادث التاريخية فقد اكثر الشعراء من ذكرها وذلك على سبيل الاعتبار وتهوين الخطب على نفوسهم ونفوس الناس بالتأسي ولاظهار الثقافة وسعة العلم باحداث الزمان ، ولهذا نجد الشاعر مهما تأخر

---

(١) المصدر السابق ، كتاب الادب : ٧/٨ .
(٢) سورة التوبة ، الاية : ٤١
(٣) سورة آل عمران ، الاية : ١٣٣
(٤) سورة الجن ، الايتان : ٨ ، ٩

عصره يرجع الى التاريخ منذ بدايته، ومن لدن نوح - عليه السلام - مرورا بالاحداث المشهورة حتى يصل الى ماقبل الاسلام بقليل فيعرج على ذكرعظمة دولتي الفرس والروم وكيف تولى الدهر ازالتهما من الوجود ، وفى هذا المجال نلاحظ تشابها كبيرا بين الشعراء سواء فى المشرق او فى الاندلس مع الاختلاف فى العاطفة لدى كل شاعر .

يقول عدى بن زيد العبادى :

وتبين رب الخورنق اذ أُشـ	رف يوما وللهدى تفكير
سره حاله وكثرة مايمـ	لك والبحر معرضا والسدير
فارعوى قلبه فقال : وماغبـ	طة حى الى الممات يصير

والشاعر هنا بصدد ذكر الممالك الزائلة. التي عاشت ببذخ حينا من الدهر، وينفذ من ذلك الى بيان تفاهة الدنيا وسرعة زوال لذاتها ومتعها ويضرب لنامثلا بالنعمان الاكبر صاحب الملك العظيم، والقصور الفخمة الذى ادرك حقيقة هذه الحياة وانها لاتدوم على حال، فانخلع من ملكه وترك حياة الترف واللهو، ولبس المسوح وساح فى الارض زاهدا مترهبا[(١)] .

ويقول عمارة اليمني فى رثاء الفاطميين :

باللهزر ساحة القصرين وابك معى	عليهما لاعلى صفين والجمل

فهو يشير الى معركتي الجمل وصفين اللتين وقعتا فى خلافة الامام على ابن ابي طالب - رضي الله عنه - وكانتا بداية لمسلسل دموي افنى آلافا عديدة من المسلمين ، ارتجت لها الدولة الاسلامية آنذاك . والشاعر هنا يريد ان يبين عظم المصيبة التي حلت بالناس من جراء زوال الدولة الفاطمية فجعلها اشد وقعا واعظم اثرا من حروب الفتنة تلك . ولعله اختار صفين والجمل دون غيرهما من معارك المسلمين ، لمناسبة مقام قصيدته ، فهو يرثى

---

(١) انظر : جواد على ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : ٢٠٣/٣ .

دولة شيعية تعتبر الامام علي امامها ، وقد كان له الدور البارز في هاتين المعركتين .

ويصور ابن اللبانة العلاقة الحميمة التي بينه وبين المعتمد بن عباد بقوله :

حكيت وقد فارقت ملكك مالكا ومن ولهي احكي عليك متمما

ومالك ومتمم هما ابنا نويرة بن حمزة اليربوعي التميمي وقد كان بينهما من المحبة والود والصفاء مايفوق الوصف، فلما قتل مالك على يد جيش المسلمين لارتداده عن الاسلام[1] ـ فيما يقال ـ حزن عليه متمم وظل يبكيه شعرا طيلة حياته ، وقد استغل ابن اللبانة هذه الحادثة فاسقطها على نفسه وعلى المعتمد وذلك لشهرتها ومجرد قوله " ومن ولهي احكي عليك متمما" يسد مسد كلام كثير في تأكيد استمرار الولاء والاخلاص الى آخر لحظات حياته .

ويقول ابن العديم في تتابع الدول وافناء الدهر لها :

اباد ملوك الفرس جمعا وقيصرا واصمت لدى فرسانها منه اسهم
وافنى بني ايوب مع كثر جمعهم ومامنهم الا مليك معظم
وملك بني العباس زال ولم يدع لهم اثرا من بعدهم وهم هم

ويقول ابو بكر بن عبد الصمد :

---

(١) كان مالك بن نويره عاملا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على صدقات قومه ، فلما بلغه ان الرسول قبض امسك الصدقة وفرقها في قومه ، فسار اليهم خالد بن الوليد وحاربهم ووقع مالك في الاسر فقتله ضرار بن الازور صبرا بامر خالد ،وهناك روايات تنفي ردته وتزعم ان قتله كان خطأ . والله اعلم . انظر : ابن حجر : الاصابة: ٣/٣٣٦ ، ابن قتيبة الشعر والشعراء : ١/٣٣٧ ، القرشي ، جمهرة انساب العرب: ٢/٧٤٢ وقد اورد رثاء متمم له .

حازت بنو العباس ملك امية ... وهم ذوو الاعداد والامداد
والدهر اذهب تبعا وجنوده ... وازال ملك الارض عن شداد

واذا ماوصلنا الى قصيدة ابن عبدون فى رثاء بني الافطس نجد ان الحوادث التاريخية التي اوردها قد شغلت اكثر من نصف القصيدة، وقد بدأها بذكر الامم الغابرة كالساسانيين واليونانيين ثم سار بتسلسل زمني منتظم معرجا على ملوك اليمن وقبائل العرب البائدة ثم على ايام العرب في الجاهلية ثم معارك الاسلام والفتن التي حصلت في آخر عصر الراشدين ثم يذكر الدولة الاموية فالعباسية ومافيها من فتن ماحقة كفتنة البرامكة، وفتنة الامين والمأمون وغيرهما . ولكثرة هذه الاشارات التاريخية وتنوعها، فقد قام ابن بدرون الاندلسي بشرحها في مجلد كامل وقد اشرنا الى هذا في فصل سابق .

وجاء بعد ابن عبدون ابو البقاء الرندى الذى سار على الطريقة نفسها ولكنه لم يطل في مقدمته التاريخية كما اطال ابن عبدون ولم يفصل الحوادث ويسلسلها على العصور المختلفة وانما جاء بامثلة مشهورة كابن ذى يزن وملوك اليمن والساسانيين، ثم يذكر قارون وخزائنه التي لم تفده عندما رماه الدهر بقوارعه وينتقل بعد ذلك الى ملوك الفرس دارا وكسرى صاحب الايوان العظيم الذى حطمته فجائع الدهر، واخيرا يأتي بمثل كبير لسعة الملك والسيادة وهو سليمان - عليه السلام - الذى ملك الدنيا وخضعت لامره الجن والريح باذن الله تعالى . ومع ذلك زال وكأنه لم يكن .

ولعل اهتمام هذين الاديبين الكبيرين بهذه النواحي التاريخية يوقفنا على ماكان لها من شأن في تخليد القصائد .

ويقول حازم القرطاجني :

وقد اعاد الفأر سد مأرب ... دكا كأن لم يبنه من قد بنى
والقت النُّمروذ عن كرسيه ... بعوضة عدت عليه اذ عدا

والشاعر هنا يحذر من عواقب البغي والتطاول على الله -عز وجل - وكأنه يريد ان يبين السبب الاكبر في ضياع الاندلس وهو ارتكاب المعاصي والبعد عن طاعة الله، ويستشهد بحادثتين من حوادث التاريخ القديم كان الاعراض عن الهدى الرباني فيهما سببا في جلب العقاب الاليم الشامل .

الاولى حادثة سد مأرب العظيم الذى بناه ملوك دولة سبأ في اليمن بهندسة عجيبة بحيث يحجز خلفه بحيرة كبيرة من المياه المنحدرة من الاودية فكان القوم يشربون منه ويسقون زروعهم حتى اصبحوا يعيشون في جنات وارفة الظلال كثيرة الثمار، ولكن عندما جاءهم الرسل من عند الله كذبوهم وانكروا نعم الله ونسبوها الى قوتهم وجهدهم، فعاقبهم الله باضعف مخلوقاته وهو الجرذ الذى نقب ذلك السد حتى اذا جاء السيل العظيم جرفه وجرف معه الجنات واغرق الارض والناس[1] .

والحادثة الثانية هي حادثة الملك المتجبر النمروذ بن كنعان بن سام الذى كان يدعي الالوهية ويفسد في الارض ويحرق من لايطيعه بالنار، ولما جاءه ابراهيم -عليه السلام- اخذ يجادل ويمارى في الله، فسلط الله عليه وعلى جنوده البعوض فاكلت لحومهم وشربت دماءهم، ودخلت احداها في دماغ النمروذ فاكلته، فكان اعز الناس عنده من يضرب رأسه بمطرقة او بحذاء حتى يهدأ مابه . ومكث في هذا العذاب اربعين يوماً[2] .

---

(١) انظر : معجم البلدان ، مادة (مأرب) ، ابو حيان ، تفسير البحر المحيط : ٢٦٨/٧ ،عند قوله تعالى عن سبأ : (فاعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي اكل خمط واثل وشيء من سدر قليل) . سورة سبأ، الاية : ١٦ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي : ١٠٩٢/٢ ، عند قوله تعالى : (الم تر الى الذى حاج ابراهيم في ربه .... الاية) . سورة البقرة، الاية : ٢٥٨ .

واذا ما انتقلنا الى استفادة شعراءالمراثي من الابيات المشهورة في الشعر العربي نجد انهم تفننوا في ذلك فتارة يحتذون البيت وينسجون على منواله وتارة اخرى يأخذون البيت بلفظه كله او نصفه ويدخلونه في القصيدة حينما يبرز مكانه المناسب، ونلاحظ على الاندلسيين - خاصة - الاحتفاء بمعارضة ابيات الشواهد النحوية والبلاغية وتضمينها . ويمكننا هنا ان نقسم الابيات التي بين ايدينا حسب موضوعات الرثاء كما يلي :

اولا : الحنين الى الوطن الذي اخرج منه الشاعر، وشدة شوقه اليه، وبكاءه على ايامه الجميلة التي قضاها في ربوعه، يقول ابن عميرة الاندلسي في شوقه الى مدينته بلنسية :

ملاعب افراس الصبابة والصبا　　　نروح اليها تارة ونبكر

وهو من قول زهير بن ابي سلمى :

صحا القلب عن سلمى واقصر باطله　　　وعُرّي افراس الصِّبا ورواحله (١)

ولابن عميرة ايضا :

تغير ذاك العهد بعدى واهله　　　ومن ذا على الايام لايتغير

وهو صدى لقول كثير عزة :

وقد زعمت اني تغيرت بعدها　　　ومن ذا الذى ياعز لايتغير (٢)

ويقول المعتمد بن عباد في تذكر ايامه الخوالي وعيشه اللاهي باشبيلية :

فياليت شعرى هل ابيتن ليلة　　　امامي وخلفي روضة وغدير

---

(١) ديوان زهير : ٦٤ .
(٢) ديوان كثير : ١٠٧ .

وهو من قول جميل بثينة :

الا ليت شعري هل ابيتن ليلة ... بواد القرى اني اذن لسعيد[١]

ويقول ابن شرف القيرواني متشوقا الى القيروان ومن فيها : :

واذا تجدد لي اخ ومنادم ... جددت ذكر اخاء خل اول

وهو متأثر بقول ابي تمام :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب الا للحبيب الاول[٢]

ويقول :

منازل ابائي الكرام ومنشئي ... واول اوطان غذاني خيرها

وهو احتذاء لقول الاعرابي في الحنين الى موطنه منعج

بلاد بها حل الشباب تميمتي ... واول ارض مس جلدي ترابها[٣]

اما ابن عميرة فيعرض عن لائميه على البكاء والوجد قائلا :

اقلوا ملامي او فقولوا واكثروا ... ملومكم عما به ليس يقصر

ونشم من قوله رائحة كبرياء المتنبي في قوله :

ملومكما يجل عن الملام ... ووقع فعاله فوق الكلام[٤]

---

(١) ديوان جميل : ١٦ .
(٢) ديوان ابي تمام : ٣٠٣/٤ .
(٣) معجم البلدان (منعج) .
(٤) ديوان المتنبي : ٤٨٢ .

ثانيا : الابيات الحربية . كقول ابن حمديس الصقلي :

ويارب براق النصال تخالـــه ‍ ‍ ‍ ‍ من النقع ليلا مشرق الشهب داما

وقول ابن عياش :

ويطلع ليل النقع فيه كواكبـــا ‍ ‍ ‍ ‍ من البيض او من مرهفات المناصل

وكلا لبيتين من وحي بيت بشار المشهور :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنـــا ‍ ‍ ‍ ‍ واسيافنا ليل تهاوى كواكبـــه [(١)]

ويقول ابن المرابط في حض اميره على الجهاد ، والتأكيد على وقـــوع النصر وان تأخر بعض الشيء :

لاتغترر بنسيئة الاجل الـذى ‍ ‍ ‍ ‍ ان لم يحن لك نقده فكأن قد

وهو من قول النابغة الذبياني :

أفد الترحل غير أن ركابنـــا ‍ ‍ ‍ ‍ لما تزل برحالنا وكأن قـــد [(٢)]

ثالثا : تضمين الابيات والاشطر، وقد اكثر الشعراء من ذلك اظهـارا للثقافة، ولان البيت المضمن او الشطر غالبا يأتي في موقع متمكن من القصيـدة فيزيدها روعة ويساعد في جلاء المعاني التي يريدها الشاعر . يقول ابـــن المعتز العباسي في مدينته سامراء :

غدت سر من رأ في العفاء كأنها ‍ ‍ ‍ ‍ (قفا نبك من ذكرى حبيب ومـنزل)
واصبح اهلها شبيها بحالهـــا ‍ ‍ ‍ ‍ (لمانسجتها من جنوب وشـــمأل)
واذا ما امرؤ منهم شكا سوء حالـه ‍ ‍ ‍ ‍ (يقولون لاتهلك اسى وتجمـــل)

---

(١) ديوان بشار : ١/٣١٨ . وفيه (رؤوسهم بدل رؤوسنا التي هي روايـــة الاغاني وغيره) .
(٢) ديوان النابغة : ٣٠ .

والاشطر الاخيرة في هذه الابيات هي بعض صدور واعجاز معلقة امرىء القيس المعروفة[(١)] .

ويقول ابن خفاجة في رثاء مدينته :

كتبت يد الحدثان في عرصاتهـــا (لاانت انت ولاالديار ديار)

والشطر الاخير لابي تمام من بيته المعروف :

لاانت انت ولاالديار ديـــار خف الهوى وتولت الاوطـــار[(٢)]

ويقول ابن خلصة في بلنسية :

لو انها نطقت قالت لفقدهـــم (بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا)

وعجز البيت لزهير بن ابي لسلمي من قوله :

بان الخليط ولم يأووا لمن تركـوا وزودرك اشتياقا اية سلكـــوا[(٣)]

ويقول ابن المرابط عن الاندلس :

كم جامع فيها اعيـد كنيســـة فاهلك عليه اسى ولاتتجلـــد

وعجز البيت لطرفة بن العبد وقد اجرى عليه ابن المرابط بعض التغيير والبيت بتمامه من معلقة طرفة :

وقوفا بهاصحبي على مطيهـــم يقولون لاتهلك اسى وتجلـــد[(٤)]

اما السهيلي فيأتي ببيت كامل لابي نواس خلال ابياته في رثاء بلـــده والبيت هو :

يادار مافعلت بك الايام ضامتك والايام ليس تضـــام[(٥)]

---

(١) انظر ديوانه : ٨ - ٩ .
(٢) ديوان ابي تمام : ١٦٦/٢ .
(٣) ديوان زهير : ٤٧ .
(٤) ديوانه : ٦ .
(٥) ديوانه : ٤٠٧ .

الفصل الثالث

دراسة مضمون قصيدة الرثاء

من خلال دراستنا للمعاني والافكار والظواهر التي يحويها شعر رثاء الدول والامصار استطعنا ان نقف على بعض الموضوعات او الظواهر التي تبرز بجلاء في هذا الفن بشكل عام وسنتناولها هنا بشيء من التفصيل ، وهي كما يلي :

المبحث الاول : الواقعية

شعر رثاء الدول والامصار واقعي بطبيعته فهو يسجل حوادث تاريخية او ظواهر انسانية واجتماعية مشاهدة في المجتمع البشري ، ولكنه لا يوافق تماما المذهب الواقعي الذي يجمد عند الرصد المجرد للظواهر دون اى تدخل لعواطف الشاعر واحاسيسه ، لان ذلك يبعد بالشعر عن مفهومه الحقيقي كفن مؤثر كما يحصر الشاعر في مجال ضيق من القول لا يحس معه بقيمة شاعريته وفعالية ابداعه . ولا اخال الشاعر الصادق الذي يقف على مدينته المنكوبة او دولته الزائلة راثيا باكيا ، ومفصلا لدقائق الحادث وملابساته يستطيع ان يكون حيادي الاحساس والوجدان ، وان استطاع ان يقيم التحليل مقام التخييل ، والمنظور محل الموهوم الى حد ما . وذلك لان الشاعر في مثل ذلك الموقف يكون تعبيره - في الغالب - صادرا من منبع العاطفة الدفاق الذي لا يمكن للحياد والتجرد ان يقاوماه . ومن جانب آخر فان الشاعر الراثي عندما يستمد عناصر تجربته الشعرية من احداث التاريخ لا حرج عليه في الخروج عن حرفية التاريخ وتخيل ماليس في الواقع مع المحافظة على جوهر الفكرة . ان الواقعية التي نلمسها في شعر رثاء الدول والامصار هي الواقعية الروحية التي[1] تعكس الواقع بحقائقه وتتسع لكل مايحدث بداخل

---

(١) عز الدين اسماعيل ، الاسس الجمالية في النقد العربي : ٣٨٠ .

الشاعر من افكار وآلام ومشاعر . يقول ابو عدى العبلي في رثاء دولة بني امية :

افاض المدامع قتلى كدى	وقتلي بكثوة لم ترمس
وقتلي بوج وباللابتين	من يثرب خير ما انفس
وبالزابيين نفوس ثوت	وقتلي بنهر ابي فطرس
اولئك قوم تداعت بهم	نوائب من زمن متعس
اذلت قيادى لمن رامني	والزقت الرغم بالمعطس

فالشاعر يصدر عن واقع تاريخي تجرى احداثه امام عينيه ، فهو يتحدث عن مصارع قوم رآهم وعايشهم ، ويذكر اسماء الاماكن التي لقوا فيها حتفهم بمنطق بعيد عن الخيال ، ولكنه لم يقدر على منع عاطفته من التدخل ، فراح يشرح اثر ذهاب اولئك القوم على نفسه وحاله كما نلاحظ حزنه وجزعه من نوائب الزمن المتعسة لكل سعيد .

ويقول ابو يعقوب الخريمي في وصف مشهد من مشاهد الويلات التي حدثت في بغداد اوان فتنة الامين والمأمون :

ياهل رأيت الثكلى مولولة	في الطرق تسعى والجهد باهرها
في اثر نعش عليه واحدها	في صدره طعنة يساورها
تنظر في وجهه وتهتف بالث	كل وجارى الدموع حادرها
غرغر بالنفس ثم اسلمها	مطلولة لا يخاف ثائرها

فهي صورة حقيقية يشاهدها الشاعر عن كثب ، ويعبر عنها بلفظ (رأيت) التي تضع المنظر باجزائه امام عينيك وتشعرك بان هذا المنظر ماهو الاجزء بسيط من المناظر المتعددة المشابهة له والتي يتمزق الشاعر لها اسفا وحسرة . كما نلاحظ في آخر قصيدة الخريمي هذه تأكيده على واقعيتها وانها بعيدة عن المبالغات والاخيلة الجامحة حين يقول :

لا طمعا قلتها ولا بطرا — لكل نفس هوى يؤامرها

سيرها الله بالنصيحة والـ — خشية فاستدمجت مرائرها

جاءتك تحكي لك الامور كما — ينشر بز التجار ناشرها

وهو في البيت الاخير يخاطب طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون المنتصر، مؤكدا له هدف قصيدته السامي وهو جلاء الحقيقة المأساوية التي تعرضت لها مدينة بغداد عسى ان يكون ذلك سببا في وقف تلك الحرب المدمرة.

ويقول البحتري في بكاء القصر الجعفري :

اذا نحن زرناه اجد لنا الاسى — وقد كان قبل اليوم يبهج زائره

ووحشته حتى كأن لم يقم به — انيس ولم تحسن لعين مناظره

كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة — بشاشتها والملك يشرق زاهره

ولم تجمع الدنيا اليه بهاءها — وبهجتها والعيش غض مكاسره

واين عميد الناس في كل نوبة — تنوب وناهي الدهر فيهم وآمره

تخفى له مغتاله تحت غرة — واولى لمن يغتاله لو يجاهره

ان الشاعر يصدر عن تجربة واقعية عاشها، فهو يصف لنا القصر الجعفري الذى كان ينادم صاحبه الخليفة المتوكل ايام حكمه، ثم لم يلبث الزمان ان دار دورته فاغتيل المتوكل غدرا والشاعر بين يديه، وهدم القصر الزاهر وهجر واوحش، ولكن البحتري لازال يزوره ويتجرد لديه انفعال الحزن والاسى كلما وقف عليه . وهذا مايمكن ان نسميه بالصدق الشعوري[1] حيث تنطلق الشرارة العاطفية عند التقاء التيار النفسي المتدفق من اعماق نفس الشاعر بالتيار الحسي المنطلق من الحدث الخارجي المثير للانفعال . ومن هذا الضرب قول ابن الرومي في رثاء البصرة ووصف اعمال الزنج الوحشية :

---

(١) انظر: انور المعداوي، نماذج فنية من الادب والنقد : ٣٠ .

ان هذا من الامور لامـــر | كاد ان لايقوم في الاوهـــام
لرأينا ـ مستيقظين ـ امـورا | حسبنا ان تكون رويا منـــام
اقدم الخائن اللعين عليهـا | وعلى الله ايمـــا اقـــدام
وتسمى بغير حـــق امامـــا | لاهدى الله سعيه من امـام

الى ان يقول :

بينما اهلها باحسن حـــال | اذ رماهم عبيدهم باصطـلام
دخلوها كأنهم قطع الليــــ | ـل اذ راح مدلهم الظـــلام
اى هول رأوا بهم اى هـول | حق منه يشيب رأس الغــلام
اذ رموهم بنارهم من يمـين | وشمال وخلفهـــم وامـــام

ان الانفعال والدهشة قد بلغت مداها عند الشاعر من خلال معاينته لعظائم الامور التي ارتكبت والتي لم يكن يتوقع ان تصورها له الاحلام، وذلـك كاقدام الزنج بهذه الصورة الرهيبة على اجتياح مدينة البصرة واحراقهـــا والفتك باهلها بابشع الوسائل والشاعر يذكر بعض الاشارات التاريخية كقولـه عن صاحب الزنج :" وتسمى بغير حق اماما" اذ انه انتحل هذا اللقب فعـلا ليظهر سلطته بمظهر ديني، وقوله ـ ايضا ـ في وصف عملية الاحراق :

اذ رموهم بنارهم من يمـين | وشمال وخلفهم وامـــام

فهذا الطوق المحيط من جميع الجهات يؤكده المؤرخون كالطبرى وغيره والبيت كما هو ملاحظ من ابلغ الابيات المكونة للتيار الحسى لانه يجســـم الحدث الخارجي وينصهر بالتالي في نفس الشاعر فتتفجر عواطفه الشعوريـــة الصادقة، ولعله من هنا يتضح الفرق بين الصدق الشعورى الحقيقي الواقعـي والصدق الفني الذى يلغي الواقع ويعتمد على نظرة الشاعر نفسه للحـــدث او للشخص .

وتظهر النظرة الواقعية في رثاء بهاء الدين البهائي لدمشق ايـــام التتار حيث يقول :

لو عاينت عيناك جامع تنكـــز والبركتين بحسنها الفتـــان
وتعطش المرجين من اوراد هـــا وتهدم المحراب والايـــوان
لانت جفونك بالدموع ملونـــا دمعا حكى اللولو على المرجان
قطرات جفن ترجمت عن حرقتي فكأنهن قلائد العقيـــان
ابني امية اين يمن وليد كـــم والمفل تفتل في ذرى الاركان
شربوا الخمور بصحنه حتى انتشوا القوا عرابدهم على النسوان

فهو يذكر بعض المعالم البارزة في دمشق والتي صب التتار جحيمـــه عليها فاحالها الى خرائب وانقاض . تلك المعالم كالمساجد والحصون وغيرهـا يراها الشاعر تدنس وتحرق امامه فيذرف الدموع الممزوجة بالدماء من الالـــم والقهر، ونراه يبتعد عن الخيال لانه لاداعي له هنا حيث الواقع الموحـــي هو الذى يعبر عن نفسه على لسان الشاعر، ومالجوء الشعراءالى الخيـــال الالتقريب الحقائق المحجبة بعيدا عن دنيا الواقع . ويصف الشاعر هارون بن هارون زحف النصارى على اشبيلية بقوله :

ويمموا حمص في جمع يضيق بـــه ذرع الفضا بالمرهفات الماع فاكتتما
واستوطنوا القبر في الوادى وقام لهم جسر من الفلك لاتشكو به السأمـا
فكم اسارى غدت في القيد موثقـــة تشكو من الذل اقداما لها حطمـا
وكم صريع رضيع ظل مختطفـــا عن امه فهو بالامواج قـد فطمـا
ياعين فابك على حمص وقـل لهـا منك البكاء اذا ماترسليه دمـــا
سطا بها الكفر اذ قل النصير بها فمن معز بها الاسلام ماسلمـــا

فالشاعر الاشبيلي يمر بتجربة واقعية مريرة، فهو يرى جموع الكفـــار الهائلة تزحف على مدينته وتحاصرها ، وتعمل الجسور البحرية لاقتحامهـــا وتفتك بالناس صغارا وكبارا قتلا واسرا دون ان يجدوا نصيرا من المسلمـــين فلاحيلة للشاعر اذن سوى البكاء والندب والرثاء .

وعلى الطريقة نفسها يسير الفقيه الدقون في وصف جيش النصارى المهاجم لاخر معاقل الاندلس بزعامة فرناند و اذ يقول :

سطا بجيش كموج البحر في عدد	نعم و في عدد من رهط ابطال
مؤيدا باجتماع المصر يتبعه	شر الخلائق سروا باقبال
يسبي المسامع بالاد فاط مشبهة	وقع الصواعق في هد وزلزال
يبني ليهدم ما الاسلام شيده	والوصف يعجز من يدعي بقلقال
والمسلمون من الاشغان قد ملئت	قلوبهم وابوا تسديد اخلال
والحق مختلف والحمق مؤتلف	والكل منصرف عن نصر ابطال

فهو يصف عدد الجيش وقوته وماكان يملك من ادوات الدمار كالانفاظ وغيرها مما يعجز عنه الوصف في تقويض بنيان الاسلام ،ثم يبين حالة المسلمين السيئةمشفقا عليهم من الفرقة والاختلاف والقعود عن الجهاد مما ادى بهم في النهايةالى الطرد من بلادهم .

اما شاعر طليطلة المجهول فيصف لنا موقفا محزنا اشعل قلبه عندما رأى فريقا من اهل مدينته طليطلة يصرون على البقاء تحت نير النصارى المغتصبين ويرضون بدفع المغارم . يقول :

كفى حزنا بأن الناس قالوا	الى اين التحول المسير
انترك دورنا ونفر عنها	وليس لنا وراء البحر دور
ولا ثم الضياع تروق حسنا	بناكرها فيعجبنا البكور
وظل وارف وخرير ماء	فلا قر هناك ولا حرور
يؤدى مغرم في كل شهر	ويؤخذ كل صائفة عشور
فهم احمى لحوزتنا واولى	بناء وهم الموالي والعشير
لقد ذهب اليقين فلا يقين	وغر القوم بالله الغرور
فلا دين ولا دنيا ولكن	غرور بالمعيشة ماغرور
رضوا بالرق يالله ماذا	رآه وما اشار به مشير

فالشاعر يعرض لنا مشهد الذل الذى تسرب الى نفوس القوم حيث غرهم طيب العيش ولو كان فيه رقهم ، وهو يقف موقف المصالح لهذا الامر الخطير ويشارك مشاركة فعالة في تذكير قومه باوامر الدين التي تجاوزوها بفعل تزيين الشيطان لهم ، ويعلن انكاره ـ بصوت عال ـ لما هم فيه من الزيغ والمهانة من اجل اللذات الدنيئة .

وفى بعض الاحيان يصدر الشاعر عن تجربة واقعية عاشها بكامل احساسه ورأى احداثها ماثلة امامه ، ولكنه بدلا من سرد الاحداث بحجمها اثناء الرثاء يأخذ في المبالغة وتضخيم الحدث الى حد كبير ، فهل نعتبر هذا زيفا وخروجا عن حدود الصدق والواقع ؟ ولنأخذ مثالا على ذلك قول ابن رشيق القيرواني فى رثاء القيروان :

اعظم بتلك مصيبة ماتنجلي	حسراتها او ينقضى الملوان
لو ان شهلانا اصيب بعشرها	لتدكدت منها ذرا شهلان
حزنت لها كورالعراق باسرها	وقرى الشام ومصر والخرسان
وتزعزعت لمصابها وتنكدت	اسفا بلاد الهند والسندان
وعفا من الاقطار بعد خلائها	مابين اندلس الى حلوان
وارى النجوم طلعن غير زواهر	في افقهن واظلم القمران
والارض من وله بها قد اصبحت	بعد القرار شديدة الميلان

ان المبالغة في وصف حادث خراب القيروان ظاهرة في الابيات ولا يمكن لاحد ان ينكرها . ومع ذلك فالشاعر في حقيقة الامر واقعي وليس بمزيف ولا مهول لانه يعبر عما يرى ويحس ولاشك ان رويته ادق واحساسه اعمق ممن هم ليسوا بشعراء ، ولذلك فهو يرى مالا يرون ، يرى الاشياء ضخمة هائلة فيعبر عنها بما يناسبها حسب رويته لها . فيأتي شعره في نظر الناس غاصا بالمبالغات دون ان يدرى هو انه يبالغ. ولعل هذا هو المقصود بالكذب الذى كان يستحسنه القدماء من النقاد كقول قدامة بن جعفر[1] : " وقد بلغني عن

---

(١) نقد الشعر : ٦٥ .

بعضهم انه قال : احسن الشعر اكذبه . . . . " . فابن رشيق نظر الى بلده الذى احبه كل الحب وقد غدا خربا منكر الهيئة بعد الجمال والازدهار فهاله الامر وتصور المصيبة هذا التصور الكونى الواسع فهى تدر احزانا متواصلة لا تنقضى حسراتها ابد الدهر والدنيا بجميع جهاتها قد تملكها الاسف والنكد ، والسماء أظلمت أقمارها والارض اضطرب قرارها . ويقول ابن اللبانة فى غروب دولة المعتمد بن عباد واخذه اسيرا الى المغرب في الفلك :

نسيت الا غداة النهر كونهم	فى المنشآت كاموات بالحاد
والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا	من لؤلؤ طافيات فوق ازباد
حط القناع فلم تستر مخدرة	ومزقت اوجه تمزيق ابراد
حان الوداع فضجت كل صارخة	وصارخ من مفداة ومن فاد
سارت سفائنهم والنوح يصحبها	تلك القطائع من قطعات اكباد

ويقول :

انفض يديك من الدنيا وساكنها	فالارض قد اقفرت والناس قد ماتوا
وقل لعالمها السفلى قد كتمت	سريرة العالم العلوى اغمات

ان ابن عباد كان يمثل العصب الحيوى فى حياة الشاعر اضف الى ذلك انه كان ذا سلطان وهيلمان كبيرين ، فلما كانت نهايته على تلك الصورة من الاهانة والذل اصيب الشاعر بصاعقة من الحزن والفزع، فتصور ان الكون كله يتحطم وينهار وسط الضجيج والتمزيق والعويل ولذلك فهو ينفض يديه عن الدنيا ومن فيها . وهو في هذا كله صادق الاحساس واقعى التعبير لانه فى غمرة التجربة المريرة الحية ، فالمشهد المرعب المثير يجرى امامه ، فيرى عن كثب آماله وهى تبدد وتصفد وتدفن فى الحاد النفى والاسر .

واذا ما انتقلنا الى شعر الاستغاثة والحث على الجهاد نجد انـــــه ذو صبغة واقعية ايضا لانه منطلق من شعراء احسوا بالخطر المحدق باوطانهم فذهبوا يبحثون عن النصير في لهفة والم، وان كنا نلاحظ على شعرهـــــم الاطناب في مدح المستغاث به فذلك امر يقتضيه الموقف وتنطق به العاطفـــة الثائرة . يقول ابن سهل الاندلسي مستصرخا عرب المعقل في افريقيــــا لنجدة الاندلس :

اضحى الهدى يشكو الظما ولانتم	ظل ورى كالربيـــع الممطـــر
وعلا الجزيرة غيهب وغمود كـــم	مطوية فوق الصباح المسفـــر
الدين ناداكم وفوق سروجكـــم	غوث الصريخ وبغية المستنصـر
لم يبق للاسلام غير بقيــــــة	قد وطنت للحادث المتنكـــر
جدوا ونموا بالجهاد اجوركـــم	ماخاب قصد مشمـــر وشمـــر
عند الخطوب الفكر يبد و فضلكـم	والنار تخبر عن ذكـاء العنبر
لو صور الاسلام شخصا جاءكـــم	عمدا بنفس الزعق المتخـــير
لو انه نادى لنصر خصكـــــم	ودعاكم يا اسرتي يامعشـــرى

فهو ينطلق من واقع ملموس، واقع الاسلام الذى يهدف النصارى فـــى المقام الاول الى القضاء عليه، واجلائه عن ارض الاندلس، ولقد مرت بنا مواقــف كثيرة في هذا البحث كان النصارى فيها يحولون المساجد الى كنائس بمجـــرد ان تطأ اقدامهم ارض المدينة الاسلامية الساقطة ثم يبحثون عن كل مايتعلـــق بالدين الاسلامي كالمدارس والكتاتيب والكتب فيمحقونها على عجل، ولعلنـــا نلاحظ اثر ذلك جليا في قلة الكتب الاسلامية التي وصلتنا من تراث الاندلـــس بالنسبة لكثرة ما الف في مختلف الفنون منه . فابن سهيل يأخذ في شرح حالــة الاسلام في البلد المستغيث وماهو فيه من الضعف والذبول، ويتوجه الـــــى المستغاث بهم يحثهم على النجدة مستعينا بحقائق النصوص الاسلامية الـــتى تدعو للحث على الجهاد وتبين عظم الاجر والغنيمة المترتبين على ذلك، ثـــم يستمر في حثهم فيصفهم بانهم اهل الاسلام وحماته الشجعان الذين عليهـــم

دون غيرهم يقع عبء نصرته والدفاع عنه .

ويقول ابن الابار في استصراخ الحفصيين لنجدة بلنسية :

هذى رسائلها تدعوك من كثب	وانت افضل مرجو لمن يئسا
وافتك جارية بالنجح راجية	منك الامير الرضى والسيد الندسا
خاضت خضارة يعليها ويخفضها	عبابة فتعاني اللين والشرسا
تؤم يحيي بن عبد الواحد بن ابي	حفص مقبلة من تربه القدسا
وقد تواترت الانباء انك من	يحيي بقتل ملوك الصفر اندلسا
طهر بلادك منهم انهم نجس	ولا طهارة مالم تغسل النجسا
واوطيء الفيلق الجرار ارضهم	حتى يطأطيء رأسا كل من رأسا

فالشاعر كان هو الرسول من لدن امير مدينة بلنسية الى الحفصي فهو اذن صاحب قضية تشغل باله ، والانظار متطلعة اليه ترجو ان يأتي على يديه الفرج ، ولذلك نراه يحشد كل الاسباب التي تمكنه من تحقيق هدفه فيخاطب الامير في واقعية مشيرا الى الرسائل والرسل التي تفد اليه وماتتكبده من المشاق كخوض البحار وقطع القفار ، وهي تخصه دون سواه لانه قد تيقن لديها ان هذا الامير هو الذي سيطهر الاندلس من رجس النصارى ، والشاعر بهذا يعطي الامير الحفصي دفعة ساخنة من الحماس وبخاصة حينما يجعل الاندلس تسلم قيادها وولاءها له ، فلابد له بعدئذ من تحمل هذه التبعة ، فليعد الفيالق ويجرد السيوف في الحال .

وهناك نوع من القصائد الرثائية الواقعية جاءت في ثوب قصصي ، حيث يقوم الشاعر بوصف الحصار والهجوم والسقوط واحوال الناس بشكل متسلسل ومفصل ، وذلك كقصيدة ابي الحسن المراغي في رثاء مراغة حينما اجتاحها التتار . يقول :

او مارأيتم ان طوفان الـــردى … اخذ المراغة من هجوم تتـــار
فظهيرة الاحد ابتداءحصارهم … الاخذ في الاثنين شر نهـــار
هجموا وقد اخذوا اعالي سورها … بمجانق يمطـــرن بالاحجـار

فهو هنا يؤرخ لحادث الهجوم على اسوار المدينة، ثم يسقط السور :

بسقوطه ارتفع الغبار وراع اهـــ … ـل الحق فانحدروا من الاسوار
لما رأى الكفار سورا خاليــــا … وهوى ببرج تساقط منهــــار
صعدوا اليه رافعين لواءهـــم … فصاد قل الزمـــرة الابـــرار

وبعد سقوط السور والبرج الذي يعتبر بمثابة بداية للقصة نصل الـــى العقدة وهي اقتحام الاعداء للمدينة، والى اين يلجأ الناس العزل ؟ ثـــم يأتي الحل :

لجأت الى دار الهمام امام ديــ … ـن الله آلاف من الاخيـــار
فاجارهم ووقاهم فـــــي داره … قاض لحق اجـــارة وجـــوار
واطاب قلبهم بطيب وعــــوده … اذ قال احميكم انا فـي داري
فحماهم يوما وليلــة كامـــــلا … عن ناب قوم كالكلاب ضـــواري

ولكن القصة لم تنته عند هذا الحد ، فدار القاضي لم تكن بعيـــــدة عن متناول يد اولئك الضواري وسرعان ماحاصروها ورموها بوابل القذائف ثـــم دخلوها فكانت الخاتمة المأساوية لكل من فيها :

وعلا ليمنعهم اعالـــــي داره … فلهم تيسر فتح باب الـــدار
دخلوا وقد ظفروا بمن في داره … من نسوة ومشايـــــخ وذراري
قتلوا جميعهم بادني خطـــة … مامن مجير عندهم ومجـــــار

ونلاحظ ان الشاعر يعبر عما يجرى امامه كما هودون اى استخدام للخيال او المبالغات الكبيرة .

وفي استغاثة الموريسكيين بالسلطان العثمانى بايزيد نجد - ايضا - السرد القصصي لمجريات الاحداث . يقول شاعرهم :

فلما ضعفنا خيموا في بلادنا	ومالوا علينا بلدة بعد بلدة
وجاءوا بانفاط عظام كثيرة	تهدم اسوار البلاد المنيعة
فلما تفانت خيلنا ورجالنا	ولم نر من اخواننا من اغاثة
وقلت لنا الاقوات واشتد حالنا	اطعناهم بالكره خوف الفضيحة
على ان نكون مثل من كان قبلنا	من الدجن من اهل البلاد القديمة
ونبقى على آذاننا وصلاتنا	ولا نتركن شيئا من امر الشريعة
الى غير ذلك من شروط كثيرة	تزيد على الخمسين شرطا بخمسة

وبعد هذا الدخول بالاكراه في طاعة النصارى هل انتهت الحروب واحترمت المواثيق ؟ كلا :

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم	بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة
وخان عهودا كان قد غرنا بها	ونصرنا كرها بعنف وسطوة

وهكذا تستمر القصيدة في شرح مايلاقيه المسلمون من التعذيب والتضييق ، ونحس ان الشاعر كان يعتصره الالم وهو يتحدث عن هذا الواقع المر الذى يعيشه هو ومن معه .

المبحث الثاني : التكـــرار

ان شعر الرثاء هو شعر العاطفة في المقام الاول ، فهي التي تحـدد معالم القصيدة وتظهر جمالها من حيث اختيار المعاني وتصويرها في ثــوب لائق بها من الالفاظ .

وظاهرة التكرار التي نشاهدها في شعر رثاء الدول والامصار تهـدف الى تقوية تلك العاطفة و مساعدتها على الإستمرار ، حيث تظل انفعـــالات الحزن والحنين والاستغراب وغيرها في تكرر متواصل لفترة طويلة ، ومن خـلال ذلك تمد الشاعر بفيض زاخر من معينها الثر . يقول ابن رشيق القيروانـــي (1) :
" واولى ماتكرر فيه الكلام باب الرثاء لمكان الفجيعة وشدة القرحة التي يجدها المتفجع ، وهو كثير حيث التمس من الشعر وجد " .

ولا ننسى ايضا ماللتكرار من فائدة في تقوية موسيقى القصيدة واظهـار كوامن وزنها ، وقد اشرنا الى هذا فيما سبق . وعند التدقيق فـــــي القصائد المشتملة على التكرار نجد الشعراء يستخدمونه بصور شتى ، فاحيانــا يكررون عبارات تصل الى شطر بيت ، واحيانا اخرى يكررون حرفا او كلمـــة مع مراعاة التجانس والانسجام بين مايلي هذا الحرف او تلك الكلمـــة فـــي ايضاح المعنى ورسم الصورة التي يريدها الشاعر .

يقول ابن ابي طالب الاعمى في رثاء بغداد :

ابيني لنا اين الذين عهدتهـــم	يحلون في روض من العيش زاهر ؟
واين الملوك في المواكب تغتدي	تشبه حسنا بالنجوم الزواهـــر ؟
واين القضاة الحاكمون برأيهــم	لورد امور مشكلات الاوامــــر ؟

فهو يكرر كلمة (اين) التي يستفهم بها - في ذهول وحزن - عن مصير سادة البلاد من الملوك اولي المواكب والقضاة اصحاب المواهب في حــــل

---

(١) العمدة : ٢ / ٦١ .

المشكلات من الامور والنوازل .

وهو عندما يتفجع على هذين الصنفين من الناس بواسطة التكرار يوحي بالصورة الكلية لخراب المدينة وهلاك الناس، لان الشاعر سيبقى مستمرا في تساؤله باستغراب مؤلم اين . . . واين . . . واين . . . الخ وان لم يظهر كل ذلك في شعره .

ويقول ابن عبدون في رثاء بني الافطس :

اين الجلال الذى عمت مهابته	قلوبنا وعيون الانجم الزهر
اين الاباء الذى ارسوا قواعده	على دعائم من عز ومن ظفر
اين الوفاء الذى اصفوا شرائعه	فلم يرد احد منهم على كدر

وهنا - ايضا - يكرر (اين) ويأتي بعدها بعبارات شديدة الالتحام ببعضها ، فالجلال ، والاباء ، والوفاء تكون مجتمعة معنى اخلاقيا ذا هالة عظيمة اراد الشاعر ان يظهرها بطرق متعددة ، ثم يحاول تضخيم تلك الهالة ببيان اثار المرثيين على المجتمع عامة فيكرر مجموعة من الحروف ، والادوات تتجاوز نصف الشطر حيث يقول :

من لي ولا من بهم ان اظلمت نوب	ولم يكن ليلها يفضي الى سحر
من لي ولا من بهم ان اطبقت محن	ولم يكن وردها يفضي الى صدر
من لي ولا من بهم ان عطلت سنن	واخفيت السن الاثار والسير

وبعد المكرر يأتي بعبارات : اظلمت نوب، اطبقت محن ، عطلت سنن التي تشترك في الصفات السلبية، حيث تجعل الناس بدون وجود بني الافطس كما مهملا لايقدرون على دفع ملمة او كشف محنة .

وفي بعض الاحيان نجد الشاعر يستهل قصيدته بالتكرار وذلك ليشيع جوا عاطفيا حزينا يشد انتباه السامعين لما سيقوله بعد ذلك كقول ابن الرومي :

ذاد عن مقلتي لذيذ المنـــام | شغلها عنه بالدموع السجام
اى نوم من بعد ماحل بالبصـــ | ـرة ماحل من هنات عظـــام
اى نوم من بعد ما انتهك الزنـــ | ـج جهارا محارم الاســـلام

انها صرخة استنكار وفزع يطلقها الشاعر في وجه النوم . فاى نـــوم يمكن ان يتسلل الى الجفون المشتغلة بالدمع، والنفوس المعذبـــــة بالاحزان والهموم ؟ ان مرجل الانفعالات المؤلمة ليغلي في نفـــس الشاعر ويفور حتى يجعله يهذى كالمحموم ، ويتلهف مرددا اسم البلـــد الذى يرثيه وصفاته :

لهف نفسي عليك ايتها البصـــ | ـرة لهفا كمثل لهب الضـــرام
لهف نفسي عليك يامعدن الـــ | ـخيرات لهفا يعضني ابهامـــي
لهف نفسي عليك ياقبة الاســـ | ـلام لهفا يطول منه غرامـــي
لهف نفسي عليك يافرضة البلـــ | ـدان لهفا يبقى على الاعـــوام
لهف نفسي لجمعك المتفانـــي | لهف نفسي لعزك المستضـــام

فهو يكرر كلمة (لهف) في كل بيت مرتين مما يدل على الاضطـــراب والقلق النفسي ، ثم الحسرة العميقة التي يذكيها تكراره لاداة النداء (يا) مع مايليها من الصفات الفخمة المتناسقة في المعاني والموسيقـــــــى يامعدن الخيرات، ياقبة الاسلام، يافرضة البلدان ، والتي تجعـــــل البصرة في مقام عظيم الاهمية جدير بتلهف الشاعر والمه .

وقصيدة ابن الرومي تعتبر فريدة في بابها من ناحية التكرار ، فقـــد اكثر منه كثرة ملحوظة واستعمله بين كل فترة واخرى وكأنه يجعل منه فاصلـــة انتقال من موقف الى آخر ضمن الاطار العام للقصيدة . فنراه في الموقـــف التالي يدخل في اعماق الحادث مبينا شموله لكافة اهل البصرة ، فتزدحـــم نفسه بالمعاني والمشاعر ، التي لايجد افضل من التكرار وسيلة لنقلها الينا . يقـــول :

كم اغصوا من شارب بشـراب | كم اغصوا من طاعم بطعـام
كم ضنين بنفسه رام منجـا | فتلقوا جبينـه بالحسـام
كم اخ قد رأى اخاه صريعـا | ترب الخد بين صرعى كرام
كم اب قد رأى عزيز بنيـه | وهو يعلى بصارم صمصـام
كم رضيع ـ هناك ـ قد فطمـوه | بشبا السيف قبل حين الفطام
كم فتاة ـ بخاتم الله بكـر ـ | فضحوها جهرا بغير اكتتام
كم فتاة مصونة قد سبوهـا | بارزا وجهها بغير لثـام

فتكرار (كم) التي تفيد التكثير يبين شدة الهول الذى لقيـه الناس، كما يبين شدة الالم الذي تنضح به نفس الشاعر وهو يعدد الاجزاء التفصيلية للنكبة العامة . انه يكرر ويعيد ليفرغ مايحويه صدره مـن الانفعالات، وفي الوقت نفسه يحرص على نقل تلك الانفعالات والمشاعـر الى مستمعيه على الصورة التي يريدها من الحرارة والتأثير، ففي وصفـه لما لقيته النساء من المهانة يقول :

من رآهن في المساق سبايـا | داميات الوجوه للاقـدام
من رآهن في المقاسم وسط الزنـ | ـج يقسمن بينهم بالسهـام
من رآهن يتخذن امـاء | بعد ملك الاماء والخدام

فعبارة (من رآهن) التي يكررها الشاعر، تجعل السامع او القارىء يحس بانه (اى الشاعر) يتمزق وتعتصر قلبه مرارة الارغام، فيجد نفسـه ينتقل الى ذلك الجو، بمشاعره وعواطفه ويمر بنفس التجربة التي عاشهـا الشاعر بالرغم من الفترة الزمنية الطويلة بينهما . وبخاصة ان قضيـة اسر النساء واذلالهن ذات خطورة شديدة في نفوس العرب .

ثم يستمر ابن الرومي في وصف افعال الزنج الشنيعة محـاولا استقصاءها من كل جانب ليبرز عظم النكبة فيقول :

رب بيع هناك قد ارخصوه	طال ماقد غلا على السوام
رب بيت هناك قد اخربوه	كان مأوى الضعاف والايتام
رب قصر هناك قد دخلوه	كان من قبل ذاك صعب المرام
رب ذى نعمة هناك ومال	تركوه محالف الاعدام
رب قوم باتوا باجمع شمل	تركوا شملهم بغير نظام

اننا نحس هنا برنة موسيقية حزينة تنساب من خلال التكرار الذى يهيجه تذكر خراب البيوت العامرة والقصور الزاهرة، ونشاهد بعد ذلك الشاعر وهو يعض اصابعه ندما واسفا حين لم تعد نفسه تطيق صبرا او تحتمل وقع المآسى .

ان الشاعر الراثى حين ينطلق من عاطفة صادقة ويكون مرهف الشعور فانه فى الغالب لن يستغنى عن التكرار لانه عامل مهم فى استقصاء الجزئيات والصفات والفضائل وما الى ذلك . يقول ابن المجاور باكيا خراب المسجد الاقصى :

على المسجد الاقصى الذى جل قدره	على موطن الاخبات والصلوات
على منزل الاملاك والوحى والهدى	على مشهد الابدال والبدلات
على سلم المعراج والصخرة التى	انافت بما فى الارض من صخرات
على القبلة الاولى التى اتجهت لها	صلاة البرايا فى اختلاف جهات
على خير معمور واكرم عامر	واشرف مبنى لخير بناة

لاشك ان للمسجد الاقصى منزلة عليا فى نفوس المسلمين ، فهو قبلتهم الاولى ، وموضع معراج الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ الى السماوات العلى ، وثالث الحرمين الشريفين . . . الخ ولذا فان الشاعر عندما يصطدم بما حل بهذا المكان المبارك يتضاعف فى نفسه جيشان الانفعالات ، ويثب الى ذهنه كثير من المشاهد التى يود رثاءها ، فلابد حينئذ من التكرار للمحافظة على كمال الصورة . وشاعرنا فى هذه الابيات يكرر الحرف (على)

وكأنه يرى انه مهما بكى وندب فلن يستطيع ان يحيط بتلك المعالم الجليلة ايبكى على موضع الصلوات المقفر من رواده ، ام على مكان الوحى وسلم المعراج ، ام على الصخرة ومشهد الابدال . . . . ولذلك فهو يهيج العالم كله على البكاء :

لتبك على القدس البلاد باسرها	وتعلن بالاحزان والترحات
لتبك عليها مكة فهى اختها	وتشكو الذى لاقت الى عرفات
لتبك على ماحل بالقدس طيبة	وتشرحه فى اكرم الحجرات

وتكراره لكلمة (لتبك) المقترنة بلام الامر يدل على ثورة نفسه وعظم تصوره للفاجعة ، فلم يعد يرضيه بكاء اهل القدس ومن حوله ، بل لابد للعالم كله ان يعلن حداده ، ولابد لمكة والمدينة وهما افضل البلاد قاطبة عند المسلمين ، ان تشاركا فى هذا المأتم الكبير ، ولاسيما انهما ترتبطان بالقدس بروابط ووشائج قوية وقديمة .

اما ابن المرابط فيصف احوال الاسرى الاندلسيين بقوله :

كم من اسير عندهم واسيرة	فكلاهما يبغى الفداء فما فدى
كم من عقيلة معشر معقولة	فيهم تود لو انها فى مُلْحَد
كم من تقى فى السلاسل موثق	يبكى لاخر فى الكبول مقيد

وهذه الابيات من قصيدة يستصرخ بها الشاعر بنى مرين لنجدة الاندلس المهددة بغزو النصارى ، فالتكرار هنا احد عوامل التأثير المنشود . وبخاصة انه يكرر (كم) التى تشير الى الكثرة ويتفجع معها على اولئك الاسرى الضعاف من النساء والولدان ، والشيوخ الاتقياء الذين تركوا بيد النصارى يفتنون بتعذيبهم واذلالهم دون ان يجدوا من يفتديهم .

ان اعادة مثل هذه المشاهد ملونة باحاسيس الشاعر على مسامع المستغاث به تحرك من نفسه ساكنا ، وتدفعه الى الاستجابة .

وفي استغاثة المويسكيين بالسلطان العثماني نلاحظ تكرار لفظ السلام في مطلع القصيدة عشر مرات، ومن ذلك قول الشاعر :

سلام كريم دائم متجدد	اخص به مولاى خير خليفة
سلام على مولاى ذى المجد والعلا	ومن البس الكفار ثوب المذلة
سلام على مولاى من دار ملكه	قسنطينة اكرم بها من مدينة
سلام على القاضي ومن كان مثله	من العلماء الاكرمين الاجلة
سلام عليكم من عبيد تخلفوا	باندلس بالغرب في ارض غربة
سلام عليكم من شيوخ تمزقت	شيوبهم بالنتف من بعد عزة
سلام عليكم من وجوه تكشفت	على جملة الاعلاج من بعد سترة
سلام عليكم من عجائز اكرهت	على اكل خنزير ولحم لجيفة

ولعل الشاعر فعل هذا اعلانا عن خضوعه المسبق وتذلله بين يدى السلطان عسى ان يستمع لما يقول ويعى ، فالموريسكيون كانوا في حالة من القهر والذل لاتطاق ، فقد اكرهوا على اعتناق دين النصارى ، وكل من عرف عنه انه فعل امرا يمت الى الاسلام بصلة يقتل او يحرق حيا ، وقد ذهبت كل محاولاتهم لطلب النجدة ادراج الرياح . فالشاعر هنا سفير امة فقدت هويتها وفي نفسه من الالام والاحزان ماتنوء به الجبال ، وهذه آخر المحاولات التي يمكن ان تجدى نفعا فبدأ قصيدته بهذا التكرار ليعلن عن هدفه ، وهو استجداء النصرة ، وذلك باشاعة جو من التعظيم والتبجيل للسلطان ثم يتبعه بعرض شامل للحالة المزرية والنفوس المعذبة في الاندلس من جراء حكم النصارى الحاقدين حيث التعذيب والاستهتار بقيم الاسلام والاكراه على فعل المحرمات وغير ذلك .

ثم ينتقل الشاعر الى عنصر آخر ربما يكون له اثر في اثارة غيرة السلطان ، وهو فعل النصارى بالقرآن والمساجد ، فيقول متأوها :

واحرق ماكانت لنا من مصاحف وخلطها بالزبل او بالنجاسة
وآها على تلك المساجد سورت مزابل للكفار بعد الطهارة
وآها على تلك الصوامع علقت نواقيسهم فيها نظير الشهادة
وآها على تلك البلاد وحسنها لقد اظلمت بالكفر اعظم ظلمة

وهذه التأوهات المتكررة، واللوعة النابعة من الوجدان الصادق تدلان على مقدار الخذلان الذى لقيه اهل الاندلس، كما ان الشاعر عندما يضع هذه الصورة امام السلطان بتلك الروح الملتهبة يطلب منه حلا عاجلا يدفع به اليأس والاستسلام الذى بدأ يتسرب الى آلاف النفوس .

المبحث الثالث : الجماعيـــة

الشاعر فرد يعيش في مجتمع كبير تربطه به علاقات ووشائج قويـــة فهو لايمكن ان يبقى في برجه العاجي منغلقا على نفسه بعيدا عـــن آلام الناس الذين يعيش بينهم ، وكيف له ان يفعل ذلك ، وهو الذي ولد مهيأ ليكون لسان حال امته بما منح من رهافة حس، ودقة شعور. والـــــروح الجماعيةالتي نلمسها في شعر رثاء الدول والامصار تكشف عن مـــدى العلاقة التي كانت تربط بين الشاعر ومجتمعه ، فعندما يصاب الوطـــن الذي يحتضن الجميع بكارثة عامة تودى به ، وتشتت اهله تثور عاطفـــة الشاعر وتدفعه الى القول ، فيكون اول همه التعبير عن آلام قومه الذيـــن عاشرهم زمنا وعن تشردهم وسببهم وما الى ذلك ، دون ان يندب الطبقـة الحاكمة او يبكي لمصيرها الا لماما . يقول الوراق :

لم يبق في بغداد الا امـــرؤ	حالفه الفقر كثير العيـــال
لاام تحمي عن حماهــــا ولا	خال له يحمي ولاغير خـــال
ليس له مال سوى مطـــرد (١)	مطرده في كفه رأس مـــال
هان على الله فاجـــرى علـــى	كفيه للشقوة قتل الرجـــال

فالشاعر هنا بازاء حالة اجتماعية اوجدتها الحرب، تلك هي الهجرة الجماعية التي ادت الى اقفار بغداد من سكانها ، فالذي يستطيـــع الهرب نجاة بنفسه فعل ، حتى لم يبق فيها الا الضعاف والفقراء الذيـــن لم يجدواحيلة فاستسلموا لقدرهم ، او المجرمون واللصوص الذين يقتنصون الفرص في مثل هذه الاوقات لاثارة الفوضى والرعب والقتل في سبيـــل النهب والسلب .

فهذا الاحساس بمصائب الناس هو الذي يغذي قصائد الرثـــاء

---

(١) المطرد : رمح قصير يطعن به الوحش . الصحاح (طرد) .

ويجعلها ذات تأثير متجدد . وينطق ابو ناظرة السدوسي بلسان شعب البصرة المشرد حين يقول :

اري كل قوم لايزال مظنة / منازلهم من آيب ومؤوب
سوانا فانا حشو كل مدينة / والقاوها من نازح وقريب
ذ ود اوجه فيها كواب واعين / بواك وفقر ظاهر وشحوب
فذ و العز منا مستكيل وذ والغني / كأن لم يكن ذا رتبة وركوب
فما حل بالاسلام مثل مصابنا / وسلطاننا للدين حق غصوب

الى ان يقول :

وماكل بصري شكا بمفند / ولا كل بصرى بكى بمعيب
ولو انه بصريا بكى كنه شجوه / بكى بدم حتى الممات صبيب

فهو هنا جزء لايتجزأ ممن يتحدث عنهم ، لانه يشاركهم الويلات والنفي ، ويحس بما يدور في انفسهم ويعبر عنه ، فنراه ينطق بلسان الجمع :" سوانا فانا حشو كل مدينة" ، فذو العز منا . . ." ، " فما حل بالاسلام مثل مصابنا . . . ." ولهذا نجد شعوره بالنكبة عظيما اليما حيث شمله مع من شمل التغير المفاجيء للحياة ، فذل واستكانة بعد عز وسلطان وفقر وشحوب بعد غنى ونضارة عيش ، وتقلب دائم وهجرة مستمرة في شتى البلاد مع نضوب الامل في العودة الى الوطن . كل هذا يشعل قلب الشاعر ويقرح اجفانه ، فيطلق العنان لكل بصرى لكي يجتهد كل الاجتهاد في البكاء غير آبه بلوم اللائمين وعذلهم .

والى نحو هذا يذهب ابن شرف القيرواني في رثائه لحال المشردين من اهل القيروان ، حين يقول :

فاذا نجّت المقادير منهم / راجلا بالخلاص يحمل رحلا
لقي الهون في المذلة انى / كان من سائر البلاد وحلاّ

ليس يلقى الا امرأ مستطيلا ... طالبا عنده حقودا وذحلا
فترى اشرف البرية نفسا ... ناكسا رأسه يلاطف نذلا
فهم كلما نبت بهم ار ... ض مطايا الفراق خيلا ورجلا
مزقوا فى البلاد شرقا وغربا ... يسكبون الدموع هطلا ووبلا
لا يلاقى النسيب منهم نسيبا ... يتعزى به ولا الخل خلا

وابن شرف - ايضا - كان من الذين شردوا ومارسوا تجربة الغربة عمليا بعد خراب موطنه القيروان ، وان كان قد لقى بعض المكانة عند ملوك الاندلس فذلك عن طريق احراق بخور المدح والملق والتكلف فى البلاطات الكثيرة المختلفة . فهو هنا يتميز غيظا والما على الكرامات الابية التى تمتهن عندما يضطر اصحابها الى فعل ماليس من شيمهم ولا من اخلاقهم فى سبيل كسب رضى اولئك الوحوش الذين يعيشون وسطهم والذين امتلأت قلوبهم بالحقد على هؤلاء المشردين ، واعتبروهم فريسة ساقها القدر اليهم .

ولعل الفتك الشنيع والتخريب الهائل الذى لاقته القيروان على يد العرب الهلاليين جعل شعراءها ينظرون الى الناس جميعا نظرة سوء وتشاؤم ، ويصورون الغربة بصورة موحشة مخيفة . فالحصرى القيروانى يبدأ رثاءه للقيروان بقوله :

موت الكرام حياة فى مواطنهم ... فان هم اغتربوا ماتوا وماماتوا
اصبحت فى غربتى لولا مكاتمتى ... بكتنى الارض فيها والسماوات

ويقول ابن رشيق القيروانى فى تشرد قومه :

يستصرخون فلا يغاث صريخهم ... حتى اذا سئموا من الارنان
خرجوا حفاة عائذين بربهم ... من خوفهم ومصائب الالوان
هربوا بكل وليدة وفطيمة ... وبكل ارملة وكل حصان

وممن وصف حال المهاجرين المشردين - ايضا - حازم القرطاجني اذ يقول :

من كل ساهي الفكر مغشي على	فؤاده من كثرة الوجد غمي
تململوا فوق ذرى اكوارهم	كأنما باتوا على حد المدى
اعدت جسوم العيس اجسام لهم	قد كدن لايبصرن من فرط الضوى
واعدت الانفس منها انفس	منهم فرقت من غرام وهوى

وهذا الوصف الدقيق لحال اولئك الهائمين على وجوههم الظاعنين باستمرار الى غير قرار، يبين مدى ارتباط الشاعر بمجتمعه وولائه له، ومن هنا ينتج الادب الهادف الذي يخدم قضايا الامة ويعبر عن آلامها وآمالها . فالقرطاجني عندما يعبر عن الانفس التي شفها الوجد والاجسام التي هزلت من كثرة الاسفار والمشاق حتى انتقلت عدواها الى العيس لكثرة الملازمة ودوام الارتحال، عندما يعبر عن هذا يشعرك بحدبه على اولئك الناس ومشاركته الوجدانية لهم، بالرغم من كونه بعيدا عنهم، وينعم بعيش رغيد .

اما ابن العسال في رثاء مدينة بربشتر فيصف لنا حالة اهلها عندما وقعوا في قبضة النصارى بقوله :

كم موضع غنموه لم يرحم به	طفل ولا شيخ ولا عذراء
ولكم رضيع فرقوه من امه	فله اليها ضجة وبغاء
ولرب مولود ابوه مجدل	فوق التراب وفرشه البيداء
ومصونة في خدرها محجوبة	قد ابرزوها مالها استخفاء
وعزيز قوم صار في ايديهم	فعليه بعد العزة استخذاء

فهو يصور القسوة والوحشية التي عامل بها النصارى الحاقدون ضعاف المسلمين من الاطفال والنساء والشيوخ . والجدير بالذكر ان التركيز على مصير الاطفال والنساء امر نلمسه عند معظم شعراء رثاء المدن

والمدن لأن ذلك اشد اثارة للنفوس والعواطف عند السامعين ، وافسح مجالا لتفجع الشاعر وبكائه . يقول الشاعر المجهول في رثاء الاندلس بعد سقوطها :

وكم من عجوز يحرم الماء ظموها	على الذل يطوى لبثها ومسيرها
وشيخ على الاسلام شابت شيوبه	يمزق من بعد الوقار قتيرها
وكم من صغير حيز من حجر امه	فاكباد ما حراه لفح هجيرها
وكم من صغير بدل الدهر دينه	وهل يتبع الشيطان الاصغيرها

ونلاحظ هنا انه زاد على سابقه امرا جديدا ، وهو تغير الاديان وخصه بالصغير لسرعة تقبله للاشياء الجديدة ، مما يجعل الامر اكثر خطورة وألما للنفس المسلمة .

وقد لهج الشعراء بالبكاء على مصاب هؤلاء الضعاف ، ورددوا ذلك على مسامع المستغاث بهم لشدة وقعه وتأثيره . يقول ابن المرحّل :

ان امام البحر من اخوانكم	خلقا لهم تلفت اليكم
ونحوكم عيونهم ناظرة	لا تطعم النوم وكيف تطعم؟
والروم قد همت بهم ومالهم	سواكم ردء فاين الهمم
كلهم ينظر في اطفاله	ودمعه من الحذار يسجم
اين المفر لا مفر انما	هو الغياث او إسار اودم

ويدخل في اطار الروح الجماعية - ايضا - تفجع الشعراء ، على الشعائر الدينية والمعالم الاسلامية التي يعطلها الكفار ويعبثون بقدسيتها عندما تقع تحت ايديهم ، وذلك لان الدين امر يهم كل فرد من الامة ، بل هو الاساس المتين الذي يقوم عليه المجتمع الاسلامي . وعندما يصاب هذا الدين مثلا - بشعائره ومعالمه - بالنكبات الجسام تهتز المشاعر وتضطرب القلوب فينبرى الشعراء للتعبير عن هذه الموجة من الاحاسيس ايمانا منهم

برسالتهم فى تخليد عظمة الاسلام ومجد الامة .

يقول احدهم فى رثاء القدس :

احل الكفر بالاسلام ضيما	يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع وحمى مباح	وسيف قاطع ودم صبيب
وكم من مسجد جعلوه ديرا	على محرابه نصب الصليب
دم الخنزير فيه لهم خلوق	وتحريق المصاحف فيه طيب
اما لله والاسلام حق	يدافع عنه شبان وشيب

فهو يصور لوعة الدين وبكاءه لاستباحة حماه وتخريب معالمه ومن اهمها المساجد التي هى هدف النصارى الاول ، فيحولونها فورا الى اديرة وكنائس، كما يقومون بتدنيس كل مقدس عند المسلمين ، فهذا القرآن كتاب الله الاعظم ودستور المسلمين يمزق ويحرف ويراق عليه دم الخنزير داخل المساجد نكاية بالمسلمين وزيادة في آلامهم وتعذيبهم النفسى وترى الشاعر يستفظع ذلك وينادى المسلمين شيبا وشبانا للدفاع عن حرمات الله ، ويتعجب من تخاذلهم وانصرافهم عن ذلك .

ويقول ابو البقاء الرندى في رثاء الاندلس :

تبكي الحنيفية البيضاء من أسف	كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الاسلام خالية	قد اقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما	فيهن الا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهى جامدة	حتى المنابر ترثي وهى عيدان

انها صورة مؤثرة جدا لفداحة الخطب الذى حل بالاسلام ، فقد طوي ذكره ولواؤه من بلاد الاندلس بكاملها . بعد ان انست به قرونا طويلة فالمساجد الشامخة بالتوحيد ونور العلم ، اضحت كنائس تعلق فى محاريبها الصلبان ، وتجثم فوق منابرها نواقيس يسرى منها ظلام الشرك الاسود محاولا اطفاء كل نور قد ينبعث من هنا اوهناك ، انه تحول جذرى خطير ، ماتت فيه

حضارة قرون زاهرة، وتشرد فيه شعب طالما ردد التاريخ اصداء جهاده فلمثل هذا تبكي العيون وتنخلع القلوب وتنظم قصائد الرثاء الحارة اللافحة .

وفي شعر الاستغاثة وطلب النجدة كان للحديث عن الاسلام والمساجد مجال خصب للتأثير في نفوس ولاة الامور المسلمين ، وقد افتن الشعراء في ذلك، فطورا يلزمون المستغاث به الحجة ويضعونه امام واجبه المباشر في الذود عن حمى الدين ويجعلونه هو المسؤول امام الله والامة عن ذهاب بلاد الاسلام اذا قصر وتخاذل . يقول ابن سهل في استصراخ عرب افريقيا :

الدين ناداكم وفوق سروجكم — غوث الصريخ وبغية المستنصر
لم يبق للاسلام غير بقية — قد وطنت للحادث المتنكر
والكفر ممتد الطوالع والهدى — متمسك بذناب عيش اغبر

الى ان يقول :

كم نكروا من معلم، كم دمروا — من معشر، كم غيروا من مشعر
كم ابطلوا سنن النبي وعطلوا — من حلية التوحيد ذروة منبر
اين الحفائظ مالها لم تنبعث — اين العزائم مالها لا تنبرى؟
ايهزمنكم فارس في كفه — سيفا ودين محمد لم ينصر؟

واحيانا يكون الحث عن طريق التصوير الموحي لفعل الاعداء بمعالم الاسلام كقول ابن الابار :

ياللمساجد عادت للعدا بيعا — وللنداء غدا اثناءها جرسا
لهفي عليها الى استرجاع فائتها — مدارسا للمثاني اصبحت درسا
سرعان ماعاث جيش الكفر واحربا — عيث الدبا في مغانيها التي كبسا

فهذا العرض الذي يوحي باهتزاز مصير الامة، وتغيير معالم شخصيتها بتدمير المشاعر وابطال السنن يحدث وقعا قويا في النفوس المسؤولة .

واحيانا اخرى يعمد الشاعر الى اظهار فضل المستغاث به وابراز خدمات اسلافه القديمة في سبيل الاسلام ومن ثم يدفعه لاكمال تلك المآثر والمحافظة عليها ، كقول ابن طفيل :

بكم نصر الاسلام بدء فنصره ... عليكم وهذا عوده جد واجب

فقوموا بماقامت اوائلكم به ... ولاتغفلوا احياء تلك المناقب

وقد جعل الله والنبي وآله ... ومهديه منكم بلا عيب عائب

المبحث الرابع : اسباب النكبات

عند مطالعتنا لشعر رثاء الدول والامصار تطالعنا ظاهرة تلمس الشعراء للاسباب التي ادت الى حدوث الكوارث المتمثلة بسقوط الدول وزوالها ، ودمار المدن ووقوعها في يد الاعداء من الثائرين والكافرين ومايتبع ذلك من ويلات وآلام . ولكن الملاحظ ان مايذكرونه من اسباب لا يمس جوهر الحقيقة التي ترويها كتب التاريخ بل يذهبون الى ذكر اسباب عامة تكاد تتشابه في اطارها العام الا في النادر ، فهل كان الشعراء لايدركون حقائق الضعف السياسي وخيانة الحكام وضعفهم وما الى ذلك ؟

الواقع ان الشعراء كانوا من اعلم الناس بما يدور في مجتمعاتهم فقد كان منهم الوزراء والسفراء ، وخدام البلاط . . . ، ولكن جبروت الحكام وشدة نقمتهم على الناقدين والمعارضين جعلت الشعراء يجنحون الى جعل العين ، والمعاصي والمقادير هي سبب السقوط والدمار .

يقول الوراق :

من ذا اصابك يابغداد بالعين	الم تكوني زمانا قرة العين ؟

ويقول احد الشعراء :

بكيت دما على بغداد لما	فقدت غضارة العيش الانيق
اصابتها من الحساد عين	فافنت اهلها بالمنجنيق

والشاعران يبكيان بغداد في فتنة الامين والمأمون ، وسبب الفتنة معروف ومشهور ، وهو الطمع في الاستئثار بالخلافة من اجل المصالح الشخصية الذاتية ، دون النظر فيما يجره ذلك على الامة ، فكانت العاقبة تدمير عاصمة الخلافة بغداد ، وقتل الالاف من الابرياء وتشرد الكثير من مختلف فئات الناس . وعندما تلجلج القول في صدر الشاعرين حملا العين الحاسدة تبعة ذلك كله على سبيل الاعتبار والعظة من زوال الاشياء

وتبدلها ، ولم يوجها اللوم الى اى من الطرفين المتنازعين طلبا للسلامة ولم يفعلا كما فعل الخريمي حين قال في الموقف نفسه واصفا السبب الحقيقى الذى اشعل الفتنة :

فلم يزل والزمان ذو غير	يقدح في ملكها اصاغرها
حتى تساقت كأسا مثملة	من فتنة لا يقال عاثرها
وافترقت بعد الفة شيعا	مقطوعة بينها اواصرها
ياهل رأيت الاملاك ماصنعت	اذ لم يرعها بالنصح زاجرها
اورد املاكنا نفوسهم	هوة في اعيت مصادرها
ماضرها لو وفت بموثقها	واستحكمت في التقى بصائرها

فهو هنا يصرح بالسبب المباشر الذى شهده هو وعلمه الناس جميعا من حوله ، وهو مجافاة الحكام للتقوى ، وضربهم بالمواثيق المبرمة عرض الحائط ، مع عدم وجود الناصحين المخلصين ، فكل حاكم كانت بطانته تزين له انه احق بالامر من صاحبه . فجزء كبير من مسؤولية بيان الحقيقة اذن يقع على الشاعر نفسه ، وقل من يفعل ذلك منهم ، وانى اعتقد ان قصيدة الخريمي هذه قد حوربت حتى اننا لا نجد لها ذكرا الا في احدى زوايا تاريخ الطبرى . على ان الشاعر يضيف الى هذا السبب سببا آخر هو المعاصي التي تمادى الناس في ارتكابهم لها فعاقبهم الله تعالى ، ولعله قصد بهذا اشراك الرعية مع الحاكم في الافساد وجلب المصائب ، حتى يخفف النقمة عليه . يقول :

امهلها الله ثم عاقبها	لما احاطت بها كبائرها
كم قد رأينا من المعاصي ببغدا	د فهل ذو الجلال غافرها
رق بها الدين واستخف بذى ال	فضل ، وعز النساك فاجرها
وخطم العبد انف سيده	بالرغم واستعبدت حرائرها
وصار رب الجيران فاسقهم	وابتز امر الدروب ذاعرها

ويقول ابن رشيق القيرواني في نكبة القيروان :

نظرت لها الايام نظرة كاشح ترنو بنظرة كاشح معيـان
حتى اذا الاقدار حم وقوعها ودنا القضاء عـدة واوان
اهدت لها فتنا كليل مظلم واراد ها كالناطح العيدان

وفي رثاء قرطبة يقول بعضهم :

ابك على قرطبة الزيـن فقد دهتها نظرة العين

ويشير الرندى الى سبب محنة الاندلس بقوله :

اصابها العين في الاسلام فامتحنت حتى خلت منه اقطار وبلدان

ان الشاعر هنا قد يكون واقعا تحت تأثير امرين ، اولهما تقييد حرياته عن التعبير الصحيح تحت طائلة الارهاب، وثانيهما شعور الشاعر بان سبب المصاب قد اصبح معلوما لدى الجميع فلاجدوى من ذكر خيانة الحاكم وجهله وغفلته ، بل يذهب الشاعر ليفتش عن اسبب غامضة يرضى بها انفعالات نفسه، فيجد في العين رمزا خفيا لقوة رهيبة ربما تفعل الاعاجيب . اما الذين ذهبوا الى ان المعاصي والذنوب هي سبب الداء فمنهم ابو اليسر التنوخي الذي يقول في رثاء بغداد ايام التتار :

والله يعلم ان القوم اغفلهم ماكان من نعم فيهن اكثار
فاهملوا جانب الجبار اذ غفلوا فجاءهم من جنود الكفر جبار

وهذا السبب ربما يكون اوجه من سابقه واكثر واقعية، لان حقائق التاريخ تثبت ان كثيرا من المصائب العامة الطامة، كان سببها المعاصي وكفران النعم، وصرفها في غير محلها ، ولقد اشار القرآن الكريم الى هذا

بقوله[1] : (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بانعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) .

وفيما يخص بغداد ، فقد حبيت بنعم كثيرة ، واترفا اهلها ايما ترف ، واسرفوا في الملذات والشهوات المحرمة ايما اسراف ، ومالوا الى الدعة واللهو ، فمن حفلات غناء وطرب ، الى شعر خمرى وغلمانى عابث ماجن ، الى غير ذلك . وكانت النتيجة ضعفا عاما فى الحاكم والمحكوم وظهر العجز عن القيام بواجب الاستخلاف فى الارض ، فجاءت السنة الالهية لتزيلهم عن ذلك بايدى اقوام موغلين فى الوحشية والقسوة . فبينما كانت بغداد ترقد فى خمائل ناعمة من العيش جاءها العقاب على يد المغول الجبابرة الذين لم يعرفوا النعيم ، ولا ذاقوا حياة الترف واللهو ، فدمروها تدميرا لا زال التاريخ يرتجف من هوله .

ويقول ابن هارون فى رثاء اشبيلية :

ياجنة زجرتنا عن زخارفها ... ذنوبنا فلزمنا البث والندما

وابن العسال فى رثاء مدينة بربشتر :

لولا ذنوب المسلمين وانهم ... ركبوا الكبائر مالهن خفاء
ماكان ينصر للنصارى فارس ... ابدا عليهم فالذنوب الداء
فشرارهم لا يختفون بشرهم ... وصلاح منتحلى الصلاح رياء

والمجهول فى رثاء طليطلة :

انأمل ان يحل بنا انتقام ... وفينا الفسق اجمع والفجور
واكل للحرام ولا اضطرار ... اليه فيسهل الامر العسير
يزول الستر عن قوم اذا ما ... على العصيان ارخيت الستور

---

(١) سورة النحل ، الاية : ١١٢ .

وهنا - بلا شك - كان للمعاصي والكبائر التي ارتكبت جهرا دور فعال في تكالب العدو على مدن الاندلس واحتلالها ، وربما كان الشعراء يقصدون الحكام ومن حولهم باهل الكبائر ، لانهم - وبخاصة ملوك الطوائف - كان ينهبون اللذات نهبا ويتوسعون في القتل وسفك دماء شعوبهم دون رحمة ، وهم مع ذلك جبناء يتهافتون على رضى النصارى باغلى الاثمان ، مما دفع ابن العسال الى القول بلا مبالاة بالعواقب :

ماتت قلوب المسلمين برعبهم فحماتنا في حربهم جبناء

وابن شرف القيرواني يصف حال قومه بقوله :

جار فيهم زمانهم واولو الامـ ـر فقروا يرجون في الارض عدلا

وهذه الحقيقة التي تتفلت في كثير من الاحيان على السنة الشعراء تدل على الثورة التي يحملونها ضد اولئك الحكام الجبناء المستهترين بكل شيء ، وربما نستشف من ذلك ان كثيرا من الشعر الذى يكشف عن مثل تلك الثورة قد وئد ساعة مولده ، كما وئدت اسماء كثير من الشعراء فاصبحنا نجد كثيرا من الشعر - وبخاصة في الاندلس - يروى لمجاهيل ويقول المجهول في رثاء الاندلس :

اضعنا حقوق الرب حتى اضاعنا وفضت عرى الاسلام الا يسيرها
وملتنا لم نعرف الدهر عرفها من النكر فانظر كيف كان نكيرها
بما قد كسبنا نالنا ما اتالنا كذا السيرة السوأى لدى من يسيرها
بشقوتنا الخذلان صاحب جمعنا وبؤنا باحوال ذميم حضورها
بعصياننا استولى علينا عدونا وعاثت بنا اسد العدا ونمورها

والشاعر هنا فى لحظة يأس والم وتفكير عميق فى المصير الذى آلت اليه الاندلس، حيث اضحت بلاد كفر وضلال . فتقفز الى ذهنه جملة من الاسباب التى ادت الى ذلك، ولكنه يرى فى ندم واسف ان العصيان والتفريط فى حقوق الله، هو الجامع لها كلها، فتقصير الحاكم فى واجبه، وخيانته للامة هو اضاعة لحقوق الله، وفساد الرعية وهجرها للطريق القويم هو تفريط وغفلة ايضا . وهذا، وذاك هما السبب فى حدوث الهزيمة والشقاء .

وارجع بعض الشعراء سبب الكوارث الى القضاء والقدر، كقول الاعمى :

كأن لم تكن بغداد احسن منظرا ... وملهى رأته عين لاه وناظر
بلى هكذا كانت فاذهب حسنها ... وبدد منها الشمل حكم المقادر

والاوتارى فى دمشق حين التتار :

حرقوها وخربوها وبادت ... بقضاء الاله رب العباد

وابن العديم فى حلب :

ولكنما لله فى ذا مشيئة ... فيفعل فينا مايشاء ويحكم

وابن عميرة فى بلنسية :

وفرقهم ايدى سبا واصابهم ... على غرة منهم قضاء مقدر

ولعل لجوء الشعراء فى كثير من الاحيان الى ذكر نفوذ القضاء وقوة القدر، راجع لرغبتهم فى الهروب من ذكر الاسباب المادية التى ادت الى الحادث الاليم، كالتقصير والنزاع والخيانة وماالى ذلك. كما ان ذكر القدر يوحى بالعجز التام والتسليم المطلق لامر الله، فيعزى الشاعر نفسه بذلك، ويخفف وقع الالم على نفوس السامعين حين يدركون ان الامر خارج عن طاقتهم .

الخاتمة

لقد حملني تتبعي لقصائد رثاء الدول والأمصار في ادبنا العربي على العيش في عصور تاريخية وادبية مختلفة، ففي كل عصر ـ منذ الجاهلي والى آخر التاسع الهجري ـ اقف عند كل قصيدة اجدها، محللا لها تحليلا ادبيا، وتاريخيا زمنيا بغية الكشف عن اسباب السقوط او الدمار وعن الهيئة التي وقع عليها الحادث، وجاء وصفها في قصائد الشعراء وقد تبينت من هذا ان هناك علاقة وثيقة بين الشعر وعلم التاريخ فكلاهما مؤثر في الاخر متأثر به. فالشعر في كثير من الاحيان يعالج امورا لم تأت عليها اخبار التاريخ لسبب من الاسباب، وربما اغفلت عمدا لغرض من الاغراض . فهو يمثل في هذه الحالة لونا جديدا من الوان الاغناء التاريخي يمكن الاطمئنان اليه في تقويم كثير من الاحداث التي سجلت في غير عصورها، وفسرت بغير اسبابها، وعولجت باساليب بعيدة عن الموضوعية . فالشاعر عندما يكون شاهد عيان لسقوط دولته او مدينته ثم يقف على اطلالها راثيا، فانه يأتي بدقائق ولفتات ربما يُعتمد عليها في استنتاجات جديدة لم تخطر ببال المؤرخين . ولهذا نجد كتب التاريخ ومعاجم البلدان لا تمر بحادثة او تصف مدينة الا اوردت ماقيل فيها من الشعر .

واما من ناحية تأثير علم التاريخ في الشعر فربما يكون اقل من تأثير الشعر فيه، لانه تأثير غير مباشر، اى لا يمس جوهر فكرة الرثاء مثلا ولكنه موجود على كل حال . فدراسة ظروف العصر السياسية والاجتماعية تساعد كثيرا على فهم الجو العام الذى كان الشاعر يعيشه عند النظم وبالتالي يمكن تحليل مايرمي اليه من اشارات وايحاءات .

هذا وهناك جملة من النتائج التي حققها هذا البحث يمكن للقارىء ان يتبينها من خلال مطالعته لفصول الرسالة، وسأثبت هنا اهمها :

ففي العصر الجاهلي وجدت لدينا قصائد في رثاء الاثار الدارسة كحصون الحميريين والتبابعة في اليمن وقصور الاكاسرة والمناذرة في الحيرة، كما وجدت طائفة كبيرة من القصائد الجاهلية ترثي الممالك والامم التي هلكت في غابر الدهر، ولكن هذه الاشعار - في الغالب - تقصد الى اظهار تجربة الشاعر وحكمته، وتجري مجرى العظة والعبرة في غير عاطفة حية مشبوبة، لان العربي في جاهليته لم يعرف سكنى الحواضر والمدن، واذا الم بها في اسفاره فعلى عجل، الامر الذي جعل وقوفه بالاطلال وبكاءه على المرابع والدمن، والرسوم اصدق من رثائه ذاك .

ثم توصل البحث الى ان ايوان كسرى ظل رمزا للعظمة الزائلة عبر عصور الادب العربي الطويلة، وكان الوقوف عليه وبكاؤه يتخذ تعلة من قبل الشعراء لرثاء اقوامهم الهالكين في مجال لا يمكن به التصريح كفعل آدم بن عبد العزيز الذي كان في الحقيقة يرثي قومه الامويين وهو في دولة اعدائهم العباسيين، والبحتري الذي كان يبكي المتوكل القتيل وهو يعيش تحت حكم قاتله . ومن المحتمل جدا ان قصيدتيهما قد تأثرت لاحقتهما بالسابقة او تأثرتا بسينيتي ابي عدي العبلي وابي العباس الاعمى في رثاء دولة بني امية .

واذا ماتقدمنا قليلا الى الامام في العصر العباسي حيث برزت مدرسة الصنعة البيانية في الشعر واصبحت هي علامة الجودة القصيدة اورداءتها، وجدنا ان هذا الاسلوب ايضا يفرض نفسه على شعر الرثاء فقد مرت بنا قصائد في رثاء بغداد والشامحين دمرهما المغول، مثقلة بالسجع والزخارف اللفظية والمعنوية بحيث ادت الى طمس صوت العاطفة فيها وتخفيف حدة الانفعال . فحكمنا على شعرائها - من منظور عصرنا - بالتكلف، وقد لا يكونون كذلك، لانهم محكومون بنمط معين، وليس بمقدور كل شاعر ان يخرج عن طوره وان يسبق عصره .

وتبعا لثقافة الشعراء وتفاوت قدراتهم ، ومدى تحررهم او اتباعهم فقد تباينت طرق رثائهم فمنهم من سلك الطريقة التقليدية ، فوقف بالمدن والعواصم وقوفه بـ الاطلال الداثرة فاستوقف الركب ، وخاطب الرفيق ، ودعا بالسقيا . . . . . ثم انتقل الى الغرض الاصلى فركز على ابراز مافى صدره من آلام ، واحزان لفراق الاحبة وهجر الديار . ومنهم من يكون ثائر المشاعر مضطرب النفس لشدة وقع الحدث ، فيفتتح القصيدة بالرثاء والتفجع ، ويرفع صوته بالاهات مباشرة ، ثم يأخذ فى رسم صور حية لمشاهد الدمار والخراب ، وينطلق محللا نفسيات الناس المشردين والذاهلين كما يحس ويرى . وبعضهم يبدأ القصيدة بداية هادئة رزينة مذكرا بقضاء الله وقدره الذى لاراد له ، او مشيرا الى احاطة الموت بكل ماهو حي وما الى ذلك ، وقد اتبع بعضهم طريقةابرز فيهما ثقافته التاريخية فساق فى قصيدته مصائر عظماء الاقوام منذ القدم وكيف فنوا وكأن لم يكونوا شيئا ، ولاينسى ايراد العبرة والعظة ويكثر من ذكر الايات القرآنية والاحاديث النبوية التى تدعم مايقول .

واذا ما انتقلنا الى الاندلس نجد ان حرب النصارى ضد المسلمين كانت تتخذ الطابع الدينى الصليبي ، ولهذا ظلت المعارك مشتعلة على مدى قرون طويلة الى ان انتهت بالفاجعة العظمى ، حيث سقطت الاندلس كلها نهائيا بيد النصارى ، وتركها المسلمون الى غير رجعة .

وقد واكب الشعر الرثائى هذه الحرب فى مسيرتها الطويلة الشاقة ، فوقف الشعراء عند كل مدينة وامارة تدمر او تسقط بيد الاعداء باكين لحالها ، وواصفين فجائع شعبها المسلم بمقدساته ومعالمه وشعائره فنسمع صراخ المساجد يعلو مع ارتفاع الصلبان فوق مآذنها ، ونشاهد بكاء المنابر ونفور المحاريب من اصوات النواقيس التى ارغمت على احتضانها وهذه الروح الاسلامية طبعت شعر رثاء المدن والممالك فى الاندلس بطابع من صدق الشعور وحرارة العاطفة ، واكسبته شهرة جعلت الكثيرين يقصرون هذا اللون الادبى على اهل تلك الجزيرة وينسبونه اليها . .

على ان جهد شعراء الاندلس لم يقتصر على المشاركة الوجدانية فحسب وانما تعدى ذلك الى المشاركة الفعالة ، فاحدثوا غرضا شعريا جديدا هو الاستصراخ والحث على الجهاد لانقاذ البلاد والعباد من خطر النصارى المحدق ، فعبروا البحر مرات كثيرة الى مراكش حيث الموحدون ، ثم بنو مرين من بعدهم ، والى تونس حيث بنو حفص وغيرهم وفي معظم رحلاتهم كانوا سفراء صدق يؤثرون فيمن يخاطبون ، فيعودون ويرافقتهم الجيوش الجرارة المجاهدة ، والمؤن الكثيرة والاسلحة . .

وفي باب الدراسة التفصيلية لخصائص شعر رثاء الدول والامصار وظواهره ، توصلت الى اثبات وجود شعر رثائي غزير في المشرق يشارك شعر الاندلس في حرارة العواطف وصدق الوطنية ، وقد محّصت الاقوال التي كانت تنكر وجود مثل هذا الشعر او التي كانت ترميه بالضعف والجمود عند العظة والعبرة مع ضعف العاطفة وانعدام صدقها وبينت خطأها واجحافها ، واستنتجت ان سبب تلك الاقوال المجحفة ربما يعود الى تشتت هذا الشعر في بطون كتب التاريخ ومعاجم البلدان وان القصائد المشهورة منه تعد في حكم النادر بالاضافة الى عدم اعتناء كتب الادب به كما يجب .

كما توصلت - ايضا - الى ان القول بسبق الاندلس في ابتداع هذا اللون من الشعر ثم انتقاله بعد ذلك الى المشرق تقليدا واتباعا ليس بسديد ، وان عملية التأثر والتأثير بشكل واسع لا تنطبق عليه ، لانه فيض عاطفة انسانية ، ومعانيه تكاد تتشابه ويشترك فيها الجميع ، ودواعيه متوفرة في كل البلاد .

ومن الملاحظات الهامة كثرة تردد بحور الشعر ذات التفاعيل الكثيرة - كالطويل والبسيط - في شعر الرثاء وذلك لملائمتها واتساعها لزفرات الشعراء وآهاتهم المتوالية ، التي يقذفها مرجل الانفعال على السنتهم بشكل مستمر ، ومع هذا النوع من البحور نلاحظ كثرة القوافي المطلقة والمحركة بالكسر وذلك لانها تساعد على مد الصوت بالأنين

والعويل او بالصراخ الغاضب المستنجد ، كما تبين من شواهد هذا البحث ضعف القول بان الشاعر لاينظم عند الانفعال الحاد الا ابياتا قليلة ومن بحر قليل التفاعيل .

وهناك ظاهرة اخرى لها انتشار واسع عند شعراء الرثاء ، ذلك هي ظاهرة التكرار وذلك لما له من دور في مساعدة الشاعر على تفريغ مايحمل من شحنات الالم تدريجيا حتى تسكن نفسه ، كما يستخدم في ابراز ضخامة النكبة حين يظهر الاطراف والاجزاء المتناثرة في صورة مجتمعة . كما لاننسى عمله في تقوية موسيقى القصيدة عن طريق وقع الجرس الناتج عن تكرار الحروف والالفاظ .

واثبت البحث - ايضا - واقعية شعر الرثاء وابتعاده عن شطحات الخيال ، لان الشاعر يتحدث ويصف امورا يشاهدها امامه ، وتجارب يعيشها بروحه واحساسه ، اما من ناحية المبالغة ، فالشاعر لايقصدها وانما تأتي تبعا لتصوره ورؤيته للاشياء على نحو لايدركه الناس العاديون .

واما مانلمسه من اسباب غير حقيقية يوردها الشعراء للنكبات والحوادث فان سببها سياسة القمع والتنكيل بالمعارضين التي كان الحكام الخونة الجبناء ينتهجونها . وهكذا دائما عندما يكون الحاكم او الامير خوارا رعديدا مع الاعداء ، تجده يستأسد على الرعية فيقتل ويسفك الدماء ويكبت الحريات وما الى ذلك ، وهذا مادعى شعراء رثاء الدول والامصار الى اللجوء الى ذكر العين والحسد ، والقضاء والقدر والمعاصي وغيرها على انها اسباب كل مايقع من كوارث ومحن .

ثبت المصادر والمراجـــــع

أولا : المصادر المخطـوطـــه :

ابن الأبـــار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعـــى .

١ - ديوانه ، مخطوط بالخزانة الملكيه بالرباط رقـــــم ٤٦٠٢ .

ابن بدرون : أبو القاسم عبد الملك بن عبد الله الشلبى .

٢ - شرح قصيدة ابن عبدون (البسامه) مخطوط بمركـــز البحث العلمى بجامعة أم القرى برقم ٢٨١ أدب .

ابن خيره المواعينى : محمد بن ابراهيم الاشبيلى .

٣ - ريحان الألباب وريعان الشباب فى مراتب الآداب . مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط برقم ٢٦٤٧ .

ابن الشعّار الموصلى : أبو البركات مبارك بن أبى بكـــر .

٤ - عقود الجمان فى شعراء هذا الزمان ، مخطوط بمركـــز البحث العلمى بجامعة أم القرى برقم ٢٥٤ تراجـم .

ثانيا : المصادر المطبوعــــه :

٥ - القرآن الكريـــــم .

ابن الأبّار القضاعـى .

٦ - التكمله لكتاب الصله ، نشر عزت العطار ، ط القاهـــره ١٩٥٦م .

٧ - الحلة السيراء ، تحقيق حسين مؤنس ، ط القاهره ١٩٦٣م .

٨ - المعجم فى أصحاب الصدفى ، ط مدريد ١٨٥٨م .

ابن أبى دينار : أبو عبد الله أحمد بن أبى القاسم الرعينى .

٩ - المؤنس فى أخبار أفريقيا وتونس ، تحقيق محمد شمّام ، ط تونس ١٩٦٧م .

ابن أبى زرع : ١٠ - الأنيس المطرب بروض القرطاس ، ط الرباط ١٩٧٣م .

ابن الأثير : عز الدين على بن محمد الشيبانى .

١١ - الكامل فى التاريخ ، ط بيروت ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م .

١٢ - اللباب فى تهذيب الأنساب ، ط بيروت ، د . ت .

ابن الأثير : المبارك بن محمد الجزرى .

١٣ - النهاية فى غريب الحديث ، تحقيق الزاوى والطناحى ، ط القاهره ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م .

ابن الأحمر : أبو الوليد اسماعيل بن يوسف النصرى .

١٤ - نثير الجمان فى من نظمنى وإياه الزمان ، تحقيق رضوان الدايه ، ط دمشق ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .

الادريسى : أبو عبد الله بن ادريس .

١٥ - نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ط ليدن ١٨٦٤م .

الأزدى : أبو زكريا يزيد بن محمد .

١٦ - تاريخ الموصل ، تحقيق على حبيبه ، ط القاهره ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م .

الأصفهانى : حسين بن محمد الراغب .

١٧ - محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء ، ط بيروت ١٩٦١م .

الأصفهانى : أبو الفرج على بن الحسين .

١٨ - الأغانى ، مصوره عن طبعة دار الكتب المصريه .

الأصفهـاني : أبوعبدالله محمد بن حامد العماد الكاتب .

١٩ - خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء الشام ، تحقيق شكـري فيصل ط دمشق ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م ، وقسم شعراء المغرب والأندلس تحقيق آذرتاش آذرنوش والعروسي المطوي ومحمد المرزوقـي ، ط تونس ١٩٧١ - ١٩٧٢م .

الأعشـى : ميمون بن قيس .

٢٠ - ديوانـه ، ط بيروت ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م .

امرؤ القيس :

٢١ - ديوانـه ، تحقيق أبي الفضل ابراهيم ، ط القاهره ١٩٦٩م .

ابن ايـاس : محمـد بن أحمـد .

٢٢ - بدائع الزهور ووقائع الدهور ، ط القاهره ١٩٥١م .

البحتري : الوليد بن عبيد الطائي .

٢٣ - الحماسه ، ط القاهره ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م .

٢٤ - ديوانـه ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، ط القاهره ١٩٧٢م .

البخاري : محمد بن اسماعيـل .

٢٥ - صحيح البخاري ، ط القاهره ١٣٧٦هـ .

ابن بسام : أبو الحسن علي الشنتريني .

٢٦ - الذخيره في محاسن أهل الجزيره ، تحقيق احسان عباس ، ط بـيروت ١٩٧٦ - ١٩٧٩م .

ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك .

٢٧ - الصله ، ط القاهره ١٩٦٦م .

البغدادي : أحمد بن علي (الخطيب) .

٢٨ - تاريخ بغداد ، ط بيروت د . ت .

البكرى : أبو عبيد الأندلسى .

٢٩ - سمط اللآلى ، ط القاهره ١٣٥٤ هـ - ١٩٣١م .

البكرى : عبد الله بن عبد العزيز الأندلسى .

٣٠ - معجم ما استعجم ، تحقيق مصطفى السقا ، ط القاهره ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥م .

٣١ - المغرب فى ذكر بلاد أفريقيا والمغرب ، ط باريس ١٩١١م .

البلاذرى : أحمد بن يحيى .

٣٢ - فتوح البلدان ، تحقيق رضوان محمد رضوان ، ط القاهره ١٣٥٠ هـ - ١٩٧٢م .

البهاء زهير : أبو الفضل زهير بن محمد المهلبى .

٣٣ - ديوانه ، ط بيروت ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م .

البيهقى : ابراهيم بن محمد .

٣٤ - المحاسن والمساوئ ، ط بيروت ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م .

البلوى : أبو محمد عبد الله .

٣٥ - سيرة ابن طولون ، تحقيق محمد كرد على ، ط دمشق ١٣٥٨هـ .

ابن تغرى بردى : أبو المحاسن يوسف .

٣٦ - المنهل الصافى ، تحقيق أحمد يوسف نجاتى ، ط القاهره ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦م .

٣٧ - النجوم الزاهره فى ملوك مصر والقاهره ، ط المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٦٣م .

أبو تمام : حبيب بن أوس الطائى .

٣٨ - ديوانه ، شرح الخطيب التبريزى ، تحقيق محمد عبده عزام ، ط القاهره ١٩٦٤م .

الثعالبى : أبو منصور عبد الملك بن محمد النيسابورى .

٣٩ - ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ، تحقيق أبى الفضل ابراهيم ، ط القاهره ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م .

الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر الكنانى .

٤٠ - البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط القاهره ١٣٩٥ هـ .

٤١ - رسائل الجاحظ ، " " ، ط القاهره ١٩٦٥م .

ابن جبير : أبو الحسن محمد بن أحمد الكنانى الأندلسى .

٤٢ - رحلة ابن جبير ، ط ليدن ١٩٠٧م .

الجراح : أبو عبد الله محمد بن داود .

٤٣ - الورقه ، تحقيق عبد الوهاب عزام وعبد الستار أحمد فراج ، ط القاهره ١٩٥٣م .

ابن الجوزى : عبد الرحمن بن على .

٤٤ - المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، ط حيدر أباد ١٣٥٨ هـ .

الجوهرى : اسماعيل بن حمّاد .

٤٥ - الصحاح ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، ط القاهره ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م .

حسان بن ثابت الأنصارى .

٤٦ - ديوانه ، تحقيق وليد عرفات ، ط بيروت ١٩٧٤م .

ابن حزم : أبو محمد على بن أحمد الأندلسى .

٤٧ - جمهرة أنساب العرب ، ط القاهره ١٩٦٢م .

الحموى : أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومى .

٤٨ - معجم الأدباء ، ط القاهره ٩٢٧ ١م بعناية المستشرق مرجليوث .

٤٩ - معجم البلدان ، ط بيروت ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م .

الحميدى : أبو عبد الله محمد بن أبى نصر الأزدى .

٥٠ - جذوة المقتبس ، ط القاهره ١٩٦٦م .

الحميرى : محمد بن عبد المنعم .

٥١ - الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق احسان عباس ، ط بيروت ١٩٧٥م .

٥٢ - صفة جزيرة العرب ، تحقيق بروفنسال ، ط القاهره ١٩٣٧م .

الحنبلى : أبو الفلاح عبد الحيى بن العماد .

٥٣ - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ط بيروت د - ت .

أبو حيان : محمد بن يوسف الغرناطى .

٥٤ - تفسيره المسمى بالبحر المحيط ، ط دار الشعب بالقاهره د - ت .

ابن خاتمه : أحمد بن على الأنصارى .

٥٥ - ديوانه ، تحقيق محمد رضوان الدايه ، ط دمشق ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .

ابن خاقان : الفتح بن محمد بن عبد الله القيسى .

٥٦ - قلائد العقيان . نشر المكتبه العتيقيه بتونس د.ت ، بعناية محمد
العنابى .

٥٧ - مطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الأندلس ، ط القاهره
١٣٢٥ هـ .

الخريمى : أبو يعقوب اسحاق بن قوهى .

٥٨ - ديوانه ، تحقيق جواد الطاهر ومحمد المعيبد ، ط بيروت ١٩٧١م .

ابن الخطيب : أبو عبد الله محمد السلمانى ، لسان الدين .

٥٩ - الاحاطة فى أخبار غرناطه ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، ط القاهره
١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .

٦٠ - أعمال الأعلام ، تحقيق أحمد مختار العبادى ، ط الدار البيضاء ، ١٩٦٤م .

٦١ - ديوان الصّيب والجهام والماضى والكهام ، تحقيق محمد الشريف قاهر ، ط الجزائر ١٩٧٣م .

٦٢ - الكتيبة الكامنه فى من لقيناه بالأندلس من المائه الثامنه ، تحقيق احسان عباس ، ط بيروت ١٩٦٣م .

٦٣ - اللمحه البدريه فى الدوله النصريه ، ط بيروت ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م .

٦٤ - نفاضة الجراب فى غلالة الاغتراب ، تحقيق أحمد مختار العبادى - وعبد العزيز الأهوانى ط القاهره د - ت .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن على .

٦٥ - تاريخه المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ط القاهره ١٣٩١ هـ - ١٩٧١م .

ابن خفاجه أبو اسحاق ابراهيم الأندلسى .

٦٦ - ديوانه ، تحقيق مصطفى غازى ، ط الأسكندريه ١٩٦٠م .

ابن خلكان : شمس الدين أحمد بن محمد .

٦٧ - وفيات الأعيان ، ط بيروت ١٩٧٢م .

ابن الدباغ : عبد الرحمن بن محمد الأنصارى .

٦٨ - معالم الأيمان فى معرفة أهل القيروان ، ط تونس ١٩٢٠م .

ابن دحيه : عمر بن الحسن بن على .

٦٩ - المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق مصطفى الابيارى وحامد عبد المجيد ، ط القاهره ١٩٥٥م .

ابن رسته : أحمد بن عمر .

٧٠ - الأعلاق النفيسة ، ط ليدن ١٨٩١م .

ابن رشيق : أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني .

٧١ - ديوانه ، جمعه عبد الرحمن ياغي ، ط بيروت د - ت .

٧٢ - العمده في نقد الشعر ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، ط بيروت ١٩٧٢م .

ابن الرومي : علي بن العباس بن جريج .

٧٣ - ديوانه اختيار وتصنيف كامل كيلاني ، ط القاهره د - ت .

الزبيدي : محمد مرتضى .

٧٤ - تاج العروس ، ط بيروت ١٣٨٣ هـ - ٦٣ ١م .

الزمخشري : أبو القاسم محمود بن عمر .

٧٥ - أساس البلاغه ، ط القاهره ١٩٦٠م .

ابن الزيات : محمد بن عبد الملك .

٧٦ - ديوانه ، تحقيق جميل سعيد ، ط القاهره د - ت .

السخاوي : محمد بن عبد الرحمن .

٧٧ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ط بيروت د - ت .

٧٨ - المقاصد الحسنه في بيان كثير من الأحاديث المشتهره على الألسنه ، تحقيق محمد عبد الله الصديق ، ط القاهره ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م .

ابن سعيد : أبو الحسن علي بن موسى المغربي .

٧٩ - الغصون اليانعه في محاسن شعراء المائه السابعه ، تحقيق ابراهيم الأبياري ، ط القاهره ١٩٦٧م .

٨٠ - القدح المعلى في التاريخ المحلى ، تحقيق الابياري ، ط القاهره ١٩٥٩م .

٨١ - المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، ط القاهره ١٩٦٤م .

ابن سلام : محمد بن سلام الجمحي .

٨٢ - طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود شاكر ، ط القاهره ١٩٧٤م .

السلاوي : أبو العباس أحمد الناصري .

٨٣ - الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق ولدى المؤلف : جعفر ومحمد ، ط الدار البيضاء ١٩٥٤م .

ابن سهل : ابراهيم الاشبيلي .

٨٤ - ديوانه ، تحقيق احسان عباس ، ط بيروت ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م .

السهيلي : عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي .

٨٥ - الروض الأنف ، تحقيق عبد الرحمن الوكيل ، ط القاهره ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م .

السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن .

٨٦ - بغية الوعاة ، تحقيق أبي الفضل ابراهيم ، ط القاهره ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م .

٨٧ - تاريخ الخلفاء ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، ط القاهره ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م .

الشهاب الخفاجي : أحمد بن محمد بن عمر .

٨٨ - ريحانه الألباء ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ، ط القاهره ١٣٨٦هـ .

ابن شهيد : أبو عامر أحمد بن عبد الملك .

٨٩ - ديوانه ، تحقيق يعقوب زكي ، محمود مكي ، ط القاهره .

٩٠ - رسالة التوابع والزوابع ، تحقيق بطرس البستاني ، ط بيروت ١٩٤٦م .

ابن صاحب الصلاه : عبد الملك .

٩١ - تاريخ المن بالامامه على المستضعفين ، تحقيق عبد الهادى التازى . ط بغداد ١٩٧٩م .

الصفدى : خليل بن ايبك .

٩٢ - نكت الهيمان فى نكت العميان ، ط القاهره د - ت .

٩٣ - الوافى بالوفيات ، ط أوربا ١٩٧٤م بعناية ديدرينغ .

صفوان : أبو البحر بن ادريس التجيبى .

٩٤ - زاد المسافر ، تحقيق عبد القادر محداد ، ط بيروت ١٩٣٩م .

الضبى : أحمد بن يحيى بن عميره .

٩٥ - بغية الملتمس ، ط مدريد ١٨٨٤م .

الضبى : أبو العباس المفضل بن محمد .

٩٦ - المفضليات ، تحقيق يعقوب لايل ، ط بيروت ١٩٢٠م .

الطبرى : محمد بن جرير .

٩٧ - تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق أبى الفضل ابراهيم ، ط القاهره ١٩٦٩م .

الطرطوشى : أبو بكر محمد بن الوليد .

٩٨ - سراج الملوك ، ط الأسكندريه ١٢٨٩م بعناية أنطون فندور .

ابن الطقطقى : محمد بن على بن طباطبا .

٩٩ - الفخرى فى الآداب السلطانيه ، ط القاهرة ١٣٥٧هـ-١٩٣٨م .

ابن عبد ربه : أحمد بن محمد .

١٠٠ - العقد الفريد ، تحقيق ، محمد سعيد العريان ، ط القاهرة ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م .

عبد الله بن بلقين : الأمير الغرناطي :-

١٠١ - التبيان أو (مذكرات الأمير عبد الله) ، تحقيق بروفنسال ، ط القاهره ١٩٥٥م .

ابن العبري : غريغوريوس الملطي :

١٠٢ - تاريخ مختصر الدول ، ط بيروت ١٩٥٨م بعناية أنطون اليسوعي .

العجلوني : اسماعيل بن محمد .

١٠٣ - كشف الخفا ومزيل الألباس ، ط حلب د - ت بعناية أحمد القلاش .

ابن عساكر : أبو القاسم علي بن الحسن .

١٠٤ - تهذيب تاريخ دمشق الكبير ، هذبه عبد القادر بدران ، ط - بيروت ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

العسقلاني : أحمد بن علي .

١٠٥ - الدرر الكامنه ، تحقيق محمد جاد الحق ، ط القاهره ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م .

١٠٦ - الاصابه في تمييز الصحابه ، ط القاهره ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م .

العسكري : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل .

١٠٧ - ديوان المعاني ، ط القاهره ١٣٥٢هـ .

ابن عطيه : أبو محمد عبد الحق بن غالب المحاربي .

١٠٨ - فهرس ابن عطيه ، تحقيق محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي ، ط بيروت ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

ابن العمراني : محمد بن علي بن محمد .

١٠٩ - الانباء في تاريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم السامرائي ، ط ليدن ١٩٧٣م .

عياض : أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي :-

١١٠ - ترتيب المدارك وتقريب المسالك ، تحقيق أحمد بكير محمود ط ليبيا ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م .

الغبريني : أبو العباس محمد بن أحمد بن عبد الله .

١١١ - عنوان الدرايه في من عرف من العلماء في المائه السابعه ببجايه ، تحقيق عادل نويهض ، ط بيروت ١٩٦٩م .

١١٢ - المختصر في أخبار البشر ، ط القسطنطينيه ١٢٨٦ هـ .

ابن فرحون : ابراهيم بن علي بن محمد .

١١٣ - الديباج المذهب ، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور ، ط القاهره ١٩٧٢م .

ابن الفرضي : أبو الوليد عبد الرحمن بن محمد الأزدي .

١١٤ - تاريخ علماء الأندلس ، ط القاهره ١٩٦٦م .

ابن الفوطي : عبد الرزاق بن أحمد الصابوني .

١١٥ - الحوادث الجامعه والتجارب النافعه ، نشره مصطفى جواد ، ط بغداد ١٣٥١ هـ .

القالي : أبو علي اسماعيل بن القاسم البغدادي .

١١٦ - الأمالي ، ط القاهره ١٩٢٦م - ١٣٤٤ هـ .

ابن قتيبه : أبو عبد الله محمد بن مسلم الدينوري .

١١٧ - الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد شاكر ، ط القاهره ١٩٦٦م .

قدامه بن جعفر .

١١٨ - نقد الشعر ، تحقيق كمال مصطفى ، ط القاهره ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

القرشـــى : أبو زيد محمد بن أبى الخطـاب .

١١٩ - جمهرة أشعار العرب ، تحقيق محمد على الهاشمى ، ط جامعة الامام محمد بن سعود الاسلاميه ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

القرطاجنى : حازم بن محمد الأنصارى .

١٢٠ - ديوانه ، تحقيق عثمان الكعاك ، ط بيروت ١٩٦٤ م .

١٢١ - قصائد ومقطعات ، تحقيق الحبيب بن الخوجه ، ط بيروت - ١٩٧٢ م .

١٢٢ - منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق الحبيب بن الخوجـه ، ط تونس ١٩٨١ م .

القفطـى : جمال الدين بن أبى الحسن يونس .

١٢٣ - انباه الرواه ، ط القاهره ١٣٧١هـ - ١٩٥٢ م .

القلقشندى : أبو العباس أحمد بن على .

١٢٤ - صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ط المؤسسه المصريـه للتأليف والترجمه والنشر .

١٢٥ - مآثر الانافه فى معالم الخلافه ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، ط الكويت ١٩٦٤ م .

ابن القلانسى : أبو يعلى حمزه .

١٢٦ - ذيل تاريخ دمشق ، ط بيروت ١٩٠٨ م .

الكتانـى : عبد الحى بن عبد الكريم .

١٢٧ - فهرس الفهارس ، ط بيروت ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢ م بعنايـة احسان عباس .

الكتبى : محمد بن شاكر .

١٢٨ - فوات الوفيات ، تحقيق عباس ، ط بيروت ١٩٧٤م وتحقيق محيى الدين عبد الحميد ، ط القاهره ١٩٥١م .

ابن كثير: أبو الفداء اسماعيل بن عمر .

١٢٩ - البدايه والنهايه ، ط بيروت ١٩٦٦م .

ابن الكردبوس : أبو مروان عبد الملك .

١٣٠ - تاريخ الأندلس ، نشره مختار العبادى بصحيفة معهد الدراسات الاسلاميه بمدريد مج ١٣ سنة ١٩٦٥م - ١٩٦٦م .

المبرد : أبو العباس محمد بن يزيد .

١٣١ - التعازى والمراثى ، تحقيق محمد الديباجى ، ط دمشق ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م .

١٣٢ - الكامل فى اللغه والأدب ، تحقيق أبى الفضل ابراهيم ، ط القاهره

مجهول :-

١٣٣ - أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر ، ط جوتنجن ١٨٦٣م ، بعناية المستشرق مللر .

مجهول :-

١٣٤ - الحلل الموشيه فى ذكر الأخبار المراكشيه ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامه ، ط الدار البيضاء ١٣٩٩هـ .

مجهول : -

١٣٥ - الذخيره السنية فى تاريخ الدوله المرينيه ، ط الجزائر ١٩٢٠م ، تحقيق محمد بن أبى شنب .

المراكشى : أحمد بن محمد بن عذارى .

١٣٦ - البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق بروفنسال ، ط بيروت ٩٦٧ ١م .

المراكشى : أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصارى .

١٣٧ - الذيل والتكملة ، تحقيق احسان عباس ، ط بيروت ٩٦٥ ١م .

المراكشى : عبد الواحد بن على .

١٣٨ - المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق سعيد العريان ، ط القاهره ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م .

المرتضى : على بن الحسين العلوى .

١٣٩ - أمالى المرتضى ، تحقيق أبى الفضل ابراهيم ، ط بيروت ٩٦٧ ١م

المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين .

١٤٠ - مروج الذهب ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، ط بيروت ٩٧٣ ١م .

ابن المعتز : عبد الله بن المعتز بن المتوكل العباسى .

١٤١ - ديوانه ، ط بيروت ١٣٨١هـ - ١٩٦١م .

١٤٢ - طبقات الشعراء ، ط القاهره ٩٦٨ ١م .

المقدسى : شهاب الدين بن محمد المعروف بأبى شامه .

١٤٣ - الروضتين فى أخبار الدولتين ، ط بيروت د . ت .

المقدسى : مطهر بن طاهر .

١٤٤ - البدء والتاريخ ، نشره كلمان هوار ، ط باريس ١٨٩٩م .

المقرى : أحمد بن محمد التلمسانى .

١٤٥ - أزهار الرياض فى أخبار عياض ، تحقيق الابيارى والسقا وشلبى ، ط القاهره ١٣٥٨هـ .

١٤٦ - نفح الطيب ، تحقيق احسان عباس ، ط بيروت ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .

المقريزى : أبو العباس تقى الدين أحمد بن على .

١٤٧ - اتعاظ الحنفاء بأخبار الفاطميين الخلفاء ، تحقيق محمد حلمى أحمد ، ط القاهره ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .

١٤٨ - الخطط المقريزية ، ط القاهره ١٣٢٤هـ .

١٤٩ - السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق سعيد عاشور ، ط القاهره ١٩٧٢م .

المكناسى : أبو العباس أحمد بن محمد .

١٥٠ - جذوة الاقتباس فى ذكر من حلّ من الاعلام مدينة فاس ، ط الرباط ١٩٧٣م .

١٥١ - درة الحجال فى أسماء الرجال ، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور ، ط تونس ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م .

مالك بن أنس : امام دار الهجرة .

١٥٢ - الموطأ ، ط القاهره ، ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م .

ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم .

١٥٣ - لسان العرب ، ط بيروت ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م .

ابن منقذ : أبو المظفر أسامه بن مرشد الكنانى .

١٥٤ - الاعتبار ، ط جامعة برنستون بالولايات المتحده الامريكيه ١٩٣٠م ، بعناية فليب حتى .

١٥٥ - ديوانه ، تحقيق أحمد بدوى وحامد عبد المجيد ، ط القاهره ١٩٥٣م .

١٥٦ - المنازل والديار ، تحقيق مصطفى حجازى ، ط القاهره ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥م .

الموسوى : محمد باقر الأصبهانى .

١٥٧ - روضات الجنات ، تحقيق أسد الله اسماعليان ط . طهران ١٣٩٢ هـ .

الميدانى : أبو الفضل أحمد بن محمد بن ابراهيم النيسابورى .

١٥٨ - مجمع الأمثال ، تحقيق محى الدين عبد الحميد ، ط القاهره ١٣٧٩هـ .

ابن النديم : أبو الفرج محمد بن أبى يعقوب الوراق .

١٥٩ - الفهرست ط طهران ١٣٩١هـ - ١٩٧١م .

أبو نواس : الحسن بن هانئ .

١٦٠ - ديوانه ، تحقيق أحمد عبد الحميد الغزال ، ط بيروت .

ابن هشام : أبو محمد عبد الملك .

١٦١ - السيره النبويه ، تحقيق السقا والابيارى وشلبى ، ط القاهره ١٩٥٥ .

الهمذانى : رشيد الدين .

١٦٢ - جامع التواريخ (تاريخ المغول) ، تعريب عبد المعطى الصياد وآخرون ، ط القاهره د - ت .

ابن واصل : أبو عبد الله محمد بن سالم المازنى .

١٦٣ - مفرّج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط القاهره ١٩٦٠م .

الونشريشى : أبو العباس محمد بن يحيى .

١٦٤ - أسنى المتاجر فى بيان من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ، نشره حسين مؤنس بصحيفة معهد الدراسات الاسلاميه - مدريد ١٩٥٧م .

اليافعي : أبو عبد الله بن أسعد بن سليمان .

١٦٥ - مرآة الجنات ، ط بيروت ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م .

اليمني : عماره بن أبي الحسن الحكمي .

١٦٦ - أخبار اليمن ، تحقيق محمد بن الأكوع الحوالي ط القاهره ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م .

١٦٧ - ديوانه ، تحقيق ذى النون المصرى . ط القاهره د . ت .

اليونيني : قطب الدين موسى بن محمد .

١٦٨ - ذيل مرآة الزمان ، ط الهند ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م .

المراجع الحديثه :-

ابراهيم أنيس :

١٦٩ - موسيقى الشعر ، ط القاهره ١٩٧٢م .

ابراهيم العدوى :

١٧٠ - العرب والتتار ، ط القاهره ١٩٦٣م .

احسان عباس :

١٧١ - فن الشعر ، ط بيروت ١٩٥٥م .

أحمد أمين :

١٧٢ - ظهر الاسلام ، ط القاهره ١٩٦٦م .

أحمد بدر :

١٧٣ - من كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ط دمشق ١٩٧٨م .

أحمد توفيق :

١٧٤ - المسلمون فى جزيرة صقليه ، ط تونس ١٩٦٥م .

أحمد سوسه :

١٧٥ - ري سامراء ، ط بغداد ١٩٤٨م .

أحمد شوقي :

١٧٦ - الشوقيات ، ط القاهره ١٩٧٠م .

أحمد بن عامر :

١٧٨ - الدولة الحفصية ، ط تونس ١٩٧٤م .

آنخل جنثالث بلنثيا :

١٧٩ - تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، ط القاهره ١٩٥٥م أميليو غارسيه غومس :

١٨٠ - الشعر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، ط القاهره ١٩٦٩م .

أنور المعداوي :

١٨١ - نماذج فنيه من الأدب والنقد .

بطرس البستاني :

١٨٢ - أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث ، ط بيروت ١٩٦٤م .

جواد علي :

١٨٣ - المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ط بغداد ١٩٧٨م .

حسن ابراهيم حسن :

١٨٤ - تاريخ الدولة الفاطمية ، ط القاهره ١٩٥٨م .

حافظ حمدي :

١٨٥ - الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي ، ط القاهره ١٩٥٠م .

ستيفن رنسيمان :

١٨٦ - تاريخ الحروب الصليبيه ، ترجمة الباز العريني ، ط بيروت ١٩٦٧م .

سعد اسماعيل شلبي :

١٨٧ - ابن حمديس الصقلي ، ط القاهره ١٩٧٧م .

سعد زغلول عبد الحميد :

١٨٨ - محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والأندلس ، ط بيروت ١٩٧٣م .

سعيد عاشور :

١٨٩ - بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، ط بيروت ١٩٧٧م .
الحروب الصليبيه ، ط القاهره ١٩٧٨م .

شوقي أبو خليل :

١٩٠ - معركة العقاب ، ط دمشق ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

شوقي ضيف :

١٩١ - دراسات في الشعر العربي المعاصر ، ط القاهره ١٩٧٣م .

١٩٢ - الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ط القاهره ١٩٦٠م .

الطاهر أحمد مكي :

١٩٣ - دراسات أندلسيه في الأدب والتاريخ والفلسفه ، ط القاهره ١٩٨٠م .

عبد الرحمن علي الحجي :

١٩٤ - أندلسيات ، ط بيروت ١٣٨٨هـ ، ١٩٦٩م .

١٩٥ - التاريخ الأندلسي ، ط دمشق ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م .

عبد الرحمن ياغي :

١٩٦ - حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها ، ط بيروت ١٩٦١م .

عز الدين اسماعيل :

١٩٧ - الأسس الجمالية في النقد العربي ، ط القاهره ١٩٥٥م .

عبد العزيز سالم :

١٩٨ - تاريخ مدينة المريه الاسلاميه ، ط بيروت ١٩٦٩م .

١٩٩ - تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ط بيروت ١٩٦٢م .

٢٠٠ - قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ، ط بيروت ١٩٧١م .

عبد العزيز عتيق :

٢٠١ - علم العروض والقافيه ، ط بيروت ١٩٧٤م .

عبد الكريم التواتى :

٢٠٢ - مأساة انهيار الوجود العربى فى الأندلس ، ط الدار البيضاء ١٩٦٧م .

عبد الكريم خليفه :

٢٠٣ - ابن حزم الأندلسى : حياته وأدبه ، عمّان د . ت .

عبد الله علّام :

٢٠٤ - الدولة الموحديه فى عهد عبد المؤمن بن على ، ط القاهره ١٩٧١م .

عبد الله كنون :

٢٠٥ - ذكريات مشاهير رجال المغرب ، ط بيروت د - ت .

عمر موسى باشا :

٢٠٦ - أدب الدوله المتتابعه (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك) ط دمشق ١٣٨٦هـ - ١٩٦٧م .

على الجارم :

٢٠٧ - قصة العرب فى اسبانيا ، ط القاهره ١٩٦٨م .

على محمد حموده :

٢٠٨ - تاريخ الأندلس السياسى والعمرانى والاجتماعى ط القاهره ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م .

علي مصطفى المصراتي :

٢٠٩ - ابن حمديس الصقلي ، ط طرابلس لبنان ١٩٧٢م .

فليب حتي وآخرون :

٢١٠ - تاريخ العرب المطول ، مطابع الغندور ١٩٦٥م .

فؤاد الصياد :

٢١١ - المغول في التاريخ ، ط القاهره ١٩٧٥م .

أبو القاسم كرو :

٢١٢ - عصر القيروان ، ط تونس ١٩٧٣م .

محمد ابراهيم حور :

٢١٣ - الحنين الى الوطن في الأدب العربي ، ط القاهره ١٩٧٣م .

محمد رجب البيومي :

٢١٤ - الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير ، ط جامعة الامام محمد بن سعود الاسلاميه بالرياض ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

محمد رضوان الدايه :

٢١٥ - ابن خفاجه ، ط القاهره ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .

٢١٦ - تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ، ط دمشق ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

٢١٧ - مختارات من الشعر الأندلسي ، القاهرة ١٩٧٢ .

محمد زغلول سلام :

٢١٨ - الأدب في العصر الأيوبي ، ط القاهره ١٩٨٠م .

محمد صبيح :

٢١٩ - القدس معاركنا الكبرى ، ط القاهره ١٩٧٠م .

محمد عبد الله عنان :

٢٢٠ - الآثار الأندلسيه الباقيه في أسبانيا والبرتغال ، ط القاهره ١٩٦٦م .

٢٢١ - تراجم اسلاميه شرقيه وأندلسيه ، ط القاهره ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠م .

٢٢٢ - دول الطوائف ، ط القاهره ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩م .

٢٢٣ - عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ، ط القاهره ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤م .

٢٢٤ - لسان الدين ابن الخطيب ، ط القاهره ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨م .

٢٢٥ - مواقف حاسمه فى تاريخ الاسلام ، ط القاهره ١٩٦٢ - ١٣٨٢ هـ .

٢٢٦ - نهاية الأندلس ، ط القاهره ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩م .

محمد عبدالله حتاملـه :

٢٢٧ - التنصير القسرى لمسلمى الأندلس ، ط عمان ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م .

محمد فريد المحامى :

٢٢٨ - تاريخ الدوله العليه العثمانيه ، ط بيروت ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م .

محمد كرد علـى :

٢٢٩ - خطط الشام ، ط بيروت ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .

٢٣٠ - رسائل البلغاء ، ط القاهره ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦م .

٢٣١ - غابر الأندلس وحاضرها ط القاهره ١٩٢٣م .

محمد كمال الدسوقى :

٢٣٢ - الدولة العثمانية والمسألة الشرقيه ، ط القاهره ١٩٧٦م .

محمد مجيد السعيد :

٢٣٣ - شعر ابن اللبانه الدانى ، ط البصره ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م .

٢٣٤ - الشعر فى عهد المرابطين بالأندلس ، ط الكويت ١٩٨٠م .

محمد محمد مخلوق :

٢٣٥ - شجرة النور الزكيه ، ط بيروت ١٣٤٦ هـ .

محمد المرزوقى :

٢٣٦ - أبو الحسن الحصرى القيروانى ، ط تونس ١٩٦٧م .

محمود العابدى :

٢٣٧ - قدسنا ، ط القاهره ١٩٧٢م .

محمود الهجوسى :

٢٣٨ - محمد بن عبد الملك صاحب التنّور ، سلسلة أعلام العرب ، ط الدار المصريه للتأليف والترجمه والنشر .

مخائيل شاروبيم :

٢٣٩ - الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ، ط بولاق ١٣١٥هـ - ١٨٩٨م .

مصطفى عوض الكريم :

٢٤٠ - الأدب الأندلسى فى عهد المرابطين ، ط السودان ١٩٦٨م .

مصطفى محمد الشكعه :

٢٤١ - رحلة الشعر من الأمويه الى العباسيه ، ط بيروت ١٩٧٩م .

ول ديورنت :

٢٤٢ - قصة الحضارة . ترجمة محمد بدران ، ط القاهره ١٩٦٤م .

يوسف أشباخ :

٢٤٣ - تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة عنان ط القاهره ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م .

يوسف الياس الدبس :

٢٤٤ - تاريخ سوريا ، ط بيروت ١٩٠٢م .

يونس السامرائى :

٢٤٥ - سامراء فى أدب القرن الثالث الهجرى ، ط بغداد ١٩٦٣م .

الدوريّـــات :

عبد الرحمن الحجـى :

٢٤٦ - (رثاء الأندلس لشاعر مجهول) ، مجلة الرسالة مج ١ سنـــة ١٣٥٤هـ - ١٩٣٦م .

عبد اللــه كنـون :

٢٤٧ - (أبو البقاء الرندى وكتابه الوافى فى نظم القوافـــــى) ، صحيفة معهد الدراسات الاسلاميه بمدريد ١٩٥٨م - ١٣٧٨هـ .

ليفى بروفنسـال :

٢٤٨ - (السيد القمبيطـور) دائرة المعارف الاسلاميه (مـــادة السيد) ج ١٢ .

مهـدى عـلاّم .

٢٤٩ - (مقصورة حـازم) ، حوليات كلية آداب عين شمس سنة ١٩٥٣م) .

الفهرســـت

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث : رثاء الامارات الأندلسية :	٣٦٠ - ٤١٦ .
رثاء امارة موبيطر .	٣٦٠ - ٣٦٣ .
رثاء امارة بنى عباد	٣٦٣ - ٣٩٨ .
رثاء امارة بنى الأفطس	٣٩٨ - ٤١٠ .
رثاء امارة بنى صمادح	٤١١ - ٤١٦ .
الفصل الرابع : رثاء الأندلس عامه	٤١٧ - ٤٥٤ .
الباب الثالث : دراسة تفصيلية لشعر رثاء الدول والأمصار	٤٥٥ - ٥٥١ .
الفصل الأول : رثاء الدول والأمصار بين التأثر والتأثير .	٤٥٦ - ٤٦٥ .
الفصل الثانى : دراسة شكل قصيدة الرثاء	٤٦٦ - ٥١٨ .
المبحث الأول : مقدمات القصائد	٤٦٦ - ٤٧٥ .
المبحث الثانى : الألفاظ	٤٧٥ - ٤٩٠ .
المبحث الثالث : الأوزان والقوافى	٤٩١ - ٤٩٩ .
المبحث الرابع : الاقتباس والتضمين	٥٠٠ - ٥١٨ .
الفصل الثالث : دراسة مضمون قصيدة الرثاء	٥١٩ - ٥٥١ .
المبحث الأول : الواقعية	٥١٩ - ٥٢٩ .
المبحث الثانى : التكرار	٥٣٠ - ٥٣٧ .
المبحث الثالث : الجماعيه	٥٣٨ - ٥٤٥ .
المبحث الرابع : أسباب النكبات	٥٤٦ - ٥٥١ .
الخاتمه :	٥٥٢ - ٥٥٦ .
ثبت المصادر والمراجع	٥٥٩ - ٥٨٣ .
الفهرست	٥٨٤ - ٥٨٦ .